مدفن الدار

تخييل سردي

رواية

أدهم مسعود القاق

سوريا، ريف دمشق،

مقيم في الإسكندرية

Adhamalkak68@gmail.com,

موبايل: ٠٠٢٠١٠١٨٠٨١٥٩٠

obeikandl.com

مركز ليفانت للدراسات الثقافيّة والنشر
الإسكندريّة، مصر
دار كتاب مصر القديمة، الإسكندرية، مصر
أدونيس للثقافة والنشر، ريف دمشق، سوريا

اسم المؤلّف: أدهم مسعود القاق
عنوان الكتاب :مدفن الدار، تخييل سيريّ، رواية
ط، ت: ١٤٣٩هـ- ٢٠١٨ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلّف

Levant.egsy@gmail.com

موبايل: ٠١١١٤٣٩١٦٠٠ هاتف: ٤٨٣٠٩٠٣ / ٠٣مصر

عنوان: ط ٣، بناء ٤٤ ، ش سوتر، أمام كلية حقوق
الإسكندرية، مصر

دار الكتب والوثائق القوميّة / القاهرة / رقم الإيداع: ٨٤٦

الترقيم الدوليّ: ٠-٩-٦٦٣٥٨-٧٧٩-٨٧٩ / تاريخ ٢٠١٨/٣/٢٢م

لوحات الغلاف للفنان السوري تمام عزام

obeikandl.com

إهـــــداء

إلى شهداء الثورة السورية الثانية،
دماؤكم الطّهورة
بيارق على درب ثورة الربيع العربيّ الطويلة

أدهم مسعود القاق

obeikandl.com

obeikandl.com

إغماض عن ولادة مبهمة

obeikandl.com

obeikandl.com

بكى عمر، وسأل ظلام الليل أمام أخواته وأمّه وجدّته:

أين أنتَ يا أحمد، هل تشهد على وطن ينزف طائفيّة وموتًا وتهجيرًا واعتقالًا وتغييبًا وإعاقةً وجهلًا وفسادًا.

لم يتلقَ جوابًا، ولكنّه استأنس، حالما وصل سليمان إلى الدّار الكبيرة، كان يعرج من رجله بشكلٍ واضح، جراحه تنزف دماءً، وقبل أن يسقط على الأرض انتحى بعمر، وطمأنه:

جاء من أخبرني همسًا أنّ أحمد حيٌّ يرزق، وأوصاني بكتمان الخبر، كان خلفي، وأنا أصلّي في الجامع الكبير، لم أعرفه؛ لأنّه توارى في العتم،...

قبل سقوط سليمان على الأرض، سنده عمر، وأجلسه على أريكةٍ، وسأله عمّن أثخن جراحه، فأجابه:

الذيب ابن شطمة، إنّه كائنٌ ليليّ، يرى في العتم خلافًا للناس، فتمكّن من إيذائي؛ حينما تواريت في الجامع بعد معركة المقبرة.

لَعَن عمرُ الذيبَ والعتمةَ، وحمِد اللّه على بقاء أحمد حيًّا، ثمّ سأل سليمان عن أخيه إبراهيم، فبكى، وأخبره أنّه استشهد في معركة المقبرة، وقام مع رفاقه بدفنه على عجل؛ حتّى لا تبقى جثّته معروضة لكلاب الليل المسعورة وجرذانها، فصرخ عمر صرخة ألم عظيمة، فركضت أخواته نحو الصوت، وعرفن مع أمّهن بموت إبراهيم، بكين عليه وعدّدن مناقبه، ثمّ قادهم سليمان نحو سرير جدّتهم نعيمة، كنّ يبكين بحرقة في الظلمة الكالحة، وكان عمر يلوم نفسه على ما فعله، صمتوا جميعًا؛ حينما كانت الجدّة تحاول أن تنطق،... ثم سمعوا حشرجتها، قائلةً:

أحمـ..... وأسلمت روحها إلى بارئها، اقترب منها عمر، ونادى:

جدّتي نعيمة، ستّي، ستي، ستي،...

حركّها فلم تستجب، عاود نداءه من دون جواب، لقد استحالت موتًا، لم يعرفوا أن يسعفوها؛ إذ إن حلكة الظلام منعتهم، تأكدّوا من موتها، وأجّلوا دفنها؛ حتى ينبلج نهار جديد، لكنّ الليل المدلهمّ بقي مطبقًا، وأبت الشمسُ أن تظهر.

بحلكة ذلك الليل الفظيع، ذرف عمر دموعًا سخيّة سالت على وجنتيه، لا يعرف؛ أكانت دموع فرح لتأكّده من حياة أحمد، أم دموع حزن على غياب سلمى ويحيى في لبنان، أو على موت أخيه إبراهيم الذي قُتل في معركة المقبرة، أم لافتقاده وسيلة إنارة في العتم لمعرفة الذي يحصل خارج الدار، أم على جدّته نعيمة التي حاروا بطريقة دفن جثمانها؛ إذ لم يعد بمقدورهم أن يدفنوها في المقبرة العموميّة وسط ليل أمّ الإبر الذي لفّ وجودها؛ حتّى أشارت أمّه التي أصبح بصرها شحيحًا جدًّا إلى إعادة تشييد مدفن الدار من جديد ومواراة جثمانها تحت ترابه.

obeikandl.com

إغماض عن ولادة مبهمة

لم يخطر على بال الذيب ابن شطمة أن يُطرد من جنازة الشيخ فخري، حينما تقدّم وفد التعزية مرتديًّا بدلته الرسميّة الداكنة وربطة عنق حمراء وقميصًا أبيض، وإلى جانبه أبوه بالتبني الحاج الدغري الذي طالما افتخر به؛ لوصوله إلى أعلى المراتب الحكوميّة، على عكس أبنائه الحقيقيين مضر وأخويه الذين اختاروا دروب العلم والتديّن؛ فكان ينصحهم ألّا يجاهروا بآرائهم، ويضرب لهم الذيب مثلًا صالحًا في الارتقاء بالمناصب.

بعد أن عدّد المعزّون مناقب الفقيد، ارتجل الذيب كلمة، أشاد فيها بفخري أفندي وبأبيه المرحوم شيخ وصفي، الذي وافته المنيّة قبل سنوات قليلة، ثمّ ترحّم على أرواح أسلافه الطاهرة، حماة كرامة أم الإبر والمدافعين عن شرف أبنائها، والذين استحقّوا أن يُعمّر مدفنٌ لرميمهم الطاهر في الدار الكبيرة، ثمّ قعد في صدر موقف العزاء ومن حوله الوفد المرافق له.

أمّا أحمد الذي كان يتقبّل التعازي إلى جانب أخويه سليمان وإبراهيم وأقاربه، ويحلم بثريّا التي تعرّف إليها قبل يوم واحد عن طريق حمود، فلم يتحمّل وجود الذيب؛ إذ لمع في ذاكرته موقفه المُهين لأبيه المتوفى، حينما عنّفه، واعتدى على كرامته قبل بضع سنوات في غرفة مدير المدرسة، فانتابه غضبٌ شديدٌ، ووجّه كاملَ سخطه نحوه مسدّدًا سهام نظراته باتجاهه مباشرة، وتجنّب الذيب النظر إليه، ولكنّ أحمد لم يمهله؛ إذ اقترب منه، وطلب مرافقته إلى خارج موقف العزاء، ولحظة غيابه عن الأعين ذكّره بشتمه أباه المتوفى في المدرسة، وقال له ممتعضًا:

- تدوس على كرامة أبي في حياته، وتأتي لتتباكى عليه في مماته؟ أنت شخص غير مرغوب فيك، اخرج من هنا، ولا ترنا وجهك طوال أيام العزاء.

أنت يا أحمد تطردني؟ ردّ الذيب مستنكرًا، أجابه أحمد سريعًا:

- طبعًا أطردك.
- معنى هذا أنت لا تعرف مع من تحكي؟ أنا أستاذك والمسؤول عنك في المدرسة، أنا باستطاعتي أن أخفيك عن وجه الأرض... وقبل أن يكمل الذيب الذي أظهر عدوانيّة وحقدًا، فاجأه أحمد بلهجة غاضبة:
- أنت وزنك عندي أنّك ابن شطمة المجنونة، عين المخابرات على ناسك، فصرت مدعومًا، طز فيك وبداعميك، فرجينا عرض كتافك أحسن ما تتبهدل.

اندفع الذيب نحو أحمد بجسده الضّخم، فتحرّكت ربطة عنقه، والتفّت حول رقبته، أبعدها بعصبيّة، وقال له:

- ولاك، أنا أحضر إجباري عن رأسك وعن الذي خلقك، يا حيوان، افهم قبل أن أبتلي بربّك.
- ورفع ذراعه محاولًا أن يوجّه له صفعة، فابتعد أحمد للخلف، ثمّ ارتدّ نحوه، وصرخ بوجهه صرخة جعلته يتراجع نحو الحائط:
- انقلع من هنا يا واطي، انقلع، انقلع،... كرّر أحمد غاضبًا

حاول الذيب أن يسكت أحمد، ويقمعه بالضرب، فما كان من أحمد إلّا أن حمل حجرًا، واعتزم قذفه به؛ من دون أن يأبه للدودتين السوداوتين المتّشحتين بصفرة الموت اللتين نتأتا من منخريّه، في اللحظة نفسها التي وصل فيها أخوه سليمان وخاله سعيد المتابع الموقف منذ خروجهما؛ إذ صرخ في وجه أحمد، وانقضّ على يده، خلّصه الحجر متدحّلًا مع سليمان لفضّ المشاجرة، ولكنّ

صوته ظلّ مرتفعًا شاتمًا الذيب:

- يا وسخ يا حقير كيف يمكنك أن تتباكى، وتأتي معزّيًا أهل شخص أهنته، ودست على كرامته؟ فردّ الذيب:
- أنا حقير يا جحش، والله لولا كرامة خالك لكنت أخفيتك عن وجه الأرض.
- خرّيها يا قذر، يا وسخ، يلعن الأيام التي خلّتك تأمر وتنهي، ستين طزّ فيك وبأمثالك، ردّ أحمد منفعلًا.

وبصوت عالٍ شرع إخبار أخيه وخاله بإهانة الذيب أباه في المدرسة قبل سنوات قليلة، حاول الذيب توجيه ضربة لأحمد غدرًا، فكان له الخال سعيد بالمرصاد، دفعه وانقضّ عليه، وثبّته على الجدار بقوّة، على الرغم من حجمه الكبير، ثمّ وضع كفّ يده على فمه، وأسكته؛ إلى أن خلّص الذيب جسمه من بين يدي الخال سعيد، وقال مهدّدًا:

- على كلّ، نتحاسب يا أحمد، والله لأجعلنك تتمنى الموت ولا تجده.

وصل الأستاذ منذر لتأديّة العزاء، فسمع صوت أحمد، اتجه نحوه، وطلب منه أن يصمت، ويمتنع عن الشتم، فأذعن لطلب أستاذه، ودخل معه إلى موقف العزاء بجانب أخيه سليمان، أمّا الذيب فقد أقنعه الخال سعيد بالمغادرة، ثمّ رافقه بعيدًا.

(١)

كان أحمد محلّقًا بسماء فتوته، التي اكتسبها ببستان أهله العامر بالخضرة والخصوبة بحيّ أم الإبر الدمشقيّ الواقع في أوطأ بقعة من الوادي المتشكّل حول مجرى نهر بردى منذ فجر التاريخ؛ مما جعل تربته من أخصب تُربات غوطة دمشق الشرقيّة الحاضنة أشجار الجوز والمشمش والحور والفاكهة الباثّة رياحين أزاهيرها وشذا أعشابها، التي تتضوّع باحثة عن أنوف تستوطنها، وكان ينتقي أنضج الثمار المخبّأة بين أوراق أشجار الفاكهة، يأكلها بتلذّذ، ويحمل منها إلى البيت طامعًا في ثناء أمّه ودعائها وحنان أخواته عليه.

أمّا أمتع أوقاته، فكانت في السباحة مع أقرانه في بركة الرمّان، التي تكوّنت على شكل بحيرة صغيرة من جريان فرع المليحاني المتفرع عن نهر بردى الواقع في جهة الشمال من أمّ الإبر، ثمّ نمّى فتوته ببقعة أرض جرداء تفصل بين دمشق وغوطتها الشرقيّة، أطلق عليها صبيانُ الحيّ اسم البيدر.

على أرض البيدر، أحبّ أحمد لعبة كرة القدم مع أقرانه، كانوا يشكّلون فريقين وفق عدد الصبية الموجودين، ويلعبون بكرةٍ اشتروها من مدّخراتهم البسيطة؛ إلى أن خاضوا غمار مباريات مع فرق أحياء مجاورة، وتمكّنوا من الفوز على أقواها في حيّ الميدان بحضور محافظ دمشق، فقدّم أهاليهم لهم طقمًا من القمصان الرياضيّة الموحّدة، حمراء اللون، مطرّزًا على صدرها اسم نادي أمّ الإبر الرياضيّ مع جوارب بيضاء مكلّلة بالأحمر في أعلاها، فتحفّزوا لخوض مباريات أخرى؛ لاقتناص فوز جديد، على الرغم من أحذيتهم الرياضيّة المهترئة التي كانوا ينتعلونها؛ إذ غالبًا، ما كان معظمهم مضطرين إلى خلعها ومتابعة اللعب حفاة؛ نتيجة إعاقتها تقديم مهاراتهم الرشيقة.

قبل إعلان نتائج الصفّ السادس الابتدائيّ نذر أحمد مبلغًا من المال لمقام الشيخ صلاح، سرّت أمّه، واعتدّت بإيمانه أمام نساء الدّار الكبيرة، وفي يوم استلام النتائج أدخلته إلى قاعة المعيشة، فتحت خزانةً داخل الحائط اللبنيّ السميك، واختارت له ثيابًا نظيفة ومناسبة، ارتداها في الوقت نفسه الذي كان أبوه يعدّ نفسه لمغادرة البيت، وحينما وقع نظره على ابنه ربّت على كتفه وقال له:

- ما هذا الجمال والحلاوة يا أحمد؟ لا بدّ أن نزوجك، صرت رجلًا والله يا أحمد.
- ذاهب إلى المدرسة، اليوم إعلان النتائج واستلام الجلاءات، ردّ أحمد بصوته الطفوليّ.

انحنى الأب وقبّل ابنه، ثمّ شبك يده بيده، وقال له:

إذا نجحت، سآخذك معي لنأكل لحمًا مشويًّا وكبابًا في باب البريد بسوق الحميديّة، ونصلّي في الجامع الأمويّ، ونزور مقام النبيّ يحيى، ولكن بعد أن أقضي شغلي في دائرة الطابو، ما رأيك يا بطل؟ فقالت الأم للأب:

- أحمد يفضّل زيارة مقام الشيخ صلاح، ونذر له ثلاث ليرات إذا نجح.

وَعَدَ الأب بمنح ابنه مبلغًا مضاعفًا، مع كيس شمع كان قد نذره للمقام منذ سنوات، ونسيّ تأديته، ولكن بعد التأكّد من نجاحه، ثمّ استأذنت الأمّ من الأب مرافقتهما في هذه المناسبة:

- منذ وقت طويل لم أخرج من البيت، خطر لي أن أذهب معكم، ما رأيك سيّد رأسي؟

ازدادت بّحة صوت الأب خشونةً، وتبدّلت ملامح وجهه، وأجابها مقطّبًا حاجبيه بلهجة استعلائيّة:

- لا ما في داع، جهزي الغداء، من الممكن أن يكون عندي ضيوف اليوم، فأجابته ساخطةً كارهة:

- يقطع الضيوف، أنا أكرههم بقدر ما أنت تحبّهم، ما الذي عاد عليك منهم ومن السياسة معهم غير وجع الرأس؟ انتبه لأولادك وارجع لعقلك، اللّه يقطّع الثورة ومعها عبد الناصر، الذي لم يخرج من رأسك.

التفت الأب نحوها غاضبًا شاتمًا، فانتثر البصاق من حلقه، وظهرت بقايا نواجذِه المنخورة والصفراء، فتوارت الأمّ عن ناظريه هاربة إلى القاعة الكبيرة الموجود فيها بناته؛ لتنظيفها، لحق بها، ووجّه لها بضع لكمات، فسمع أحمد استغاثات أخواته ، ثمّ صوتها المكسور:

- كُسِرتْ يداك.
- حتّى تفهمي ألّا تتدخلي في شؤوني، ردّ الأب مزمجرًا، فلم تأبه الأمّ له؛ إذ رفعت صوتها في وجهه قائلة:
- يلعنك ويلعن شؤونك يا طبل، يا قليل التدبير، لا تقدر إلّا عليّ، ليتك تستطيع أن تستقوي على الذين جعلوك على الهامش، وحطّوك على الرفّ، والذين يعتدون عليك كل يوم؛ حتى صرت بلا كرامة!

تأتأ الأب، ثمّ سكت بالعًا ريقه مسربلًا بمذلّة، ولم يجب، تراجع متعثّرًا بخطاه، وخرج مع ابنه، الذي مشى مشوّشًا بجانبه، متسائلًا عن الذين يعتدون على كرامة أبيه.

في المدرسة كان وجه المدير باشًّا، ثمّ طلب من العامل تقديم ضيافة لفخري بِك، وحينما طلب نتيجة ابنه أحمد أحضرها العامل، تفحّصها المدير، ثم قل:

- مبارك يا أحمد صرت بالصف السابع
- ضحك الأب ضحكة هستيريّة، واحتضن ابنه، ولثمه على جبينه، ثمّ شكر المدير الذي أردف قائلًا: كلمة شكرًا لا تساوي شيئًا فخري أفندي، نريد حلاوة النجاح.

- على عيني ورأسي، أنت والأساتذة كلّهم مدعوّون يوم الجمعة القادم على الغداء عندي في البستان.
- الآن صارت كلمة (شكرًا) بمحلّها فخري أفندي، ردّ المدير، فقهقه الأب من جديد.

أعاد المدير النتيجة للعامل، ثمّ طلب من أحمد الخروج إلى غرفة صفّه لاستلامها من يد أستاذه مع زملائه، ركض أحمد ونظرات أبيه تتابعه.

فرح أحمد حين دخل صفّه؛ إذ وجد الأستاذ منذر يحاور تلامذته عن الخرافات التي تحكم عقولَ أهلِ أمِّ الإبر، كان يحرّضهم على التخلّص منها ومحاربتها داعيًّا إلى ضرورة تمسكّهم بالعلم والمعرفة بعيدًا عن دجل شيوخ الدين وتقديس السلف وزيارة القبور، ثمّ سألهم عن قراءاتهم، فأجابه أحمد أنّه قرأ الأيام لطه حسين، فمدحه الأستاذ، وطلب منه إعارتها لزملائه، ثمّ وزّع النتائج والجوائز، وسلّم لكلّ خمسة تلاميذ كتابًا، ونظّم لهم برنامجًا لتداولها في أثناء العطلة الصيفية.

انتهى توزيع النتائج، سلّم أحمد نتيجته لأبيه فرحًا، فقبّله من جديد، وضحك مقهقهًا، ثمّ ودّع المدير مؤكّدًا له موعد الوليمة في البستان، انتظرا على قارعة الطريق العام، وقبل وصول سيارة، طلب أحمد من أبيه:

- أبي، ائذن لي أن أرجع اليوم إلى البيت، وغدًا تأخذني معك، وتكون أمي معنا، رمقه الأب، ثمّ أرخى شفتيه متعجّبًا، وأجابه ممازحًا:
- يسلم لي الذي صار يغار على أمّه ويدافع عنها؛ مثلما تريد، خلِّ مشوارنا غدًا، لكن من دون أمك، ثمّ أعطاه مبلغًا من المال، ليضعه في صندوق مقام الشيخ صلاح، وكي يشتري كيسًا من الشموع، ويسلّمه للخادم، وأوصاه ألّا يتأخّر عن البيت.

***

أخذ الحاجب من أحمد كيس الشموع، وسمح له بالدخول حافي القدمين، لم يكن حول الضريح زوّارٌ، نظر أحمد نحو المقام، وأخرج من جيبه الليرات؛ ليضعها في صندوق المقام قبل أن يقبّله، في تلك اللحظة دار في رأسه ما قرأه عن ازدراء الفتى زيارة القبور في كتاب الأيّام لطه حسين وعن كذب شيخ الكتّاب ودجله، فخبّأ ليرةً منها، واقترب من الصندوق، وهمّ بوضع البقيّة، ثمّ تراجع وأخفى الثانية، وقرّر أن يحتفظ بمبلغ لشراء هدية لأمّه، وأخيرًا حسم أمره، بألّا يضع أية ليرة؛ حينما استعاد بذاكرته كلام أستاذه منذر حول ضرورة التخلّص من التفكير الخُرافيّ، تلفّت حوله ليتأكّد من عدم وجود أحد يراقبه، ثمّ دسّ كلّ ما معه في جيبه، تأمّل في المقام الحجريّ المغطّى بأغطية خضراء وحمراء وصفراء مطرّزةٍ بخيطان مذهّبةٍ ومكتوبٍ بها آيات قرآنيّة، ثمّ شَخصَ نحو بقايا شمعتين تحترقان في حوضٍ مملوءٍ بالرماد، وخاطب الضريح في سرّه، إن كان قادرًا على إطفائهما، ثمّ تحدّاه بانتزاع الليرات من جيبه، أو أن يحرّك الأغطية، ولكن لم يتغيّر شيءٌ، انتظر برهةً خائفًا، بقيّ الحال على ما هو عليه، من دون أن يتعرّض لأذى، فشعر بنشوة انتصاره على حكاية الشيخ صلاح، جرّب، وضرب المقام بمحفظته، وانتظر ردّة فعله، فلم يلحظ شيئًا، ولم يتلقَّ أيّ أذى منه، التفت مرارًا ليضمن عدم انكشاف سلوكه للحاجب أو لغيره، ثمّ امتطى ضريح الشيخ هامسًا:

- دافع عن نفسك يا شيخ، أنا راكبك مثل الحمار، ومردّدًا:
- حا حا حا...

تأكّد من عدم وجود ردّات فعل من الشيخ صلاح على سلوكه، ترجّل عنه بسرعة؛ خوفًا من أن يراه أحدٌ، ثمّ تحسّس الليرات في جيبه، وغادر مواربًا من دون أن يلتفت نحو حاجب مقام الضريح.

فكّر، في أثناء عودته، أن يشتري لأمّه هدية، سأل عن ثمنها، ووجدها أغلى مما في حوزته، فاكتفى بشراء قطع حلوى يحبّها، حملها متباهيًّا، وأسرع

خطاه نحو الدار، لحظة ولوجه بابها، أنبأ أمّه بنجاحه بصوت عالٍ رافعًا نتيجته بيده معرّفًا أهل البستان نجاحه إغاظةً لأولادهم وبناتهم وأمهاتهم، فتحت الأمّ نتيجته، وحدّقت بها، تأمّلتها، مع أنّها لا تعرف القراءة والكتابة، ثمّ زغردت، ووجّهت يديها نحو السماء، ودَعَت لابنها بتيسير أموره، قدّم لها الحلوى، فاحتضنته وشكرته، ودخلت معه إلى غرفة المعيشة، أغلقت بابها، لتضمن عدم مشاركة أحدٍ من أهل البستان التهام الحلوى مع أسرتها، ثمّ فتحت العلبة، ووزّعت قطع الحلوى على بناتها، وخصّت أحمد بالقطعة الأكبر، وتركت اثنتين لأخويه سليمان وإبراهيم؛ اللذين يعودان عادة مساء كلّ يوم بعد عمل شاقٍ يقضيانه في بستانهم، ثمّ مسحت هيّ قاع العلبة المملوءة بقطر السكّر، وأذاقت رضيعها عمر لعقة منها، التهم أحمد القسم الأكبر من قطعته، وأخذ بقيتَها إلى جدّته نعيمة، التي قبّلته، ومنحته ليرة مكافأة له بمناسبة نجاحه.

أدخل الأبُ ضيوفَه إلى القاعة الكبيرة، وتوجّه إلى زوجته؛ لمصالحتها، سألها عن الطعام، فزعقت في وجهه كارهةً، وامتنعت عن إجابته، فحذّرها من رفع صوتها، ونبّهها إلى أنّ ضيوفه في القاعة، تركته ودخلت إلى غرفة النوم، لحق بها، وأغلق الباب من الداخل، وبعد دقائق خرج ضاحكًا، يحرّك كفّ يده على كرشه ومبرزًا أسنانه الصفراء المشوبة بسواد التسوّس، ثمّ خرجت الأمّ مبتسمةً راضيّةً، وتوجّهت إلى المطبخ لتحضير غداء الضيوف، استغرب أحمد خروج أمّه من الغرفة مرتاحةً على الرغم من همجيّة أبيه معها، ولم يعرف سرّ هذه العلاقة، إلّا حينما سمع أستاذه منذر، بعد مدّة، في أثناء إجابته أحد الصبية الذين كانوا يزورون أستاذهم في بيته، عن علاقة الرجل بامرأته، إذ قال لهم: إنّ العلاقة الجنسيّة هي التي توطّد علاقة المرأة والرجل، ولولا رضا المرأة عن طاقة الرجل الجنسية المستمدّة من حبّه لها استجابة لرغبتها الأنثوية، لما كانت تطيق أي سلوك جارحٍ مشاعرها.

بعد أن تناول الضيوف الغداء، سمع أحمد أصواتهم المرتفعة، وهم يتحاورون في السياسة؛ ظنّهم يتشاجرون، فاقترب من عتبة القاعة، وشاهد تطاول أجسادهم، وهم يلوّحون بأياديهم للتعبير عن أفكارهم، كانوا يخبطون الطاولة بقبضاتهم، وكانت شواربهم تتراقص متلقيّة رذاذ بصاقهم الذي يتناثر أمام وجوههم، هدأوا فجأة لحظة وصول صينية الكنافة وصحون الأرز بحليب، التهموها، وغادروا بعد أن أثنوا على اليدين اللتين طبخت الأرز بحليب وشوت الكنافة.

***

صباح يوم الجمعة التالي، بدأت الأم بإعداد غداء المدير والأساتذة، فحضّرت أقراص الكبّة المقليّة وصينية الكواج وبجانبها الأرز، وصل الضيوف، وبدأت بقلي الباذنجان والكوسا والطماطم التي قُطِفت من الحقل طازجةً، ثمّ قدّمت مأدبة شهيّة، فالتهم الأساتذة الطعام من دون أن ينبسوا ببنت شفة، لفّ الصمت أرجاء القاعة، في أثناء تناولهم الطعام، سوى من عبارات الترحيب المكرورة التي كان يحلو للأب التفوّه بها، ثمّ قسّم بطيخة كبيرة، وقدّمها مع صينية مملوءة بالعنب الدومانيّ والديرانيّ بعد الغداء، وبعد أن شربوا الشاي همّوا بالمغادرة فاستوقفهم الأب، وحمّلهم الجوز والمشمش والباذنجان المُنتَج من بستانه، ثمّ غادروا شاكرين.

استأذن أحمد أباه بالدخول إلى حظيرة الخيل، التي اعتاد إطعامها منذ صغره، وكان قد عرف من جدّته نعيمة، أنّ للخيل لغتها الموروثة عن أجيال أسلافها السابقين قبل آلاف السنين؛ لغةٌ لا يدركها إلّا أصحابها، وحين وصوله، حادث فرسه الشقراء ناظرًا إلى عينيها مباشرة ضامرًا أن يمتطيها، ففهمت الفرس مبتغاه منها، وشرعت بالصهيل؛ احتفالًا بقدومه بداءة، ثمّ أخفضت رأسَها، فمسح على رقبتها، وهمس بأذنها، وضغط على رَبَلاتها طالبًا منها الاسترخاء استعدادًا لركوبها، ثمّ حرّر رسنها، فاصطفّت ناحية مصطبة في الإصطبل، فامتطاها، وسابق معها الريح.

كان فصل الخريف من أمتع فصول السنة عند أحمد، إذ إنّه يعرّي أشجار الحقول من أرديتها، ويضفي على أغصانها لونًا أحمر منبثقًا من بيت بناه على تخوم الشفق، يسكنه كلما كان يصطحب فرسه، وهي تعدو به على دروب ترابيّة بالقرب من شرايين مائيّة متفرّعة عن نهر بردى، التي تروي أراضي أمّ الإبر وقرى الغوطة المتاخمة لها، ثمّ ترجع به إلى بستان أهله، ذلك القلب الكبير الذي يضخّ دماء الحياة في عروق أصحابه وقلوبهم الطيّبة.

جاء موعد تسجيل أحمد في الصف السابع، أخذه أبوه إلى المصوّر، وبعد أيّام أحضر الصور، تفرّج عليها أخواته وإخوته، وأثنوا على وسامته، ثمّ قبّلتها أمّه، وتشمّمت رائحتها، إلى أن رافق أباه إلى المدرسة؛ ليسجّل في الصفّ السابع، استقبله المدير، وهناك استدعى موجّه المدرسة، وسلّمه أوراق ابنه أحمد، وقال له: سجّله في الشعبة الأولى، وأردف:

- لا نسجّل في الشعبة الأولى إلّا أبناء الذوات والأصدقاء فخري بِك، فردّ الأب:
- اللّه يقدرنا على مكافأتكم.

obeikandl.com

(٢)

منذ أواخر أربعينيات القرن العشرين انتشر خبر المجنونة، كانت تعتدي على الفلاحين في بساتين حيّ أمّ الإبر ليلًا، تلتحف لحافًا سميكًا على ظهرها، ولا تظهر إلّا ليلًا، وتختفي داخل مغارة نهارًا، عاش فيها آخرُ ثعالب الغوطة الشرقيّة قرب دمشق، كانوا يحمونها مقابل جلبها لهم دجاجًا تسرقه من حظائر طيور الفلّاحين الدّاجنة، فألفوها وتآلفت معه، استمدّت المجنونة طاقتها من قامتها الضخمة وبنيتها المتينة، التي مكّنتها من إيذاء معظم الفلاحين عند استفرادها بهم ليلًا في أثناء سقايتهم أرضهم، فامتنعوا عن الخروج؛ حتّى خسروا حصص أراضيهم من ماء فرعيّ العقرباني والمليحي المتفرّعين عن نهر بردى، وتوقّفوا عن سقاية أراضيهم وإروائها ليلًا.

قيل: إنّها فلسطينيةٌ هجّرها الإسرائيليون فأقامت بمخيّم للاجئين، وفقدت عقلها فيه، وقيل: إنّها فارّةٌ من مستشفى المجانين، وقيل: إنّها يهوديّة قدمت من خلف جبل الشيخ بعد احتلال فلسطين، وقيل: إنّها جنيّة وليست بشرًا، وقيل: إنّها تربّت بين ذئاب بادية الشام، وقيل: إنّ البحر لفظها فقدمت من أرياف اللاذقيّة؛ والحقيقة الوحيدة التي تيقّن منها أهل أمّ الإبر هو تآلفها مع وحوش المغارة التي كانت الديدان السوداء الموشّحة بالأصفر تتكاثر من حولها، وكانت تظلّل تلك المغارة غيمة من طيور الليل التي تتحرّك على إيقاع نعيق الغربان وطيور البوم المعشّشة بقمم شجر الجوز والمشمش وبين أوراقها كلّما خرجت، لكن لم يتيقن أحدٌ من المكان الذي جاءت منه، ظلّت لغزًا حيّر فلاحي أم الإبر وكابوسًا مطبقًا على ليلهم ووجودهم.

***

استغلّ الشيخ وصفي هجران الفلاحين أراضيهم ليلًا، وصار يخرج وحيدًا في الليل مستحوذًا على كلّ مياه النهر، فيروي أرضه ويطوّفها، ثمّ يروي أرض أقاربه، ويترك المياه تنساب في مجاريها سائحة من دون أن تسقيّ الأراضي العطشى التي بدأت أشجارها تتماوت بعد ظهور المجنونة، حتّى تحوّلت حقول الأشجار إلى عشوائيات عمرانيّة وسط بيئات ملوّثة.

في إحدى الليالي سمع الشيخ وصفي همهمة غريبة، التفت؛ فوجد المجنونة متّجهة صوبه بهامتها الضخمة، وهيّ تهمهم مصدرة هينمةً؛ لإخافته، لم يحاول الفرار، كما كان يفعل بقيّة الفلاحين، بل ثبّت الكُريك بيديه القويتين جيدًا، واستعدّ للعراك معها، إذ كان يمتلك جسدًا بحجم هامتها، ويزيد عنها تسلّحه بكريك متين، اقتربت منه أكثر، وزادت همهمتها:

- امممم، امممم، امممم، فردّ عليها بهينمةٍ مماثلة:
- امممم، امممم، امممممم

وبدأت مواجهة بينهما بصوتيهما المخيفين، ثم شرعت المجنونة تدور حول الشيخ وصفي، الذي صار يتابعها متيقّظًا لهجومها الوشيك، إلى أن انقضّت عليه بشراسة، فتمكّن من الابتعاد عن انقضاضها لتهوي أمامه، رفع كُريكَه وهوى به على ظهرها بأقصى ما عنده من قوة، وقفت وارتدّت عليه، فثنّى ضربته على جنبها، فارتمت على الأرض تعوي كالذئب الجريح، ثمّ استقامت، فضربها ثالثةً، التحفت لحافها على ظهرها، وولّت هاربةً من أمامه ودخلت في ظلماء ليلها المجهول.

امتنعت المجنونة، بعد ذلك، عن المجيء إلى بستان الشيخ وصفي، وخففّت من الاعتداء على الفلاحين الآخرين، إلى أن غابت عن بساتين أم الإبر فجأة، قال فريق منهم: إنّها رحلت، وآخر أكّد أنّها ما زالت في مغارة الثعالب، وأكثرهم اقتنعوا بأنّها من الجان، فزاد تقرّبهم من الله؛ ليقيهم شرورها، ولكن لم يقلْ أحدٌ: إنّها ماتت؛ فقد كانت تعيش في عقولهم وفي عواطفهم،

كانت تتحكّم بسلوكهم، وتحدّد لهم معايير قيمهم وثقافتهم، وكانت عنوان خوفهم وأوهامهم وسرّ ضعفهم.

عاد الفلاحون يسقون أراضيهم ليلًا بحذر، لكنّهم عانوا من ازدياد هجوم الثعالب على حظائرهم، ولم يستطيعوا التخفيف من هجماتها؛ إذ كانوا يخطفون الدجاج ليلًا، ويختفون داخل مغارتهم، التي لا يعرف أحد منتهى لها ولا قَرَارة.

***

عادت شطمة المجنونة للظهور ليلًا، وشوهدت وعلى ظهرها طفلٌ، خفّفت من تهجّمها على الفلاحين ومن إيذائهم، لا سيّما الذين كانوا كرماء معها بوضعهم الطعام والأغذية والألبسة الباليّة لها ولطفلها في أماكن تصل إليها من دون عناء.

لم يعرف أحدٌ شيئًا عن حملها وولادتها؛ إذ منهم من ادّعى أنها حملت من جنّي تعيش في كنفه، وآخرون قالوا: من زعيم الثعالب في المغارة، كثيرة كانت الإشاعات، إلى أن طالت الشيخ وصفي؛ إذ قيل: هو أب ذاك الوليد؛ لأنّه الوحيدُ الذي جارى وجودها في غياهب ظلمة الليل تحت أسراب طيور الليل ونعيق البوم والغربان، وداخل أنفاق مغارة الثعالب مبعثة الديدان السوداء، وهو الذي أطلق عليها اسم شطمة، وكانت تهابه أكثر مما يهابها.

لكنّ الشيخ وصفي أنكر اقترانه منها بشدّة؛ حينما سألته زوجته، الجدّة نعيمة، مؤنّبةً له، أمام الحاج الدغري الذي اعتاد زيارة الدّار الكبيرة، كلما قَدِم من متاجره في دمشق إلى أراضيه في أمّ الإبر؛ إذ كان يسلّم شريكه الشيخ فخري، في تجارة الخيط، نصيبه من الأرباح، أنكر وصار يَشتِم ويهدّد كلَّ من يتّهمه بأبوته ابن شطمة، وبقيّ الأمر ضمن حيّز التكهنات من دون أن يتيّقن أحدٌ ممن حملت المجنونة.

كبر طفلها، وهو محمولٌ على كاهلها، لا يعاشر أحدًا من البشر، وحينما صار له من العمر نحو الثلاث سنوات، وجدوه على باب مقبرة أم الإبر وحيدًا، كاد الصقيع أن يميته، حملوه وأخذوه إلى الجامع، دفّأوه، وأطعموه، وأطلقوا عليه اسم الذيب، الذيب ابن شطمة، ثمّ سجّلوه في سجلات النفوس، وتوسّلت الحكومة إلى الحاج الدغري تبنيه أو رعايته، وغابت المجنونة عن الوجود من دون معرفة وجهتها أو مصيرها.

والحاج الدغري من أعيان دمشق، ومن أهمّ تجارها، مالك عقارات كثيرة في أم الإبر وغوطة دمشق، وغالبًا ما كان يقيم في قصر داخل أحد بساتينه صيفًا مع أسرته، وشتاء في داره العربية الواسعة في الشاغور الجوّاني.

استلم الحاج الدغري الذيب طفلًا، وأودعه لدى ناطور قصره، بعد أن أعطاه مبلغًا مناسبًا من المال؛ لينفقه عليه، ثمّ أوصى أبناءه بمسايرته والاهتمام به، وكثيرًا ما كان يطلب من ابنه مضر، أن يعلّمه القراءة والكتابة، إلى أن أُهّل للالتحاق بالمدرسة الابتدائية، فصار الناطور يقوم بتوصيله يوميًّا؛ حتّى صار بإمكانه الذهاب إليها والعودة منها بمفرده.

كان يحلو للذيب أن يطعم الأبقار والأغنام في بستان الحاج الدغري بيديه، ثمّ علّمه الناطور بعض أعمال الحقل ليعينه، ولكنّه بقيّ يفضّل العمل بحظائر الحيوانات؛ لأنّه يحصل على الحليب من ثدي البقرة أو الغنمة بنهم، كما كان يبحث عن بيض الدجاجات ويشربها نيئة، أحبّ كلَّ الحيوانات التي يفيدُ من حليبها أو لحمها أو بيضها، وعاشرها، أما القطط والكلاب فلم يكن يطيقها؛ كان يطردها ويضربها بقسوة، وفي إحدى المرات عاقبه الحاج الدغري، وأوعز لابنه مضر بضربه بعصا غليظة، حينما وجدوه يشنق قطّة على غصن شجرة داخل البستان، مدّعيًّا أنّها سرقت طعامه، ومنعته من العشاء.

لم يكن الذيب مهتمًّا بدراسته، وعلى الرغم من تعثّره فيها وتكرار رسوبه، الذي كان يتحوّل إلى نجاح بعد تدخل الحاج الدغري المصرّ على حمايّة

مستقبله بشهادة علميّة، فقد استطاع الذيب أن يصل إلى المرحلة الثانوية بصعوبة بالغة، بعد أن حصل على الشهادة الإعداديّة بأقل درجات النجاح، كان ذلك أواخر ستينيات القرن العشرين.

***

تقرّرت مظاهرة تنديد بانقلاب ١٩٧٠م العسكريّ بسوريا في إدارة مدرسة أم الإبر، وكلّف المدير الذيب بالهتاف، وسلّمه أوراقًا تتضمّن الهتافاتُ التي يجبُ عليه قولها، أجلسه في غرفة الإدارة، ودرّبه على أدائها، ثمّ خرج التلاميذ فرحين بحريتهم التي نالوها، نجح الذيب في قيادتهم، فبنيان جسده القويّ وصوته الجهوريّ قد ساعداه على تحلّقهم حوله، كان يصرخ بأقوى ما عنده من صوت:

- «لا دراسة ولا تدريس إلّا بعودة الرئيس» انتصارًا لرئيس الجمهورية المغيّب، ثمّ:
- يا حافظ ويا قيقا، يا صرماية عتيقة...
- كان يتوقّف أمام زملائه، ويطلب منهم رفعه فوق الأكتاف صارخًا بينهم:
- يسقط يسقط حكم المجرم، يسقط يسقط حافظ الأسد،...

وكان التلاميذ يردّدون وراءه متحمّسين، وهم يسيرون خلف المدير والأساتذة والمختار وبعض الشيوخ، الذين كانوا يتقدّمون المظاهرة؛ إلى أن وصلت وسط البلدة، فوجئوا بظهور سيّارة عسكريّة، ترجّل منها عسكريّان مدجّجان بالسلاح، اقترب أحدهما من المدير، وسلّمه أوراقًا كُتب عليها هتافات لصالح الانقلاب العسكريّ، امتنع المدير عن استلامها، وتبعه بقية الأساتذة، ثمّ شرع بعضهم بالانسحاب، وآخرون بقوا منتظرين مع الشيوخ والمختار نتيجة المشاحنة التي حصلت بين العسكريّين والمدير.

فجأة، اقترب الذيب من أحد المسلّحين، وأخذه على غِرّة، وانتزع منه الأوراق، وقبل أن يوجّه العسكريّ له لكمة، طمأنه أنّه سيهتف بما يطلبه منه، قرّب الورقة من عينيه، وتمعّن فيها، ثمّ تهامس مع العسكريّ، وتوجّها نحو جمهرة الطلّاب من دون مشورة مديره أو أساتذته، دعا الطلاب للتحلّق حوله من جديد، وهتف بصوت جهوريّ:

- جيش وشعب، شعب وجيش
- مكتوب على سيوفنا، حافظ أسد محبوبنا
- بالروح بالدم نفديك يا حافظ ...

ردّد الطلاب الهتافات خلف الذيب بالحماس السابق نفسه، وقادهم راجعًا من حيث أتوا بمظاهرة مؤيّدة الانقلاب بهتافات تناقض، ما كان يهتف به قبل دقائق، وصلوا إلى المدرسة، وكان يتقدّمهم المدير وبعض الأساتذة والمختار والشيوخ أيضًا، وطلب منهم المدير الدخول إلى المدرسة، فامتنعوا عن متابعة الدوام، ثمّ انتشروا في الشوارع على هواهم، حتى وصلوا إلى البيدر، وكان يومًا عَرَمْرَمًا بتحدي بعضهم بعضًا في لعبة كرة القدم.

لم يكن أحد يتوقع أن يتجاوز الذيب الثانوية العامة في مطلع سبعينيات القرن الماضي؛ لعدم أهليته وتأخّره كثيرًا عن متابعة دروسه، إلّا أنّ صلته المريبة مع المخابرات التي قامت بعد تلك المظاهرة، ثمّ مساعدتهم له أيام الامتحان بوقاحة لا مثيل لها، جعلته ينجح بالحدّ الأدنى لدرجات النجاح في الثانوية، الفرع الأدبيّ.

بعد إعلان النتيجة لم يمهله جهاز الأمن كثيرًا، أخضعوه لدورات أمنية مختصّة بهم، ثمّ عيّن مدربًا لمادة التربيّة العسكريّة في مدرسة أمّ الإبر، ولم يكتفوا بذلك، بل أدخلوه إلى كلية الفنون الجميلة عنوة عن لجان القبول وعمادة الكليّة، من دون أن يعرف أيَّ شيءٍ عن الفنون والرسم.

(٣)

بدأت السنة الدراسيّة الجديدة، وغادر أحمد فصل الخريف نحو المدرسة، فارتدى لباسًا عسكريًّا موحّدًا مفروضًا على كلّ الطلاب، والتزم بدوامه في الشعبة الأولى، صُدِم بمظاهر قهر أقسى ممّا كان يتعرّض له من أساتذته في المرحلة الابتدائيّة؛ مدرّسون يتبارون بأساليب عقوبة الطلّاب، ويتسلّح كلٌّ منهم بعصا لها شكلٌ خاصٌّ منسجم مع شكل المدرّس، يزعقون على الطلاب وكأنّهم أعداءٌ لهم، أمّا الأكثر بشاعةً بنظر أحمد، فكان تنظيم الشبيبة الذي لم يكن يفوز بقيادته إلّا الطلبة المخبرون المرتبطون بمدرّب التربيّة العسكريّة، الذيب، إلى أن بدأت تظهر لديه ميولٌ للانزواء بعيدًا عن أنشطة الصبيّة.

تحرّش أحد طلاب الشبيبة القياديين بأحمد مرارًا؛ حتى استثاره، وهاجمه بالضرب، فردّ أحمد؛ حتّى تدفق الدم من ركبة ذلك الطالب، فتدّخل مدرّب العسكريّة، الذيب، وعاقب أحمد بالضرب بعصا غليظة على يديّه ثمّ على رجليه، فصار أحمد يبكي بشدّة؛ لم يعرف، حينذاك، كيف يوقف فيض دموعه الغزيرة من مقلتيه، كان يتساءل بينه وبين نفسه، أهي ناتجة عن آلام الضرب؟ أم خوفه على الطالب الذي ساح الدم على الأرض؟ أم سخطه على نفسه؛ لأنّه لم يتمكّن من السيطرة على غضبه؟ ثمّ صار يتذكّر أنين أمّه أمام أبيه أو تحته، فيزداد بكاؤه؛ حتّى تبلّل قميصه بالدموع المنهمرة على وجنتيه.

رجع إلى البيت، ولم يستطع الكتمان، حكى لأبيه ما جرى معه، فضحك أبوه؛ حالما أبلغه أنّه أدمى زميله، وشجّعه قائلًا:

- هكذا أريدك بطلًا، تعرف كيف تأخذ حقّك بيديك، لا يهمّك أبو حميد، والله لألعن أهل مدرّب التربيّة العسكريّة والشبيبة والحزب والقائد، غدًا حسابهم عليّ أولاد الكلاب.

***

في اليوم التالي، دخل الأب إلى غرفة الإدارة وبجانبه أحمد، رفع صوته أمام المدير مطالبًا بإنزال أشدّ العقوبات بمدرّب العسكريّة، حاول المدير أن يخفّف من غلواء الأب وغضبه، ولكنّه فشل؛ إذ كان يزداد غضبًا رافعًا صوته مهدّدًا:

- إذا لم يكن لكم طاقة عليه، نحن نربّيه، نحن أولاد أم الإبر، لا نسمح لأحد أن يتطاول على كرامة أبنائنا.

كاد المدير أن يصل إلى جانب الأب، حينما انخلع الباب، وارتمت إحدى ضلفتيه أرضًا، اقتحم مدرّب الفتوّة الإدارة، صارخًا بأعلى صوته:

- لك ما عاش الذي يعتدي عليّ، ولك أنا الذيب، والله لأعدم حياتك أنت وابنك، أنت قدّي ولا فخري؟...

اندفع خلفه بضعة مدرّسين وعامل المدرسة، تمسّك بعضهم به؛ لمنعه من ضرب الأب، وآخرون مع المدير وقفوا أمام هجومه حاجزًا يحول بينه وبين الأب الذي انطوى على نفسه متقوقعًا على كرسيه، ومبديًّا هلعًا؛ أمّا أحمد فانزوى جانبًا، وهو ينظر ببلاهة إلى الموقف، حتّى وقع بصره على وجه مدرّب الفتوّة، ولاحظ تدلّي دودة من أحد منخريه، كانت تخرج بصعوبة، أمّا منخره الآخر، فكان ينتفخ باتجاه خدّه الأيسر، حتّى تضخّم جفنه، ثمّ جحظت عينه اليسرى، وارتسم على جبينه خطٌّ عاموديٌّ مخترقٌ حاجبه وبؤبؤ عينه الذي خرج من محجره، وراح يتأرجح بالتناوب مع الدودة المتدليّة حول انتفاخ خدّه، ولكن سرعان ما رجع إلى حالته الطبيعيّة، حالما خرجت الدودة الأخرى من منخره، وتدلّت الدودتان من منخريه بلونهما الأسود المتداخل معه ألوان الموت الصفراء، كانتا تتطاولان نحو أبيه، وقبل أن تنقطعا، كانت تعودان إلى منخري الذيب، رأى أحمد عيونهما، وهما تتوجّهان نحو أبيه، وتمتدّان قريبًا من عينيه؛ فصرخ صوتًا مجلجلًا من شدّة خوفه، انكفأت الدودتان نحو منخري الذيب، فتشجّع أحمد، واقترب من أبيه، تمسّك بيديه كلتيهما برقبته ليحول

بينه وبين الدودتين، تغيّر صراخ الذيب، حتّى سمعه أحمد مزيجًا من جعير ثور وعواء ذئب جائع، ثمّ تمكّنوا من إخراجه عنوّة من الإدارة، وهو يدافع أكثر من عشرة أشخاص محيطين به، يمنعونه من الوصول إلى الأب، بقيّ دقائق أمام الإدارة والمدرّسين من حوله يحاولون تهدئته، ثمّ جلب عامل النظافة له ماءً، ودلقه على يديه ورأسه؛ لتخفيف درجة غلوائه، إلى أن تماثل للصمت، فتشجّع الأب بالتحرّك نحوه، وعن بعد مترين خاطبه بصوت مرتجفٍ:

- أنا أعتذر منك يا أستاذ، غلطنا وأطلب منك السماح.

ارتدّ الذيب نحوه من جديد، يريد ضربه، ولكنّ الرجال المتحلّقين حوله منعوه، فهدّده بتغييبه عن الوجود، وبحرمانه من ابنه أحمد، وحينما قال له الأب:

- حقّك يا أستاذ، حقّك تعمل الذي تريده، أجابه الذيب:
- كول خرى يا حيوان، لا أريد أن أسمع صوتك، والله إذا تلفّظت بكلمة واحدة لكسّرت أسنانك قدّام الجميع، تلحس طيزي من بين الرجال، ثمّ أردف:
- أين الخرى الصغير؟ يعرف يرفع صوته ابن الخراء، والله لأعدم حياته يا نعجة.

تأتأ الأب محاولًا الردّ، فتح فمه، ولكنّ صوته خذله، فاقترب منه المدير، ووضع يده على فمه مشيرًا له بالسكوت، ثمّ شرع مع المدرسين برجاء مدرب الفتوة، أن يهدأ، لكنّه استمرّ بكيل الشتائم للأب وللابن ولهذه المدارس وللأهالي، الذين لا يستحقون إلّا الضرب والدوس على رؤوسهم بالحذاء العسكريّ، وبعد جَهْد مرير لدرجة تذلّل المدير والمدرسين للذيب، تمكّنوا من إبعاده عن الإدارة، دخل المدير، وهمس بأذن الأب أنّ هذا المدرّب معيّن من قبل المخابرات، ولا يستطيع أحد مواجهته، ثمّ استبقاه، وأوصاه بعدم الخروج من الإدارة؛ حتّى عودته، وخرج، ليسهم في تهدئة هياج مدرّب الفتوة وإبعاده،

رجع المدير، وكرّر اعتذاره من الأب عما حصل، ثمّ ودّعه حتّى باب المدرسة الخارجيّ؛ خوفًا عليه من هيجان الذيب ووصوله إليه.

عاد أحمد إلى البيت برفقة أبيه، ولحظة وصولهما سألت الأمّ أباه عما أصابه، وجعل وجهه أسود كالفحم، فأجابها:

- أتعرفين من مدرب الفتوة الذي اعتدى على أحمد وضربه بالأمس؟
- من؟
- ابن شطمة، ابن شطمة المجنونة التي كانت تسرح في بساتين أم الإبر، وتضرب الفلاحين.
- يا لطيف، هذه أخت الشياطين، كش برّه وابعِد، من الذي عيّنه بمدرستنا؟
- لا أحد يعرف من عيّنه، أيامنا صعبة يا امرأة، الله يلعنها ويلعن سببها.

أطرق الأب رأسه، ثمّ دمعت عيناه، فتوارى خلف باب الغرفة، حينها تذكّر أحمد كلام أمّه لأبيه قبل نحو الشهر، أنّه لا يقدر إلّا عليها، أما الذين يعتدون عليه، ويدوسون كرامته، فيطأطئ لهم.

ظلّ الأب مريضًا قعيد فراشه في الدّار الكبيرة ثلاثة أيام متتاليّة، كان لا يواجه أحدًا، ولازمته أسرته، لا سيّما أحمد، ثمّ اتفق سليمان الابن الأكبر لفخري مع الخال سعيد على الانتقام، ولكنّ الأب، حينما عرف، منعهم بإصرار؛ خوفًا عليهم من أحقاد الذيب ابن شطمة.

بعد قيامه من مرضه، جاءه أبوه، الشيخ وصفي، وسأله عن المشكلة، وما أن سمع ملابساتها حتّى لامه على مواجهة الذيب قائلًا:

- هذا الذيب من جماعتنا، يا فخري، ونافذ بالحكومة، يجب عليك ألّا تختلف معه.. فكّر كيف تصالحه.. يا مسكين... يا ابني والله، أنت، لا

تعرف صديقك من عدوّك، كلّ أهل أم الإبر يضمرون لنا الشرّ، وقد قدّر الله أن يكون الذيب بيننا ومعنا، الله من غامض علمه أرسله لنا، ليعيننا عليهم، ونخلّيهم تحت أرجلنا، أأنت تنكر نعمة ربّك؟ إذا ما حطّيت إيدك بإيد الذيب يا فخري تكون تنكرها يا ابني.

دُهِش فخري بِك من كلام أبيه الشيخ وصفي، ورفض الصلح، ثمّ طلب منه أن يتوقّف عن الحكي بالصلح، وأن يعيد أحمد إلى المدرسة، كان سليمان يسترق السمع لحديثهما، اغتاظ لموقف جدّه، وتوجّه إلى المدرسة، بعد أن أخفى بجيب سترته سكينًا حادّة؛ تحسبًّا لمواجهة الذيب، دخل إلى الإدارة، وطلب من المدير عودة أخيه أحمد إلى المدرسة، فهمس المدير بإذنه عن أحوال مدرسته، التي يسيطر عليها الذيب، وسلّمه أوراق أحمد، وزوّده بكتاب توصية لمدير مدرسة أخرى لتسجيله فيه، شكره سليمان، وخرج مواربًا، وبجانبه المدير الذي أوصله إلى خارج بوابة المدرسة؛ خوفًا عليه من مواجهة الذيب.

***

بعد بضعة أيّام، حضر المختار وشيخ أمّ الإبر إضافة إلى مدير المدرسة وبعض المدرسين إلى الدار الكبيرة، جالسوا الشيخ وصفي، وطلبوا أن يصالح ابنه فخري مع الذيب، وحينما حضر فخري، امتنع عن قبول الصلح، فتدخّل أبوه، وألزمه بالصلح قائلًا له:

- يا ابني، لمّا يحضر الصلح بين الأوادم، ويمتنع عنه أحدهم يكون من البهائم، لا بدّ أن تقبل مصالحة الذيب، هذا ما له أحد غيرنا، ودائمًا يصطفّ إلى جانب الحقّ الذي نحن أهله بأم الإبر، اعتبره واحدًا من أولادك، يا أخي، واحد من عائلتنا، برضاي عليك يا فخري، أريدك أن تصالحه بمعيّة أكابر أم الإبر الحاضرين.
- لكنّه أهانني يا أبي، قالها فخري بصوت مكسور.

- نحن لا نحاسبه، الله هو الذي يحاسب الجميع، لا بدّ أن تسمع من الأوادم الحاضرين، وتقبل الصلح، قال الشيخ وصفي مؤنّبًا ابنه فخري.

وبعد أن اجتمعت الآراء، ضغطوا على فخري لقبول رأيّ أبيه، لمصالحة الذيب الذي شرع يتبوأ مناصب عاليّة في حزب السلطة، ويتدخّل بسير أعمال دوائر الحكومة في أمّ الإبر.

تمّ الصلح في القاعة الكبيرة، وكان أحمد حاضرًا، لكنّه خرج مقهورًا، وبدأت معدته تؤلمه بشدّة، لاحظ أخوه سليمان انزواءه موجوعًا، فأخذه إلى طبيبٍ وصف له أدوية، وطلب منه الإقلال من تناول البهارات والدسم والمقليّات والإكثار من الحليب البارد.

ثمّ أعادوا أحمد إلى مدرسته، وحاول الذيب استمالته عن طريق اتحاد شبيبة الثورة منذ أيّام دوامه الأولى، ولكنّه لم يستطع تحمّل وجوده إلى جانبه، فصار يحيد عن دربه، ثمّ ازداد عزلة، ولم يعد يعُاشر الطلاب، وقلّت إلفته للمدرسة وإدارتها والشبيبة والطلّاب والمدرسين، لا سيما بعد متطلباتهم المدرّسية التي لم يستطيعوا فرضها على طلّابهم إلّا بالعصا، وكان أكثر ما يخشاه هو استفراد الذيب به، فكان يهرب منه؛ وحتّى لا يواجهه أصبح يهرب من المدرسة؛ ممّا كان يستدعي من أبيه إعادته جبرًا في كلّ مرّة، مضطرًا لدعوة الإدارة والمدرّسين على ولائم طعام متتالية أو تقديم هدايا للمدير، ورشاوى للذيب ليغضّوا النظر عن تغيّب ابنه ومشاكساته.

(٤)

كان وجه الشيخ وصفي مكفهرًا على الدوام؛ ملامحُ الشرّ باديّةٌ على عينيه الصغيرتين وسط وجهه المستدير، وفوق شفتيه المتهدلتين شارب معقوفٌ نحو الأعلى كمقود درّاجة، يهتزّ رأسيه كلما أبدى استنكارًا لمحدّثه، وكثيرًا ما كان يبدي التعجّب من متابعته مجالسيه بعينيه اللتين يفتحهماعلى أقصاهما، فيصغر بؤبؤيهما، وتتسع مساحة بياضهما، ويخترق شريانٌ أزرق جبينه المتصل بصلعة أتمّها بإزالة شعر رأسه بشفرة مستعينًا بزوجته نعيمة أو إحدى بناته؛ كان يثبّت نظره في وجه محدّثه؛ إرباكًا له مشيرًا إلى عدم استساغته حديثه، وإذا تمادى محدّثه بالكلام، كان يشرع بإصدار صوتٍ من فمه كصوت بومة وحيدة في ليلها المدلهم منادية ذكرها، مع تكرار إمالة شفتيه نحو الأعلى؛ لإسكاته، ترسّخت صورة وجهه تلك في ذاكرة أحمد بعد استنكار جدّه قانون دوران الأرض حول الشمس، حينما كان يستمع لجواب قريب دمشقي للعائلة يحمل شهادة الدكتوراه من فيينا بحضور ذكور أم الإبر:

- يا دكتور كيف يقولون: إنّ الأرض تدور، وأنا قطعت السبعين سنة، وما تغيّر مكان بيتي، يعني ما شفت نفسي قاعد محل بيت جيراني، وما انتقل بيتهم لمحل بيتي، أأنت مصدّق أن الأرض تدور؟
- أجابه الدكتور بهدوء العارف:
- طبعًا تدور!
- فهّمنا كيف تدور إذا سمحت؟ سأله الشيخ وصفي مظهرًا عدم استعداده لقبول الفكرة.
- حينما تسير السيارة بك، تكون أنت ثابت على مقعدك داخلها، أما السيارة فمتحركة، صحيح؟ سأل الدكتورُ الشيخ وصفي.

- سكت الجدّ برهةً، ثمّ أومأ بصحّة ما سمع، فتابع الدكتور:
- هل بإمكانك أن تتخيّل نفسك منتقلًا فجأة لمقعد آخر في السيارة، أو لسيارة أخرى حتى تقتنع أن سيارتك تتحرك؟ وأكمل:
- الأرض تدور حول الشمس، والبشر يقيمون على سطحها، مثل من هو داخل السيارة المتحركة، هو ثابت في داخلها، وهي سائرة متحركة...
- كانت عينا الشيخ وصفي محملقةً في وجه الدكتور، ومتابعةً له، حتّى دخلت الفكرة إلى رأسه، فلم يسعه أن يزدريه بنظرته المعهودة؛ إذ حملق مشدوهًا إلى درجة البلاهة، وصرخ:
- هسس هس هس.. لا تكفي، غيّرت لي عقلي، اتركني على ما أنا عليه، الله يخليك، أريد أن أموت وأنا على ما علّمني إياه أبي.
- حاول الدكتور أن يتابع، ولكن صوت الشيخ وصفي الجهوريّ حال من دون إتمام حديثه:
- لا تكفِّي الله يرضى عليك.. لا تكفِّي، اسكت قبل أن ينفجر رأسي من كلامك.

ثمّ أعقب صوته الجهوريّ قهقهاتٍ لا تخلو من بلاهة صدرت عن أقربائه الحاضرين، فابتسم الدكتور مشفقًا عليهم، وتوقّف عن الحكي.

لم يعرف أحمد في تلك الجلسة كيف لمعت في ذاكرته صورة وجه الذيب يوم هاجم أباه وأهانه في غرفة الإدارة، حينما ثبّت نظره في وجه جدّه، فتناوبت قسمات وجهه مع قسمات وجه الذيب، وأخافه تداخل ملامح الوجهين، ثمّ عنّ على باله البكاء، حالما أطلّت ذات الدودتين، اللتين تدلّتا من منخري الذيب حين كان يجعر في إدارة المدرسة شاتمًا أباه، أطلتا من منخري جدّه وصفي، التفّت الدودتان على وجهه، ثمّ امتدتا إلى رقبته، وبدا الشيخ كأنّه ألف وجودهما طوال عمره المديد، ثمّ تنبّه أحمد لسهوته، وكفّ عن النظر نحو جدّه وصفي، حالما صرخ الأخير بمجالسيه، أن يسمعوا صوت المطرب

موشي إلياهو، الذي صدح عبر راديو ترانستور، كان لا يفارقه، من الإذاعة الإسرائيلية، رفع صوته وقرّبه من أذنه، وصار رأسه يميل طربًا على مقطوعة:

- «زين يابا زين / زين الأسمر زين»، مصدرًا الآهات تلو الآهات، حتّى بدا الحزن عليه، فعبّر عن حالته قائلًا:
- آه يا موسى آه.. آه.. يا إلياهو، الله يرحم أيامك الحلوة، التي كنت تحيي فيها ليالي الأنس بالشام.

خرج أحمد من القاعة، بعدما أطبق الصمت في نواحيها، ولم يبق سوى صوت موشي إلياهو يعلو في فضائها، إلى أن انتهت الأغنيّة، فخفّض الشيخ وصفي صوت الراديو، وأسف على شباب ولّى، ثمّ ردّ عن سؤال أحدهم عمن يكون موسى:

- مطرب من حارة اليهود بالشام، كان يحيي سهرات أنسنا أيام الشباب، الله يذكره بالخير، ويسهّل له أمره.
- وأين هو الآن؟ فأجاب الشيخ وصفي بحياديّة مُستهجَنَة:
- في إسرائيل بعد حرب ال ٤٨ رحل إلى فلسطين، هناك أهله اليهود، وصار أهم مطرب فيها، سمعته أكثر من خمس مرات في إذاعة إسرائيل، رزقه الله ووجّه له الخير بكل لحظة وأينما كان.

***

لمح أحمد شبح الذيب قادمًا، فتوارى عنه، ولجأ إلى القاعة، وأخفى نفسه بين الحاضرين، ولمّا وصل استقبله الحضور بجفاء، إلّا أنّ الشيخ وصفي دعاه للجلوس بجانبه قائلًا له:

- تعال إلى جواري يا قبّاري، الله وأعلم سيكون لك شأن كبير.
- الله يبارك بهمتك، ويديمك للكلّ عمي الشيخ، ردّ الذيب متباهيًّا.
- قالوا لي: إنك ناجح بالعلم، وإنك صرت أهمّ أستاذ في المدرسة،

بعون الله بانتظارك مستقبل عظيم، وجّه الشيخ وصفي كلامه للذيب بصوت عالٍ.

- المهم دعاؤك عمي الشيخ، رضاك عليّ قبل كلّ شيء.
- أنا يا ابني قرب أجلي، البركة اليوم فيكم، أنا صرت فاكهة موليّة، لم يبق لي من العمر إلّا القليل. أفاد الذيب من سكوت الآخرين، وبدأ يرفع صوته مداهنة قائلًا:
- أطال الله عمرك يا شيخنا، ويخلّيك فوق رأسنا، لولاك ما كنّا شيء، أنت مفخرة أم الإبر، ورافع رأس أبنائها، ما التقيت بمسؤول بالحكومة والحزب، إلّا وذكر اسمك بكل فخر واعتزاز، لا يعرفون من كلّ أمّ الإبر أحدًا سواك...

شكر الشيخ وصفي الذيب على إطرائه، ثمّ غيّر الموضوع وصار يحكي لهم عن بطولته عندما مات أبوه، إذ التزم حينئذٍ بالنوم بجانب قبره في مقبرة الحي ثلاث سنوات مسلّحًا ببندقيته وخنجره المعقوف كذيل العقرب الأسود، الذي كان يستعين به على تسلّق جدران المقبرة، منعًا للأعداء من أن يخرأوا على قبره، ثمّ أخرج الخنجر وعرضه على الحاضرين، وقرّبه من الذيب وطلب منه تأمّله، فقال له الذيب:

- والله يا عمّي الشيخ، هذا الخنجر رمز لكرامة أمّ الإبر، لا بدّ أن يحفظ ويُصان، فردّ الشيخ بحماسة مفتعلة:
- وأنت قلت يا الذيب، ابني الوحيد فخري رفض أن يأخذه، فخري مسالم، لا يعرف عدوّه من صديقه، ويكره السلاح، وأولاده مسالمون مثل أخوالهم، الله يلعن الساعة التي زوجناه فيها من عائلة نجسة، هذا الخنجر أمانة بعنقك، سوف أتركه معك لأضمن حماية قبري من الأعداء، تذكّر يا ذيب أنت واحد منّا ومن عائلتنا.
- أنا تربية ذراعك عمّي الشيخ، ووعدي أن هذا الخنجر سيرافقني ما حييت، أدافع به عن اسمك وعن شرف العائلة وكرامتها.

- الله يبارك فيك يا الذيب، إن شاء الله نزوجك عن قريب.

ثمّ كرّر الشيخ وصفي وصيته، التي لم تغب عن تفكيره لحظة واحدة، بأن يدفنوه في الدّار الكبيرة، وأن ينقلوا رفاة أبيه وأهله ويدفنوها في المدفن نفسه؛ حتّى لا يشعر بالغربة في قبره، وليضمن عدم تمكّن أعدائه من أن ينجّسوا قبره بخرائهم.

لم يكن ابنه فخري حاضرًا، كما أن قريبهم الدكتور قد غادر من دون التفاتة، لحظة وصول الذيب استهتارًا به، دُهش الموجودون تسليم الجدّ الخنجر للذيب، ولكنّ أحدًا منهم لم يتجرّأ ويعترض، ولم يسع أحمد إلّا أن يحتار بتفسير ما حدث أمام موقف الحضور المخزيّ، وأمام موقف جدّه مع الذيب الذي أضحى اسمه على كلّ لسان بصفته مخبرًا رخيصًا.

***

مات الشيخ وصفي، ولم يغب عن ذاكرة أحمد كيف تباكى الناس عليه، ثمّ كيف اختلفوا على مكان دفنه؛ حتّى وصل الذيب متباكيًّا أيضًا، وكان، حينذاك، قد صار له شأن كبير في حي أم الإبر، ارتجل كلمة أمام أهل الفقيد، أشاد فيها بمناقب الشيخ وصفي وحرصه على كرامة حيّ أم الإبر وأهله، وحكى عن بطولاته بمواجهة الاحتلال الفرنسيّ، ثمّ توجّه إلى صدر مكان العزاء، ليتقبّل التعازي إلى جانب أهل الفقيد، ووقف متاخمًا لابنه فخري بك وولديه سليمان وإبراهيم، فكّر أحمد أن يرمي الذيب بحجر؛ انتقامًا لأبيه الذي تلقى إهانة منه، ولكنّه تراجع؛ إذ سمع أباه يتشاور معه مطمئنًا له ولبرنامج التأبين الحافل، الذي سيتضمن إلباسه عباءة الجدّ وتعيينه شيخًا للعائلة، إلى أن أعلن الذيب على الملأ أن احتفالًا مهيبًا سيحضره المحافظ ومسؤولون من العاصمة، وأنّ رفاقه يشتغلون على تحضير مستلزماته التي تليق بالفقيد الكبير في مقرّ فرقة حزبهم، وطلب من ابنه فخري تحضير كلمة

آل الفقيد، ثمّ أبلغهم بأمر دفنه بالمكان الذي أوصى به، فقبل الجميع فورًا، واستقرّ الرأي على تحديد قاعةٍ في زاوية الدار الكبيرة مدفنًا للجدّ الشيخ وصفي ورفاة أسلافه الطاهرين، وقرّروا نقل رفاتهم من المقبرة العمومية إلى مدفن الدّار في نفس ساعة دفن جثمان الشيخ فخري.

اسُتُدْعِيَّ حفار القبور وبنّاءان لتعمير المدفن، اشتغلوا بمعونة شباب العائلة طوال الليل؛ حتّى جهّزوا ضريحًا مناسبًا في المدفن يتّسع لجثمان الجدّ وصفي ورفات أسلافهم.

في صباح اليوم التالي، جمعوا رفات السلف، ووضعوها بكفن، وحفظوها بتابوت، ثمّ وضعوه إلى جانب تابوت جثمان الشيخ وصفي، وبعد صلاة الجنازة على أرواحهم ألقيت كلمات المشاركين، ومنها كلمة الحزب التي ضمّنها الذيب طلب الرحمة لروح الفقيد وأرواح أسلافه الطاهرين، وختمها بالدعاء للقائد الملهم بطل التصحيح وتاج الأمة ومحرّرها، وبعد ذلك ألبس ابنه فخري عباءة المشيخة، وقدّمه شيخ عائلة الدار الكبيرة بأمّ الإبر، ثمّ ألقى كلمة آل الفقيد، ورُفِع النعشان فوق أكتاف شباب أم الإبر، وبعد استكمال إجراءات الدفن أكمِل بناء المدفن، ثمّ أغلقوا بابه بقفل حصين، وغادروا لتناول الطعام على أرواح الموتى داعين لهم بالرحمة والغفران.

بعد أسبوع انتهت مراسم العزاء، دعيّ أهل أم الإبر على وضيمة كبيرة، ووزّعوا الصدقات التي حدّدها الشيخ فخري على غير ما أوصى به أبوه المعروف ببخله، وتبع ذلك اجتماع لذكور العائلة بوجود الذيب الذي نظّم لهم حراسة دورية للمدفن، وأدوارًا لنسائها من أجل تنظيفه؛ حتّى صارت أرواح أجدادهم تهيم في عالم وجودهم، وتتحكّم بسلوكهم، وتحدّد لهم مسار حياتهم.

(٥)

شهد أحمد كثيرًا من الأشباح والشياطين في أثناء نشأته بالدار الكبيرة، التي يسكنها أهل البستان شتاءً، بعيدًا عن أراضيهم التي تشغل كلّ أوقاتهم صيفًا؛ كانت تعترض دربه ليلًا في الدهليز الواصل بين بوابتها الخارجيّة وأرض الدار، وكانت تتراقص حوله مصدرة أصواتًا مؤرقة ليله، وكان يُؤثِر البقاء داخل قاعة المعيشة مع والديه وبين إخوته، لا سيّما بعد غياب الشمس؛ خوفًا من تلك الأشباح. فقط حينما كان أبوه يطلب منه النوم مع جدّته نعيمة، كان يفخر بنفسه، ويشعر بأهميته؛ لأنّ جدّته ترغب ببقائه قريبًا منها أكثر من بقيّة صبية الدار الآخرين، كان يعبر بأقصى سرعة من غرفة العائلة إلى قاعة جدّته متجاوزًا الزوايا المعتمة التي اُعتُبِرت موئلًا للشياطين متخطيًّا حالة الخوف منهم.

وكان يرافق أباه في نوبة حراسته مدفن الدّار في مراهقته، وذات مرّة قبع في زاويته، وحالما بدأ أبوه يغفو، كان أحمد يسمع طنين ذبابة يخترق أذنيّه، بحث عنها؛ حتّى حدّد موقعها، فانتفض متابعًا حركتها، لمحها سهمًا خاطفًا يقطع صمتًا لفّ فضاء المدفن، كانت تحمل رأس الذيب متلفعًا بديدان تخرج من جسد جدّه وصفي، انقضّت الذبابة عليه ورمته بين خيوط العناكب التي أحكمت منافذها على حركته، تحرّك ليتخلّص من براثنها، فتصلّبت أكثر، ثمّ أطلقت سهامًا مسمومة، استقرّت في حنايا جسده اللاهث وراء روحه الهائمة بفضاء المدفن.

ظلّ طنين الذبابة يتماوج في أذنيّه مختلطًا بصوت الذيب الذي أهان أباه في إدارة المدرسة وتهجّم عليه وشتمه؛ حتّى رصد محطة توقّفها عن الطيران، انتظر حتّى تصاغر حجمها، وخلّص يده من شباك العنكبوت، ثمّ وجّه لها

ضربةً راجيًّا إماتتها، ليغفو إغفاءة، تريحه من كابوس، يضني جسده أمام هيمنة وجه الذيب وديدانه السوداء المنبثقة من جثامين المدفن، والتي بدأت حجومها تكبر مع تكاثرها المريع، وتسير أسرابًا مرصوفةً، حتّى فاضت على حوافي قبرها، طارت الذبابة قبل وصول كفّ يد أحمد إليها، ثمّ حطّت على صفحة مخطوط قديم عنون باسم الشيخ صلاح اعتاد من يحرس مدفن الدار القراءة فيه، قرّب أحمد كفّ يده بهدوء، وبحركة لا إراديّة وخاطفة أطبق عليها دفتي المخطوط، فالتصق دمها بكلماته، وبزهوّ المنتصر حملها بيده المنفلتة من قبضة شبكة محكمة ورماها للعناكب، فتلقفوها صيدًا سهلًا بسهامهم السامة الممتدة من ثقوب سلّة عتيقة مملوءة بالقاذورات، تركت مع بقايا الأطعمة وفتات الخبز المتناثرة على الأرض؛ نتيجة رميّ مناوبي حرّاس المدفن فضلات أكلهم فيها، أكمل أحمد حلمه الكابوسيّ بتسلّقه أشعة خيوط الشمس المتسرّبة من شقوق حيطان القاعة المتصدّعة، وحلّق قرب قوس قزح من دون أن يقدر على الحطّ على الأرض من جديد، وبكى مع سقوط الشمس في بحور سواد الليل بعد احتجاب ضيائها بسحابةٍ سوداء كان يتلألأ خلفها أنياب كلاب مسعورة، اختلطت دموعه بدموع النجوم التي هطلت بغزارة في الفضاء المتأرجح الذي خلّف عتمًا رهيبًا احتضن روحه، وأيقظ جسده في مكان آخر، انتفض فجأة، استقام، وتحسّس جسده، وتأكّد من عودة روحه إلى مدفن الدار بأمّ الإبر.

في تلك الأثناء كان جسد أحمد آخذًا بالنضوج، وكان لا يتوانى عن ركوب الخيل وممارسة لعبة كرة القدم يوميًّا، على الرغم من محاولات أبيه المتكررة لمنعه من اللعب؛ طمعًا في معاونته على الزراعة بالأرض وتربية الحيوانات والطيور، وحالما دخل مرحلة الشباب، لم يهمله ذكور الدار من حراسة مدفن العائلة، فخاض التجربة وحيدًا.

***

مرّ أحمد على جدّته نعيمة، سألها عن أحوالها واطمأن عن صحتها، كانت تثق به، وتفتخر بنواياه الطيبة اتجاهها، عرفت أنّه قاصدٌ فرسه في البستان، فحمّلته ثلاث رمانات لفانيات وقالت له:

- أطعم خيلك الرمانات لتزداد إلفتها لك، لأنّ حَبّ الرمّان من حبّات الجنّة، حالما تأكلها تتقرّب منك أكثر، الخيل يا ستي معقود الخير بناصيتها.
- شكرًا ستّي، تحتاجين إلى شيء من البستان؟
- أريد سلامة قلبك يا أحمد، دائمًا طلّ عليّ، اللّه معك يا قبّاري.

سمع ابن عمّته حمود حديث الجدّة، فتحايل حتّى رافقه إلى البستان، لم يكن أحمد يحبّ صحبته، إنما كان يشفق عليه؛ لأنّ أباه الذي كان يعمل نجارًا متنقلًا، بل كان غشّاشًا وكاذبًا، أخرجه من المدرسة، وشغّله لدى خياط شيوعيّ ليعينُه على مصاريف عائلته، في حين أنّ حمود كان يحبّ أن يرافق أحمد، ويسترسل بحكيه لكلّ ما يجول بخاطره، لا سيّما ما يخصّ السياسة، إذ كان أحمد يجيد الاستماع له في أثناء ثرثرته بمواضيع سمعها من معلمه الخيّاط أديب قطري.

***

اقترب أحمد من الزريبة، ولم يسمع صهيل فرسه المعتاد، ثمّ فوجئ بأنّها مستلقيّة على الأرض، ولم تتحرّك من مكانها عند وصوله على غير عادتها، اقترب منها أكثر، وحاول إنهاضها مرارًا، ثمّ قدّم لها حبّ الرمان، فأبت أن تتناولها من يديه، قرّب لها الماء، فلم تشرب أيضًا، ولاحظ عجز الفرس عن الحركة، نظر في عينيها راجيًّا أن تخبره ما أصابها، ولكنّه لم يلحظ سوى الحزن فيهما الذي انعكس على عينيه حزنًا أيضًا، أمسك رأسها بكلتا يديه، وحاول أن يبحر في عينيها أكثر، فلم يجد منها سوى الانكسار وبقايا دموع تجري أسفل عينيها، ثمّ أشاحت بنظرها عنه وظلّ مستغربًا الأمر؛ حتّى

جاء أخوه إبراهيم، وأبلغه أنّ الفرس تزحلقت بماء اندلق بالخطأ على أرض الزريبة منذ الصباح، ومن الممكن أن يكون كسرًا قد حدث لإحدى قوائمها، وعرف أيضًا أنّ الطبيب البيطريّ في الطريق لمعالجتها.

وصل البيطريّ، وبعدما عاينها أكّد أن قائمة الفرس اليسرى الخلفيّة قد تعرّضت للكسر، وإمكانية جبرها صعبة جدًا، أمّا أحمد فأصرّ على تجبيرها، فأذعن البيطريّ لطلبه، وطلب أن يرافقه شخص ما؛ لمساعدته على حمل أدواته، فذهب معه حمود.

في مساء ذلك اليوم، تعاون عدّة من رجال أهل البستان بإشراف البيطريّ، مدّدوا الفرس على جنبها بعد أن حرّروا رجلها المكسورة من تحت بطنها، وشرع البيطري بتجبيرها؛ كانت تئنّ وجعًا، وتلتفت بين الفينة والأخرى نحو أحمد مستغيثة به؛ ليخلّصها من آلامها، أمّا هو فكانت آماله تتسع في شفائها، كلّما تقدّم البيطريّ بتجبير قائمتها، وحالما انتهى، اقترب أحمد من رأس الفرس، همس بإذنها، لكنّها بقيت مقعدة، كما كانت قبل تجبيرها، وصامتة.

ارتحل الجميع، وبقيّ أحمد بجانبها مجرّبًا مواساتها ومقدّمًا لها الماء والرمّان والعلف من دون جدوى، توقّفت الفرس عن الأكل والشرب نهائيًّا، وبعد يومين بدأ الهزال يظهر على جسدها أمام ناظريه، كان يحقنها حقنات دوائية وصفها له البيطريّ من دون حصول أيّة استجابة منها، إلى أن اشرأبت الخيل برأسها ونظرت نحوه بعينين دامعتين طالبةً منه الاقتراب، لبّى دعوتها ومسح على رقبتها، وفرك حول عينيها، ثمّ ركع أمام وجهها راجيًا منها الشفاء، فاستجمعت قواها المتبقيّة، وشخصت في عينيه لثوان، وأصدرت صهيلًا متماوتًا، فهم أنّها ترجوه وتستحثّه؛ لتخليصها من عذابها، وترغب في موتٍ رحيم، تذكّر تحذير جدته نعيمة له من عدم استجابته لرغبة فرسه؛ حتّى لا تحلّ عليه لعنتها طوال عمر، نكس رأسه أسًى، وغادر زريبة الخيل وفي حلقه غصّة مرّة.

***

لم يكن الشيخ فخري ممن يحبّذون اقتناء الأسلحة، وكان أحمد يسمعه، وهو يحذّر أخويه سليمان وإبراهيم من حمل السلاح، ولا يعرف أحدًا من أسرته مقتنيًّا بندقيّة أو مسدّسًا، ولكنّه كان على علاقة طيبة مع خاله سعيد الذي يشتغل بتجارة السلاح، فتوجّه إليه، وأخبره بمصيبته مع فرسه، فقال له خاله:

- هل تريد أن ترميها لتخلّصها من عذابها؟
- لا أعرف يا خال.. كأني فهمت منها ذلك.
- كلّ غالٍ يرخص لك يا خال، أجابه، وهو يربت على كتفه تحبُّبًا.

ثمّ توجّه إلى خزانة، وأخرج منها بندقية، ووضع فيها رصاصتين، تجنّد بجناده، وخرجا معًا، مرّا على الدار الكبيرة، وأخبرا أباه وجدّته وأهل الدّار بنيتهما، فأذن لهما الأب تخليص الخيل من عذابها. سمع ابن عمّته حمود حديث الخيل والموت، فطلب من الخال مرافقتهما.

وقف أحمد قرب رأس فرسه الذي أرْخَته حتّى لامست رقبتها الأرض، وأضحت تتنفس بصعوبة، حاول أن يرفع رأسها، فأبت، ابتعد عنها، وبكى بين يدي خاله، الذي ناوله البندقية الملقّمة بطلقتين، وطلب منه أن يخلّصها من عذابها، تردّد أحمد، وشجّعه خاله سعيد:

- الخيل إذا ماتت على يد غير صاحبها، تلازمه لعنتها كلّ العمر.

ثمّ ناوله البندقية، ووقف بجانبه، فسدّد أحمد، وأطلق، فأصاب جانبًا من رقبتها، فشرعت تتقافز متألّمةً، فما كان من خاله، إلّا أن انتزع البندقية من يد أحمد، وأطلق الطلقة الثانية فاخترقت رأسها، ثمّ لقم البندقية بطلقتين أخريين، ولم يحتج لإطلاقهما، فقد أُجهز عليها نهائيًّا في ثوانٍ، انتحى أحمد جانبًا وقعد على الأرض منتحبًا، أما حمود فاقترب من الخال سعيد ورجاه:

- أبوس إيديك أعطني لأطلق طلقة، فردّ الخال سعيد:

- ولكن الفرس ماتت!
- كرمى لله أعطني البارودة لأطلق طلقة واحدة.

أعطاه الخال البندقية، فتوجّه إلى جانب جثّة الخيل، وأطلق بحقد على جثّتها الهامدة طلقتين بشكل متتالٍ، هاجمه أحمد، ودفعه من جانبها، وانتزع منه البندقية، وعاتب خاله:

- لماذا أعطيت هذا الأبله البندقية، ألا تعرف نذالته؟
- والله يا خال لا أعرفه بكلّ هذه الحقارة، فعلًا إنّه نذل ومنحط.

ثمّ انقضّ عليه، وحشره في زاوية، وصفعه على وجهه بقسوة مكيلًا له ولأبيه أقذع الشتائم، وقال لأحمد:

- هذا الولد نذل مثل أبيه، الله لا يسامح عمتك على غلطتها، تركت دينها، وتزوجت الغريب، والله الذي يلبس غير ثيابه يبرد، كيف إذا كان الذي لبسته من طائفة منحرفة؟ صحيح إنهم فقراء، لكنّ الكرامة تخصّ الفقراء قبل الأغنياء، لأنّهم لا يمتلكون غيرها، أمّا زوج عمتك فلا فلوس معه ولا ناموس، فقير ومن دون كرامة.

نظر أحمد إلى خيله الميتة، وانهمرت الدموع من عينيه، طأطأ رأسه، وصار ينشج بصمت وخفوت، واساه خاله قائلًا:

- عوضّك الله أحسن منها يا خال.
- والله يا خال أشعر أنها اختلست روحي بموتها.

لم يتركه خاله قبل أن استدعى أخويه سليمان وابراهيم وشباب البستان، حفروا حفرة كبيرة، وجرّوا جثّة الفرس وأنزلوها فيها، وواروها التراب، ثمّ خلع أحمد حلقة معلفها الحديدية، ومنع ربط أيّ حيوان مكانها.

***

أدرج ذكور العائلة اسم أحمد في جدول مناوبات حراسة المدفن اعترض؛ لكونه طالبًا وأمامه امتحانات، ولكن، لم يقبل عذره سوى أخيه سليمان، الذي وعده بأن ينوب عنه متى أراد، ثمّ أصبحوا يغضّون النظر عن تهرّبه من المناوبة حينًا، ويجبرونه عليها حينًا آخر، لا سيّما حينما أصيب والده بجلطة دماغية أقعدته في سريره، فطغى على الدار حزنٌ على رجلٍ طالما أظهر طيبةً مع أهله وأبنائه وبناته، ساعيًّا لنجاحهم بالدراسة؛ إذ كان معظمهم يتابعون دراستهم، وكان فلّاحًا مرًّا يكدّ ويعمل بأرضه مع أولاده في زراعتها، وبتربية الأبقار، على الرغم من قسوته أحيانًا الناتجة عن سرعة غضبه وقلّة تدبيره.

في إحدى الليالي التي كان أحمد مناوبًا فيها، دخل إلى المدفن وأحكم قفله من الداخل، ثمّ اتكأ رغبة في النوم، ولم يكد يغفو؛ حتّى حلّت الشياطين حواليه راقصةً، وملوّحة بعصيّ ارتسمت عليها الديدان التي كان قد لاحظ خروجها من مناخير جدّه الشيخ وصفي وربيبه الذيب، استيقظ مرعوبًا وطردها، ثم عاد إلى النوم، فتجلّت له من جديد على شكل أزيز رصاص وهدير طائرات ثم أصوات انفجارات لبراميل محشوة بارودًا داخل رأسه، استحالت الديدان خفافيش عملاقة، انقضّت فوق قامته الهاربة برفقة ظلّه الذي صار ينفصل عنه متطاولًا حينًا ومتضائلًا أحيانًا، حتّى شكّلت حيوانًا خرافيًّا غطّى أمّ الإبر بسحاب رماديّ حجب النور، أما أحمد فكان قد وصل إلى سلّم خشبيّ مكوّن من مئات الدرجات شرع بالصعود عليها؛ حتّى شارف منتهاها، شَخَصَ أمامه، فلم يجد سوى قاع المدفن الذي صدر منه قهقهات الشياطين المنبعثة من وراء لحى شيوخ يرمون حممًا ناريّة على خيوط الشمس الواصلة عبر ثقوب مخترقة جدران المدفن.

تراكمت مظاهر الموت والدمار عشوائيًّا أمام أحمد اللاهث وراء فجر يسكنه، فوجد أمامه سلالم الدار الخشبيّة، لم يعرف، أكانت الدنيا قد أظلمت كليًّا، أم أنّ عينيه أصابهما العمى، ولكنّه انصرف عن الظلمة وعماه،

وهدأ مشدوهًا أمام انشطار القمر نصفين، حينما توهّج بلون أحمر محدثًا انفجارًا شقّ أرض حقل الكرز في بستان أهله في أم الإبر تاركًا فجوة مؤلّفة من صخور بركانيّة ناتئة كسهام عناكب السموم التي غطّت جسده، نيران تلهب القمر، وأصوات أطفال يموتون، وجلجلة وسط ابتهالات فرقٍ صوفيّة تنشد لحنًا جنائزيًّا، تعرّت أمّه من آخر رداء كان يستر عريها، وتضاءل جسدها باستثناء الرأس الذي بقيّ مشرئبًا لوحده، كانت عيناها مطمئنة ووجهها صبوحًا، سار الرأس منفصلًا عن جسده؛ حتّى استقرّ على صفحة ساقية في ركن آمن من البستان سكنه أطفالٌ تلاصقت أجسادهم هلعًا، ثمّ بكت، وتوارت؛ خجلًا من احتراق القمر.

ازداد القمر احمرارًا وتوهجًا ، تساقطت حجارة من السماء، فكسرت أشجار البستان وتلاشت رياحين وروده، استعاد أحمد وعيه بعد رحيل رأس أمّه نحو السماء، فسمع أصواتًا لطائرات مغروسة في ذاكرته منذ كان طفلًا، حينما رفع جدّه فخري راية بيضاء بعد أن سمع في إذاعة إسرائيل أخبار حرب ١٩٦٧م، وطلبهم من الأهالي رفع الرايات البيضاء استسلامًا، انتحب على بكاء أبيه المستمرّ بعد أن أقعده المرض مشلولًا، ثمّ فرّ إلى النوم وعايش لجوء الأطفال إلى نهر ينحدر نحو حقل الكرز على الرغم من الزلزلة والعواصف.

صار الأطفال يرنون إلى ناحية الغرب في السماء، ويشهدون على قمر محترق وسط عتم الوجود، مدّوا أياديهم باتجاهه، أطفأوه، التحمت أجسادهم من جديد تحت أشجار الكرز، ثمّ شهد أحمد صمتًا خيّم على أجسادهم المتلاصقة في ذاك المجرى المائيّ العتيق، وفي الجهة الأخرى رأى رجالًا بلا ملامح يرقصون مع جثامين على قرع طبول أصواتها المنبعثة من مدفن الدّار، وهم يفتحون أفواههم مثل باب مغارة الثعالب التي كانت متآلفة مع شطمة المجنونة مهلّلين لمومياء قائد ملهم متجدّد.

استقام أحمد من وراء قبر المدفن، وصار يستغيث بالناس، ليعيدوا له

دماغه، الذي انشطر وتناثرت أجزاؤه متقافزة في أرجاء المدفن؛ بحثًا عن أنياب برغوث عملاق يحاول الإمساك بجثامين المدفن، نهض مرعوبًا، ولم يستطع أن يعي حقيقة ما جرى معه، إلّا لحظة استحضرت ذاكرتُه سطوة جدّه وصفي ووجهَ مدرب الفتوة الذيب الذي أهان أباه، هاجمته الديدان المنبثقة من أنفيهما، ثمّ مال بجنبه نحو الشمس، حتّى اكتوى بنارها، فاستفاق واقفًا.

تفقّد أعضاءه إن كانت لا تزال بحوزته، ووضع رأسه في وعاء ماء كانت أمه قد وضعته تحت مزراب السطوح، حينما زخّت السماءُ أمطارًا، لمحه ابن عمّته حمود، عاب عليه خوفه من حراسة المدفن وخروجه مبكرًا، لم يلتفت إليه أحمد، ورجع إلى المدفن، أغمض عينيه وغرق في نومه، وصار يتقلّب؛ هربًا من كابوس جديد، إلى أن تفاجأ بذبابة الماضي، وقد ازدادت مخالبها حجمًا ومفاصلها تصلّبًا، استحالت أوبارها سواطير وخناجر مسمومة وشوارب معقوفة للأعلى وأشعار لحيات تحنّت ألوانها بروائح القبور المتاخمة لفيضان المياه الآسنة في أسفل منحدر من دروب أم الإبر الهاربة نحو العدم، عتمة حالكة قبيل الفجر، وصقيع أربعينية الشتاء، صمت المقابر، ونتانة رائحة تفوح من جثامين مدفن الأسلاف المتفسخة، نفض أحمد عنه الكابوس، وانزوى في ركن قصيّ، تأمّل جدران المدفن الصمّاء، شتم أرواح أهل المدفن التي استحالت رعبًا يلتهم كلّ شيء، وصرخ متألّمًا، فأجابه هديل ساق حرٍّ يناغم قُمَرِيَّة في عشّهما، الذي شُيّد داخل شُبّاك علويّ صغير أعلى الجدار الشرقيّ للمدفن المطلّ على أرضٍ مزروعة بالياسمين، التي تشرق منها الشمس خارج سور الدّار الكبيرة.

تطاول بقامته نحو القمريّة، فتأمّلته، نفضت جناحيها ثمّ عانقت قُمرَها، وطارت معه بعيدًا، ابتسم لصباح القمريين، واتّجه نحو بقعة ماء تشكّلت؛ نتيجة تسرّب المياه من السقف المثقوب، وضع طشتًا للغسيل مكانها، وانتظره حتّى امتلأ، حمله وخطب رضى أمّه بالماء الذي جمعه فيه؛ فشكرته وهيّأت له

الفطور استعدادًا لذهابه إلى مدرسته، حيث درسه الأول سيكون مع أستاذه منذر الشمعة ومادة الرياضيات.

كان وجه أستاذه منذر عامرًا بالنور ذاك الصباح، فهم أحمد درس الجبر على غير عادته متمكّنًا من حلّ مسألة أمام التلاميذ. قبيل نهاية دوامه جاء ابن عمّته حمود وطلب له إذنًا بحجّة مرض أبيه، خرجا معًا، ثمّ اتجها إلى احتفال دعاه إليه بمناسبة عيد ميلاد الأمين العام لحزب الجبهة الشيوعيّ.

يومها سرقته السياسة، سرقته وحطّته على درب حريّة ثريّا التي تكبره بخمس سنوات، كانت تشمخ بقامتها التي تماثله طولًا، ترفع رأسها؛ لتبرز عنقها الطويل، وبين الفينة والأخرى ترفع شعرها الغزير المُسدَل على كتفيها وجبهتها بيديها ملامسة بإحداهن رأس أحمد أو كتفه محرّكة داخله رجولة منسيّة، لا سيّما حينما كانت تلتفت نحوه متأسّفةً، وباثّة في رئتيه رائحتها الأنثوية.

(٦)

وقف أحمد في الصفوف الخلفيّة بجانب ثُريّا في احتفال عيد ميلاد الأمين العام لحزب الجبهة الشيوعيّ، بعد أن قدّمه ابن عمّته حمود لها، وغادرهما؛ ليشارك في تنظيم الاحتفال. يومها انشده لقوّة الهتافات ولألوان الرايات الحمراء واللافتات المنتشرة في فضاء مسرح المدينة، الذي خصّصته بلدية المدينة؛ لإحياء تلك المناسبة الجامعة مئات الشيوعيين من كلّ محافظات سوريا المطّعمين بعناصر مخابرات فروع الأمن.

بعد فاعليات عدّة وسط الهتافات الحماسيّة، ظهر الأمين العام ولوّح بيديه وسط تصفيق حادّ وزغاريد نساء أحضرن خصيصًا لتأدية مهمتهن بأجرٍ ماليّ وهتافات معبّرة عن محبّة القائد والولاء له وللحزب، وبعد أن هدأت الصالة، بدأ خطابه الذي شكر فيه جمهور الحزب الهادر، ثمّ طفح بمديحه للنظام التقدميّ الذي يلقى الدعم من الاتحاد السوفييتي العظيم، كان الجمهور يقاطعه بالتصفيق الحادّ والهتافات الثوريّة، إلى أن بدأ الأمين العام بشتم الإمبريالية الآيلة إلى السقوط الحتميّ، حينئذٍ همست ثريّا بأذن أحمد:

- اتبعني!
- إلى أين؟ سألها أحمد.

لم تجب، فقط استدارت، وتوجّهت إلى الكواليس، تبعها أحمد صامتًا، ثمّ أدركها قرب الزاوية الأكثر عتمةً؛ جذبته من يده وأسندته على الحائط، قبّلته من فمه، ثم أدخلت لسانها فيه، انتصب على الفور، زادته انتصابًا تلك الرائحة الأنثويّة المبثوثة من أنفاسها، حاول أن يجاريها، فطوّقها، وضمّها بعنف إلى صدره، تخلّصت من قبضتيه بسهولة، وهمست بإذنه بحسم:

- ارتخِ أنت، ليس هكذا يفعل من يحبّ، ارخ جسدك واستمتع.

أذعن أحمد لطلبها واسترخى، ففكّت له أزرار بنطاله وأرخته له مع كيلوته إلى الأرض، وركعت أمامه، أمسكت بعضوه المتحجّر، مسدّته بكفيّ يديها، ولم تمهله سوى لحظات، حين أدخلته في فمها، وبدأت تقلّب لهيب حرمانه وشوقه داخل تنّور حاجتها المقموعة، لم يحتمل إطفاء نيران رغبتهما سوى دقائق قليلة، إذ تقبّلت منيه الذي انفجر في فمها ينبوعًا من المياه الدافئة، فغاص ما تيسّر منه داخل أحشائها، وفاض الزائد خارج فمها، فروى بشرة وجهها الناعمة، تلمّستها ولعقت منها بإصبعها، وقرّبت من فم أحمد لعقة، ومسحت بها شفتيه، ظلّ أحمد قابعًا بجانب الجدار لا يتجرأ على الحركة؛ إلى أن مسحت وجهها بمناديل ورقيّة ورمتها في سلّة قريبة، ثمّ ناولته مثلها ليمسح آثار فعلهما، وهمست بإذنه ليتبعها.

كومضة برق انتهى كلّ شيء، وكالنسمة تركته وغادرت نحو الاحتفال، ارتدى ملابسه على عجل، وتلفّت حوله ليتأكّد من عدم انكشاف أمرهما، ثمّ ركض وراءها مسرعًا، وقف بجانبها في الصفوف الخلفيّة، حاول أن يحادثها، فتغافلت عنه، ومطّت رقبتها متابعةً خطبة الأمين العام، الذي أفاض في شرح أبعاد المؤامرة الكونية على النظام التقدّميّ المتصدّي للإمبرياليّة والصهيونيّة، شاركت ثريّا بالتصفيق، فصفّق أحمد مثلها، إلى أن رفعت قبضة يدها، وهتفت:

- بالروح بالدم نفديك يا قائد

فردّد الجمهور وراءها بحماسة، كرّرت هتافها مرات وشاركها أحمد؛ مما أكسبه شعورًا بأهميته.

بدأ أحمد يستشعر مذاق الثورة اللذيذ بحضرة ثريّا، وظلّ مذهولًا من الموقف الذي جعله يتحمّس كثيرًا للأمين العام الذي تعالى صوته؛ من أجل الاشتراكيّة والثورة والتقدّم، ولم يدر إن كانت تلك النعمة التي حلّت عليه من

دون عناء مؤقتة أو دائمة، ولكنّه اندمج مع الاحتفال، وتماهى تماهيًّا تامًّا مع الأمين العام؛ ليكسب ودّ ثريّا، بقيّ حائرًا من كيفية توجيه سلوكه معها؛ حتّى انتهى الاحتفال، وخرجا معًا، قادته في حارة فرعيّة بعيدًا عن الأعين، ولكنّهما لم يختفيا عن عينيّ حمود، الذي تسلّل خلفهما، وفاجأهما عند منعطف الحارة المتفرّعة عن الشارع الرئيس، سلّم عليهما، ورافقهما المسير؛ إلى أن سَهُل على ثريّا التخلّص منه؛ إذ ادّعت نسيانها أغراضًا في مكان الاحتفال، فاستدارت عائدة، وبعد عشرات الخطوات التفتت ونادت أحمد، وطلبت منه مرافقتها مودّعة حمود:

- إن شاء الله نلتقي في مقر اتحاد العمال حمود، سلّم لي على ناديا، بخاطرك الآن.

ثمّ أسرعت خطاها مبتعدة عنه وملتصقة أكثر بأحمد، الذي استهجن قدرتها على التخلّص من حمود، وبعد أن ضمنت ابتعاده عنهما، منحت أحمد بعض الكلمات المحبّبة إلى قلبه:

- أسررت؟ كأنّك لست هيّنًا يا ملعون، والله إنك شقيّ!
- أنا أم أنتِ؟ حتّى الآن لا أعرف ما الذي حصل معي! ردّ أحمد بعد أن شَرُق وجهه.

تسكّعا في شوارع المدينة، فتعرّف أحمد إلى معالمها، التي كان يجهلها، إلى أن تعبا، فأوصلته إلى محطّة الباص، أوصته بالاهتمام بدروسه جيدًا؛ حتى يدخل الجامعة؛ ليحصل على حرية أكبر، ثمّ دعته للقائها في الساعة ١٢ ظهر اليوم التالي في كافتيريا الأصدقاء، حدّدت له موقعها، وأخرجت ورقة، ورسمت عليها الموقع، وكتبت اسم الكافتيريا، غادرها جسدًا، ولكنّها لم تغب عنه روحًا مهيمنًا على وجوده.

وصل إلى حيّ أم الإبر ومشى على أرصفة شوارعه متسكّعًا، مبعدًا عن ذهنه كلّ ما ينسيه ثريا، مستعيدًا رائحتها الأنثوية وحيوية حركتها التي

استطعم مذاق جنة الله على أرضه معها. فجأة تذكّر أباه المشلول وأحواله الصحيّة التي ازدادت سوءًا في الأيام الأخيرة؛ مما استلزم منه سرعة التوجّه نحو البيت.

***

في مدخل دارهم فوجئ أحمد بازدحام من الأقارب والجيران، كانت وجوههم تربدّ، ورءوسهم مطرقة نحو الأرض، وسرعان ما عرف أنّ أباه قد توفّي، استقبله المعزّون واجمين، فحاول أن يبكي، ولكنّ دموعه استعصت على عينيه، ثمّ قاده قريب له نحو جثمان أبيه المسجّى داخل الدار؛ لحظة دخوله عانق أخويه سليمان وإبراهيم اللذين كانا يجهشان، ثمّ حضن جدّته نعيمة وقبّلها، وقبّل أمّه التي استقبلته بالنواح، ودمعت عيناه بمجرد أن لمح الصغير عمر بين أخواته، وهنّ يبكين مفجوعات، لم تسعفه كلمات الرثاء قدّام جثمان أبيه، حاول أن يظهر بكاءه فعجز، ضاقت فتحتا عينيه، وزمّ شفتيه زمًّا، فتغضّن وجهه، وتجعّد جبينه، وانحنى شاربه الغضّ مع ميلان برقبته، أضحى منظره كاريكاتيريًّا ومضحكًا، انتبه أخوه الأكبر سليمان لحالته، فقاده للوقوف بين الأهل، الذين يتقبّلون العزاء، وبعد أن وقف بينهم صار يحاكي نفسه:

- الآن وقتها، ما خطر لأبي يموت إلّا في هذا اليوم، كان كابوسًا فوق رأسي بحياته، وبموته أيضًا، ليمنع لقائي الإلهيّ مع ثريا.

كان يبدي مزيدًا من القلق، ولم يعرف أحدٌ أنّ قلقه ليس حزنًا على موت أبيه، بل على موعده مع ثريا في اليوم التالي؛ إذ لا سبيل له للتواصل معها، إذا تخلّف عن موعده معها، فقط ما يربطه بها مستقبلًا هو عدم تأخّره عن الساعة ١٢ غدًا، في كافتيريا الأصدقاء.

اجتمع كبار العائلة؛ لتقرير بعض الإجراءات التي تخصّ مجلس العزاء، وساعة الدفن...، وكان رأي معظمهم أن يكون الدفن في اليوم التالي الساعة ١٢ ظهرًا في مقبرة عموم أهل حيّ أم الإبر، أمّا أحمد فلم يكن يعنيه سوى موعده

مع ثريّا، وهو موعد دفن أبيه نفسه، فدخل بحالة يأسٍ من الوصول إليها، إلى أن جاءه الفرج حينما انتبه إلى صوت خاله سعيد، الذي ارتأى أن يكون الدفن الساعة ١١ صباحًا جريًّا على عادات أهل حيّ أمّ الإبر الجديدة، وأن يكون الدفن داخل مدفن الدار، لأنّ الشيخ فخري لا يقلّ شأنًا ولا سعيًّا للحفاظ على كرامة العائلة عن أبيه الشيخ وصفي وأسلافه، وقد أيّده حمود مباشرة، ناقلًا رأي الذيب بصفته المسؤول الأهمّ في أم الإبر بضرورة دفنه في مدفن العائلة، وبعد جدل دام دقائق تخلّله مشاجرات كلاميّة بين الأعمام والأخوال، اغتنم أحمد الفرصة، وأكّد للجميع بصوت حادّ، وبتصميم لا يقبل التراجع:

- أنا وأخوتي وأمي مع خالي، متفقين على موعد الدفن الساعة ١١ غدًا صباحًا، إن شاء الله، يجب ألّا نخالف أعراف أهل الحي الجديدة وتقاليدهم، ثمّ أردف، حتّى يكتسب وقتًا أطول في الغد، يوم الدفن:
- والدفن هنا في مدفن الدار مع أحبته وأسلافه الصالحين.

حسم أخوه الأكبر سليمان الأمر، ووافقه الرأي، فصمت الآخرون، ولم يعترض أحدٌ منهم؛ منعًا لتفاقم الخلاف بين الأهل، وبذلك ضمن أحمد اكتساب وقتٍ أطول في اليوم التالي، متمنيًّا بينه وبين نفسه ألّا يتأخّر عن موعده مع ثُريّا.

وصل الذيب لتقديم مراسم العزاء، وبعد تعديد الوفد مناقب الفقيد، ارتجل كلمة أشاد فيها بالشيخ فخري وأسلافه، حماة كرامة أم الإبر في زمن التحرّر والتقدّم الذي يرعاه الأب القائد، ثمّ تصدّر موقف العزاء ومن حوله الوفد المرافق له، أمّا أحمد فلم يتحمّل وجوده، ولمعت في ذاكرته موقفه مع أبيه، يوم اعتدى على كرامته قبل سنوات، فانتابه غضبٌ شديدٌ، أخرجه من موقف العزاء وطرده بعد أن ذكّره بإهانته أباه، وكاد أن يقذف رأسه بحجر، لولا تدخّل خاله سعيد؛ ولكن هل نسيّ الذيب موقف أحمد منه وتحقيره له؟

***

طار النوم من عيني أحمد، وهو يفكّر بثريا وبلقائه المهدّد بالتلاشي، أصابه أرقٌ؛ حتّى الصباح، اغتسل ثمّ شرب القهوة، وتناول إفطاره، وارتدى ملابسه الداكنة، وخرج؛ لاستقبال التعازي إلى جانب ذويه، ضاق ذرعًا بأعداد المتوافدين من المعزّين وتكرار عبارات الرثاء نفسها الممجّدة أباه المتوفّى، وتساءل مع نفسه عن قدرة هؤلاء الناس على النفاق واصطناع البكاء والعويل حزنًا كاذبًا.

ثمّ عرف من أخيه أن حفّار القبور قد حضر، فسارع؛ لإرشاده على مكان القبر، وأوصاه، بعد أن وضع بيده بقشيشًا كبيرًا:

- اللّه يخليك يا عم لا تتأخّر، سوف تصل الجثّة قبل الموعد.
- كأنك مستعجل كثيرًا على الدفن؟ اللّه يرحم الشيخ فخري، مفضّل على الجميع! أجاب حفار القبور مستغربًا تسرّع ابنه أحمد.
- لا لسنا مستعجلين، لكنّ أبي كان يقول: كرامة الميت دفنه، أجاب أحمد، فطمأنه حفار القبور:
- اللّه يرحمه، وإن شاء اللّه قبل ساعة يكون القبر جاهزًا.

هيَّأَ حفار القبور مكان القبر داخل المدفن، ملاحظًا خروج ديدان سوداء يتخللها خطوط صفراء من بقايا جثمان الشيخ وصفي، آخر المدفونين في مدفن الدّار، متحمّلًا روائح الجثامين النتنة، التي ما لبثت أن انتشرت في كلّ أركان الحيّ، ووصلت إلى مكان العزاء، حتّى دفعت معظم الأهل يلومون أحمد بإذعانه لطلب خاله، بدفن جثمان أبيه في مدفن الدّار.

ازدادت روائح الجثامين المنبعثة من المدفن، ولوحظ تحليق طيور الليل السوداء في فضاء موقف العزاء، فتسارعت الاستعدادات لدفن جثمان الشيخ فخري، انتهز أحمد الفرصة، وصار يعجّل بإجراءات الدفن؛ حتّى صُلّيَ على الجثمان صلاة الميت، ودُفن قبل موعده، تحت ظلال طيور الليل، ووسط روائح جثامين الأسلاف النتنة.

خرج أهل الفقيد والمعزّون لتناول الطعام عن روح الميت، تأخّر أحمد عنهم؛ إذ كانت صورة ثريّا لا تزال مستحوذة على خياله، وكان يعاوده التصاقها بجسده في عتمة كواليس مهرجان حزب الجبهة الشيوعي في اليوم الفائت، اشتمّ رائحتها العالقة بأنفه منذ اليوم السابق، على الرغم من نتانة روائح جثامين الآباء المنبعثة من مدفن الدّار، وتوجّه لأخيه سليمان، وأخبره أنه يشعر بالتعب، ولا يريد حضور مأدبة طعام العزاء، واستأذنه للمغادرة، ليأخذ قسطًا من الراحة.

***

انسلّ من دون أن يلفت انتباه أحد من المشيّعين، وتوجّه مسرعًا للقائها في كافتيريا الأصدقاء، انتظر دقائق على الشارع الرئيس؛ حتّى وصلت أول سيارة أجرة، استقلّها، وطلب من سائقها الإسراع؛ لأنّه متأخر عن موعد مصيريّ.

وصل متأخرًا بضع دقائق، وانتبه لضيق ثريا، التي بادرته بسؤالها الإنكاريّ:

- خير إن شاء الله؟ كأنّك متأخر!

فأخبرها عن موت أبيه، ذُهِلَت، ثمّ وقَفت لتغادر، ولكنّه بقيّ جالسًا على كرسيه، تفاجأت من تصرّفه، وأَزمعتْ على الانصراف وحيدةً، فوقف بجانبها وأمسك بيدها ضاغطًا عليها، وأجلسها على الكرسيّ بجانبه، ثمّ احتضنها قائلًا:

- ولا يهمّك ثريّا، كلنا ميّتون وتاركون الحياة، المهم أن تبقي لي يا حبيبتي، من البارحة وأنا أفكّر فيك.

جلست ثريا مجبرةً، حاولت أن تواسيه، وسألته عن سبب موت أبيه، فأخبرها عن الشقاء الذي كابده بعمله في حقول الغوطة، التي أورثته إرهاقًا متواصلًا؛ حتى أصيب بجلطة دماغيّة شلّت أطرافه على أثرها، ثمّ مات بالأمس وعمره خمسون عامًا، تعجّبت من قساوة قلبه، وقالت له:

- شاب، كيف يطاوعك قلبك، وتنسى موته وتجيء إلى هنا؟
- ما الذي حلّ بك ثريا؟ أبي أنجب أربعة شباب وخمس بنات، وقد ارتاح من هذه الدنيا الخائبة، الموت أرحم له من هذه العيشة.

لم يكن أحمد قد أتى إلى كافتيريا الأصدقاء من قبل، ولكنّه بعد دقائق قليلة من وجوده، وقع نظره على كهول يحتضنون نساءهم، أو يلثمون أعناقهن أو أفواههن، أمّا ثريا فظلّت قلقة، ولم تستكن بجانبه، إلّا بعد أن قرّب يده من أعلى فخذيها، وبدأ يحرّك أصابعه على حواف زهور مصفوفة على ضفتي نهر يطفح عسلًا، فاستجابت روحها للاستثارة، ومن دون أن يسألها بدأ يلتصق بها ويحضنها ويمنحها مزيدًا من القبل، ثمّ جاءه نادل، وسأله عن طلباته، فطلب قهوة، وحينما سأله عن مقدار السكر، لوّح بيده، قائلًا:

- مثل ما تريد.

استدار النادل، فاحتضن أحمد ثريا من جديد، وبدأ يجرّ كرسيها إلى جانبه، تواترت سرعة تقبيله وجهها ويديها وعنقها، حاضنًا رأسها وعابثًا بشعرها الكثيف مستنشقًا عبير أنوثتها، أمّا يداه فلم تهدأ لحظة بعد أن رفع تنورتها القصيرة، وشرع يحفّ أصابعه أسفل بطنها وعند تلاقي جذعي فخذيها، ثمّ أزاح بيده غطاء بيدر حقله طامعًا بالحرث وجني محصوله، فصارت ثريّا تصدر هينمات، وتستجيب لكلّ حركاته، ويبدو أنّهما بالغا باندفاعهما وبدرجة التلاصق المسموح بها، فنبهّه النادل، بعد أن ربَّت على كتفه، مقدّمًا له القهوة وهامسًا بأذنه راجيًا عدم تماديه كثيرًا؛ حتّى لا يطرده صاحب الكافتيريا.

لم يستطع أن يخمّن الزمن الذي قضاه بجانبها، كان يسمع هسهساتها إلى أن بدت كأنّها غابت عن الوجود.

بعد فترة صحت فجأةً، دفعته عنها وانتفضت واقفةً، ثمّ رتّبت هندام ملابسها، ولم تترك له مجالًا للسؤال، دعته للوقوف حاسمة قرارها بالمغادرة

الفوريّة، فلم يكن أمامه إلّا الإذعان لطلبها، قبل أن يلمسا كوبي القهوة، وضع أحمد قيمة الفاتورة على الطاولة أمام عيون الزبائن المستغربة جرأتهما والشاخصة نحوهما بدهشةٍ وذهول، وقبضت ثريّا على يد أحمد بشدّة، وغادرا، قادته إلى مكتبها في اتحاد نقابات العمال؛ لتثبت حضورها في وظيفتها، ثمّ وجدت ورقة على طاولتها، قرأتها، وعرفت أن رفيقتها ناديا أرسلت لها ظرفًا مع حمود، الذي ينتظرها لدى غرفة الحراسة، استدعته فحضر وسلّمها المظروف، ثمّ تباكى لحظة مقابلته أحمد، وقدّم له التعزيّة لموت أبيه، واتفقا أن يلتقيّا مساءً في موقف العزاء.

تسكّع أحمد وثريّا على أرصفة المدينة، ودخلا مقهى شعبيًّا، خرجا منه بعد أن شربا القهوة، وحضرا فيلمًا سينمائيًّا في صالة الكندي من دون معرفة عنوانه، وطبعًا لم يتابعا أحداثه، إذ لم تبرح يدا أحمد جسدها، وهي بالمثل، إنما لم يستطيعا فعل المزيد، على الرغم من عدم وجود متفرجين في الصالة غيرهما مع بضعة أشخاص دخلوا للغاية نفسها، كما أنّ عامل السينما كان ينبئهما بمراقبته لهما بإشارات صامتة، ثمّ ضاق المكان بهما فخرجا، واستمرّا يمشيان؛ حتّى حلّت العتمة، وصلا إلى حي تشرين العشوائيّ، الذي كانت ثريّا مقيمة فيه مع أهلها، ثمّ قادته إلى خربة منسيّة على طرف ذاك الحيّ الذي كان قد بدأ سكّانه الجدد بالبناء فيه عشوائيًّا، فالتهمت الكتل الأسمنتية أشجار الجوز والمشمش والعنب والزيتون بعد أن أهملها ملّاكها؛ نتيجة تلوّث الأنهار التي ترويها وفساد فضائها، أدخلته الخربة، ثمّ أرخت له بنطاله، وامتصّت ما كان قد اختزنه طوال اليوم، ثمّ استرخت، وشرعت تعبث بفيوض مائه بأصابعها متلذّذة التهامها، مصدرة صوت أنثى مشوبًا برائحتها التي نخرت أنفه من جديد، واستقرّ عبقها في رئتيه.

رجع أحمد إلى البيت، فوجد إخوته وأقاربهم، يستقبلون المعزّين في أرض الدّار، لمحه ابن عمته حمود، فترك منصّة العزاء، واقترب منه، ودعاه للوقوف

مكانه، ولكنّ أحمد تخلّص منه ودخل إلى الحمام، اغتسل، ورتّب هندامه، ووقف إلى جانب إخوته، بعد بضعة دقائق دخل إلى قاعة النساء، فوجد جدّته نعيمة وأمّه تنوحان مع أخواته مع قريبات وجارات لهنّ، اقترب من جدّته، وحضنها معزيًّا، فازداد نواح النساء الحاضرات وبكاؤهن.

obeikandl.com

(٧)

لم ينس الذيبُ طردَ أحمد له من مجلس عزاء الشيخ فخري، فبعد أيّام من نهاية العزاء، دخل إلى قاعة الدرس، وزلق نحو أحمد، ثمّ سأله عن سبب مخالفته اللباس العسكريّ الإلزاميّ، وأمره بالخروج من قاعة الدرس، وفي المّمر لكزه من كتفه، وقال له:

- كم مرة نبّهت عليكم، ألّا تخالفوا اللباس النظاميّ، لماذا لا تضع شارة صفّك على كتفك؟
- نسيتها سيدي.
- هل أنت حمار حتى تنساها؟ أو أنك لا تفهم إلا بالضرب، يعني لازم تعلّم الكفوف على وجهك، ويبقى الحذاء فوق رأسك يا ابن القحبة.
- .....
- واستمرّ الذيب باستفزاز أحمد؛ حتّى فقد القدرة على التحمّل، فرفع صوته في وجه الذيب قائلًا:
- نحن لسنا حيوانات يا أستاذ، نحن بشر، ومؤدّبون.
- يعني نحن لسنا مؤدّبين يا ابن العرص؟ ردّ الذيب صارخًا بوجه أحمد، وصفعه على وجهه بيده الثقيلة، فما كان من أحمد إلّا أن ردّ الصفعة بلكمة إلى بطنه، تفاجأ الذيب، وانحنى متراجعًا للخلف، ففرّ أحمد هاربًا، ولسوء حظّه كانت بوابة المدرسة مغلقة، فأدركه الذيب، وكال له لكمات شديدة؛ حتّى تدخّل بعض المدرّسين والطلبة بإبعاده عنه، وفتح له عامل النظافة الباب، فهرب أحمد، وتوارى العامل عن عيني الذيب، الذي توجّه هائجًا نحو الإدارة.

في اليوم التالي طُرد أحمد من المدرسة بعد اجتماع مجلس المدرّسين الذين لم يعترضْ واحدٌ منهم على أمر الذيب، وأصدروا قرارًا بفصله من كلّ مدارس سوريا. وبعد لقائه مع ثريا، حكى أحمد لها مجريات ما حدث معه، فطمأنته بعودته إلى المدرسة.

في اليوم التالي وصل أحمد إلى المدرسة برفقتها، وفي الإدارة طلبت مقابلة الذيب، ثمّ أرادت قاصدةً، أن تحكي بلهجتها العلويّة التي أضحت تخيف إمَّعات التسلّط والفساد، ثمّ عرّفت بنفسها وبأبيها الذي كان متطوعًا لدى فرع الأمن السياسيّ، فعرفه الذيب كونه كان يشتغل مخبرًا في الفرع نفسه، فطأطأ وسكت أمامها، لم تحتج ثريا إلى جهد كبير لإقناعه بإلغاء قرار طرد أحمد، ثم غادرت، أما أحمد فرجع إلى صفّه، وأكمل دوامه إلى نهاية العام.

***

امتنع الطلّاب عن حضور دروس مادة التربيّة القوميّة التي يعطيها الذيب، فحاول إخافتهم، وهدّدهم بالمخابرات، ولكنّ معظمهم لم يعبأوا بتهديداته، واستمرّوا بإضرابهم؛ حتّى تدخّل الأستاذ منذر، فاستمعوا، وفضّوا اعتصامهم احترامًا له، شكره الذيب تملّقًا وزيفًا، وأضمر كراهية له وشرًّا، ثمّ وظّف مخبرين من الطلاب؛ ليخبروه عما يتفوّه به الأستاذ منذر في درسه، وحالما تجمّع لديه معلومات كافية لإدانته، رفع تقريرًا للمخابرات، فحضرت دورية رافقها الذيب إلى قاعة الصفّ، أخرجوه أمام طلابه عنوةً، وحقّقوا معه في غرفة اتحاد الشبيبة، ثمّ غادر عناصر المخابرات، وبعد أقلّ من ساعة اتصل مدير التربية بإدارة المدرسة طالبًا منع الأستاذ منذر من التدريس وإخراجه من الصف قبل إكمال درسه، أذعن المدير للأمر، وطلب من الأستاذ منذر مغادرة المدرسة، وبقيّ الطلاب من دون مدرس رياضيات لأكثر من شهر، ثمّ أرسلت مديرية التربيّة طالبًا جامعيًّا من قسم الرياضيات، تفاعل الطلاب معه، وأحبوه حينما عرفوا أنّه أحد تلامذة أستاذهم الذي

منعوه من التدريس.

***

بعد فترة عرف الطلاب أنّ الأستاذ منذر، يدرّس في معهد ليفانت الخاصّ، فسجّل معظم الطلاب بالمعهد، عرف الذيب بالأمر، ورفع تقريرًا للمخابرات؛ ليمنعه من متابعة التدريس، وبعد عدة من أيّام وصلت دورية مخابرات رافقها الذيب، سحبوا الأستاذ من قاعة الدرس أمام طلابه، وقاده أربعة مسلحين عبر الممر، كانوا يتعمدّون إهانته وضربه وشتمه بأقذع الشتائم، لحق بهم طلاب الدورة، وكانوا يهتفون بعفوية:

- يحيا، يحيا أستاذ منذر... منذر، منذر، منذر...

لم يلتفت عناصر الدورية للطلاب، أصعدوه إلى سيارتهم، وانطلقت بقوّة إلى مجهول معتقلاتهم، ارتدّ الذيب بهامته الضخمة بسرعة إلى تجمع الطلاب، شتمهم بصوت عالٍ، فتفرّق الطلاب.

غُيّب الأستاذ منذر أيامًا، وبعد أن أجبروه على إقرار عدم ممارسته مهنة التدريس في أيّ مكان، أطلقوا سراحه، وحينما توجّه إلى المعهد، وجده مغلقًا، وعُلّق على بوابته الخارجية بلاغٌ من وزارة التربية قضى بإغلاق معهد ليفانت بالشمع الأحمر، وحدّد السبب بالضرورات الأمنية ومراعاة للمصلحة الوطنية، عاد مكسورًا إلى بيته، ولكنّه لم يستسلم فأضحى يدرّس بضعة طلاب في بيته، إلى أن ذهبوا مرّة ولم يجدوه، قيل لهم: إنّه مسافرٌ، ثمّ جاء من أخبرهم بضرورة التواري عن أعين المخابرات، وأن يتوقّفوا عن زيارته.

***

في تلك الفترة كان بعض الطلاب يوطّدون علاقاتهم مع الأساتذة المعارضين المدركين أهوال الفساد والقهر والطائفيّة التي تمرّ بها الدولة السوريّة، والذين كانوا ينبّهون للأخطار المحدقة، ومن ضمنهم أستاذ التربية

الإسلامية محمد سعيد؛ إذ كان ينتصر دومًا للحرية ويتعاطف مع الفقراء، وقد حرص الطلاب على الالتزام بحضور درسه صباح كلّ سبت واثنين، واعتاد أن يحدّد للطلاب، في أثناء بضع دقائق، بداءة حصّته الدرسيّة أحاديث نبويّة وسورًا قرآنية ومقتطفات من بعض البحوث المهمة، ويطلب منهم حفظها ودراستها في البيت؛ حتى يحقّق الطالب الحدّ الأدنى من درجة النجاح في مادة الإسلاميّة غير المحتسبة بمجموع الدرجات المعتمدة لقبول الطلبة في الدراسة الجامعيّة أو المعاهد، ثمّ يشرع بحديث السياسة الشائق على قلوب الطلاب، فيجعلهم متيقّظين لكلّ كلمة ينطق بها، كان ينتقد مهادنة الأنظمة العربية حكّام إسرائيل التي وُجِدت لتزيد من تمزّق العالم الإسلاميّ وتخلّفه، وكان يستنتج هامسًا بصوت حزين:

- لا بدّ من أن يدافع الشعب عن مصالحه بالمظاهرات والاعتصامات؛ حتّى لا تموت أمة على أيدي خونتها، ومرّة عرّف بكتاب الأمير لميكيافيلي قائلًا:
- جميعهم يحكمون شعوبهم على أضواء السياسة الذرائعيّة على قاعدة الغاية تبرر الوسيلة، إذ إنّ غاية الحاكم هو تمكّنه من الحكم، ليعيث فسادًا، وينشر القهر والفقر؛ لذلك هذا الكتاب لا يفارق حاكمًا عربيًّا واحدًا، بل هو ملازمٌ لهم.

لم تكن علاقة الأستاذ محمد سعيد جيدة بإدارة المدرسة، ثمّ بدأ طلاب الشبيبة يشوشون في درسه، حتّى افتعل الذيب خلافًا معه، واعتدى عليه بالضرب أمام الطلاب، فغادر الأستاذ محمد سعيد مدرسة أم الإبر، ولم يرجع، استبدل بمدرّس آخر ملتحٍ، وسمة السجود واضحة على جبينه، كان لا يتوقّف عن شرح الأحاديث وبحوث الشرع الإسلاميّ، بالوقت الذي يخرج معظم الطلاب من درسه، ويبقى الآخرون؛ ليهزأوا من شخصيته التي كانوا يقارنون بين سخفها وثراء شخصية أستاذهم محمد سعيد، تحسّنت علاقة

الذيب بمدرس التربيّة الإسلامية الجديد، فأدخله لجنة النشاطات في شبيبة الثورة، ثمّ ارتقى في مناصبه؛ حتى نصبّوه الموجّه الأول لمادة الإسلاميّة في وزارة التربية، أمّا الأستاذ محمد سعيد فقد اختفى، ولم يعد يُذكر إلّا بإشاعات تسيء لسمعته يقوم بها جماعة حزب الجبهة التقدميّة.

***

لم تتوان ثريّا في حثّ أحمد على متابعة دروسه، ثمّ تمكّنت من تكليف بعضٍ من معارفها ورفاقها لإعطائه دروسًا مجانيّة، وكان أحمد يستجيب لتوجيهاتها في دراسته، على الرغم من أنّهما لم ينقطعا أسبوعًا واحدًا عن ممارسة الجنس في تلك الخربة المنسيّة بحيّ تشرين.

أمّا حمود فكان يتعمّد لقاء أحمد، ليخبره بمعرفته بعلاقته مع ثريا وبامتعاض أهله وأهل أم الإبر من انفلاته معها، وينقل له تقوّلات رفاقه بالحزب وثرثراتهم عن علاقة السوء التي تجمعه مع ثريّا، ثم كان ينهيه عن ممارسته مثل تلك العلاقات المشينة التي لا تليق بشاب مؤدّب مثله، ومرّة قال له:

- لمحتك معها في شارع الحمراء، وكانت تحكّ جسدها بجسدك، وبوّستك بوقاحة أمام أعين الناس، فخطر ببالي أن أنزل من السيارة وأعلّمها الأدب، والله العظيم لو كنت محلك لأشبعتها ضربًا على قلة أدبها، فردّ عليه أحمد:
- والله يا حمود إذا ارتكبت أي حماقة مع ثريّا لأجعلنك تندم عمرك كلّه.
- تهدّدني، ولك أحمد؟ سأل حمود متوجّسًا، فأجابه أحمد بجسارة:
- أنا لا أعرف التهديد يا حشرة، أنا أنفّذ الذي برأسي فورًا، لا تغلط أكثر يا فركوح، تقول إنّك شيوعيٌّ، ما الفرق بينك وبين تفكير أيّ جاهل متخلّف من أهلك، تضرب أنت وشيوعيتك.

- على كلٍّ الأيام قادمة، و ستعرف من هو حمود، انتظر يا أحمد.

قالها حمود مبطنًا تهديدًا، ثم غادره غاضبًا، وصار يتجنّب مجالسته أو مقابلته.

أبلغ أحمد ثريا بقول حمود، فلم تكترث للأمر، ودعته إلى بيت أهلها لتعطيه أمها دروسًا في اللغة العربية، فأبدى مخاوفه من أبيها كونه في المخابرات، طمأنته أنّه يقضي جلّ وقته خارج البيت، وهو يفكّر بالمغادرة إلى قريتهم؛ للإشراف على أرضه بعد تقاعده الوشيك.

***

لم يمكث أحمد كثيرًا بوصفه ضيفًا في بيت ثريّا؛ إذ قادته الأم إلى غرفة مكتبها، أعطته توجيهات عن كيفية دراسته في البيت وتحضيره للامتحان، بعد ذلك تمكّنت ثريا من إقناعها باستقباله دوريًّا لتعطيه دروسًا خاصّة.

داوم أحمد على دروس أمّ ثريا في اللغة العربية بمعدّل مرّة كلّ أسبوع، وعند انتهاء درسه كان يفتعل حديثًا مع مدرّسته، حتّى ينسدل الظلام، وعند وداعها يسلّمها ظرفًا فيه أجرًا متواضعًا، تحاول في كلّ مرّة أن تعفيه منه، ولكنّه كان يصرّ على تأديته لها، ثم يخرج تحت جنح الظلام، ويمشي بجانب جدران بيوت حيّ تشرين التي تُبنى متفرقة وسط يباس قمم الأشجار وعريها من الخضرة والفرحة، وبعد أن يتأكّد أن أحدًا لا يراه، يلج إلى الخربة بظلال بقايا أشجار تحاول منع ألوان القمر المتوهّج بالنيران المنعكسة عن ضجيج جسديهما، هناك، في زاوية بين جدارين متهدّمين تكون ثريّا بانتظاره، يخفيها غصن منحنٍ من خارج الخربة لشجرة تين خضراء تقاوم الموت، يرفعه أحمد، ويلج نحوها، يتعانقان بحرارة، ولا يسعهما أن يجلسا؛ إذ تسنده على جانب جدارٍ لا يزال مقاومًا السقوط، ثمّ تستقبله لاثمةً فمه بلهفةِ شوقِها المتأجّج، يلتفّ لسانيهما بالتناوب في فيهما، ثمّ يتسابقان على استحواذ

أحدهما على جسد الآخر، ولا ينتهي السباق إلّا بتشمير لباسهما الخفيف، فتتلامس أعضاؤهما، ويشرعان بالضغط على جسديهما، وأخيرًا تنصاع ثريّا لإرادته؛ حالما يضع شفتيه على حلمتي رمانتيها، فتسلّمه نفسها وتتأوّه بصوتٍ عالٍ، فيضطر أن يغادرهما طالبًا منها خفض صوتها؛ منعًا للفضيحة، كانا حريصين على تمرير أصابعهما على كلّ جزء من أعضاء جسديهما العاريين، وحينما يقتربان من الصعود إلى قمة المشتهى، غالبًا ما كانت تبعد قذفه بعيدًا عن مستقرّه الطبيعيّ، أو أنّها تلعق منيه، ثم تعبث به وتمرّره على وجهها وعلى شفتيه؛ قليلة هي المرّات التي لم تتمكّن من إبعاده عنها، فكان يتمّ القذف حول عشّ الحميمية المعشوشب والمتشرّب قطرات ندى، كانت تلهج بدفء طوفان نهره المتدفق على ضفتي مشتهاها البلّورتين الغائرتين إلى أعماق عطشى، كان قذفه يتساوق مع سحر عبق رائحتها، التي تدخله في برزخ بين الحياة والموت، فيكاد صوته أن يفضح فعلهما، لولا حرصُها بوضع كفّ يدها على فمه؛ لخفض صوته، ثمّ تنهض مستقيمة وممتنةً، محاولة أن تحتفظ بأكبر قدر، مما أفرزه جسده من سوائل وروائح وهمسات موحوحة، أما هو فكان يحلو له أن يركع ويقبّل النصف الأعلى من تنور عشّها، الذي ينفث أريجًا، وينبلج كفم سمكة مفتوحٍ على وسعه لتتلقف غذاءها، على عجل ينتهيان، ثمّ ينظّفان جسديهما بمحارمٍ ورقيّة يضعانها بكيس، يرتّبان هنداهما، وتخرج ثريّا قبله، ينتظر أحمد برهة، شاخصًا نحوها، يتأكّد من ابتعادها عن خطر المراقبة، ثمّ يغادر مواربةً حاملًا الكيس؛ لرميه بعيدًا.

(٨)

خضع الذيب لعدد من دورات تدريبية في فرع مخابرات القوى الجويّة منذ تفرّغه في اتحاد طلبة سوريا، رافقته منذ بداءة الدورة الثانيّة امرأة مكتنزة القدّ، قصيرة القامة، كبيرة الردفين؛ تكبره بأكثر من عشر سنوات، كانت تسهم بالإشراف على تدريبات الدورة المتعلقة بالتنكّر والتخفّي والسريّة وعلى كيفيّة مراقبة الناس وتشجيعهم على الفضفضة عن مشاكلهم، وعلى سبل توظيف المال والعواطف والجنس في تجنيد العملاء وعن كيفية التخلّص منهم بعد انتهاء مهامهم، ثمّ أسهمت في دروس استخدام اللاسلكي وتصنيع المتفجرات، وفي أثناء الدورة الأخيرة تقرّبت تلك المرأة من الذيب، ووطّدت علاقتها معه، وبعد أن منحوه منزلًا في حيّ المزّة الجديد بدمشق الجديدة، وخصّصوا له سيارة مع سائقها، ساكنته جزئيًّا في الشقّة ممتنعة عن الزواج الرسميّ منه، على الرغم من ملازمتها له في معظم الأوقات، ثمّ أخبرها عن نشاط أبناء الحاج الدغري الإسلاميين، فطلبت منه أن يراقبهم، ويخبرها بكلّ تحركّاتهم، ويسجّل لها آرائهم، ثمّ دفعته لإشراك شبكة المدرّسين والطلاب التي أسهما مع حمود في نسج خيوطها؛ للإيقاع بهم.

في تلك الأثناء، استشعر الحاج الدغري بالأخطار التي تتزايد على أفراد أسرته، لا سيما استمرار تغييب صهره (زوج ابنته) في المعتقل، وبقيت ابنته وحفيده تحسين الذي صار في المرحلة الابتدائيّة برعايته، فتوسّل الذيب لمعرفة مصير صهره، ومنحه مبلغًا كبيرًا من المال؛ ليعينه على إخراجه من السجن، وعد الذيب مربّيه بالمساعدة، ثمّ تهرّب من تنفيذ وعده، وبدأ يتوارى عن ناظريه، ثمّ طالبه الحاج بالمبلغ عن طريق معارفه، فأنكره، واستحوذ عليه.

***

ردّ حمود على الهاتف في محلّ الخيّاط، فكانت ناديا على الخطّ، أعطى السمّاعة لأبيها، فطلبت بعض الحاجيات لإقامة حفل عشاء على شرف أحمد وثريا، فطلب الخياط من حمود شراءها وتوصيلها قائلًا:

- الله يرضى عليك يا حمود، اذهب إلى السوق، ولبِّ طلبات الأستاذة ناديا، يبدو أنّها مهتمّة بمدعويها أكثر من العادة.
- حاضر يا رفيق، أنا أعرف مدعويها، ابن خالي أحمد وخليلته ثريّا، الاثنان من المتطرفين ويؤيّدان الزمرة المنحرفة عن الفكر اللينينيّ الخلّاق.

ثمّ أضمر نيّة سيئة لمراقبة وقائع السهرة وكتابة تقرير عنها وتقديمه للأمن عن طريق الذيب، للحصول على ثمنه، وردّ الخيّاط أديب:

- ما علينا، المهم ليس باستطاعتنا رفض طلباتها.
- أكيد رفيق أديب، اكتب لي طلباتها حتّى أحضّرهم؛ إذ عندي موعد مع عضو قيادة حزب الجبهة أبي خلدون اليوم، هل أستطيع أن أذهب لمقابلته؟
- ما من مشكلة، وصّل الأغراض، وسلّم عليه، وقل له أن يزورنا.
- حاضر رفيق أديب، على رأسي طلباتك يا معلم، أجاب حمود مخفيًّا نواياه الشريرة.

أوصل حمود أغراض ناديا إلى المنزل، ثمّ استأذنها، وتوجّه إلى مقرّ حزب الجبهة التقدمية، كان هدفه هو الحصول على أسطوانة غاز بالسعر الرسميّ، عن طريق وزير النفط ممثّل الشيوعيين في مجلس الوزراء، أخذ حمود من أبي خلدون وصلًا ممهورًا بتوقيع الوزير لاستلامها، ثمّ سأله عن أحوال أسرة معلّمه الخياط، فأخبره بأدق التفاصيل، ونقل له دعوة معلمه، وأبلغه أنّ ناديا تستعدّ لإقامة حفل عشاء هذه الليلة، وذكر له المدعوين، فأجابه أبو خلدون مبتسمًا:

- سلّم على الجميع وأبلغ الرفيق أديب وزوجته، أني سأزورهما مساء اليوم.
- حاضر رفيق، قالها حمود، مبالغًا بإحناء رأسه نحو الأرض.

قبل عودته مرّ حمود بمكتب الذيب، قابله وأخبره عن سهرة أحمد وثريّا عند ناديا، فطلب منه تقريرًا عن السهرة وآراء الحاضرين كلّهم، وكلّفه أن يتصل بمضر الدغري، ويظهر له معارضته السلطة، وتأييده الإسلاميين، وأعطاه منشورات صادرة عن حزب اليسار الإسلاميّ؛ ليقدّمها إليه.

***

كانت سهرة صاخبة، تناولوا فيها طعام العشاء وبعض المشروبات الروحية التي أفقدت أحمد وعيه وتوازنه، وبدا خفيفًا يريد أن يحلّق من دون أجنحة، انفلت على الرقص العشوائيّ مع موسيقى زوربا، ثم انضمّت إليه ثريّا التي خلعت حذاءها، وشرعت ترقص كغجريّة تستمدّ حرارتها من لهيب نيران عاشقها، كانت الموسيقا تصدح في الصالون؛ حينما وصل أبو خلدون برفقة حمود، أوقفت ناديا الموسيقى، واستقرّ الجميع على كراسيهم:

- ما شاء الله، ما هذه الحيوية، أكملوا أكملوا... خاطبهم أبو خلدون مبتسمًا تصنّعًا، فردّت أخت ناديا الصغرى عليه:
- أهلًا عمُّ، تفضّل شاركنا الرقص.
- نحن راحت علينا يا عمّ، الله يسعدكم سأترك لكم حمود، وأذهب أنا إلى غرفة العجائز.
- تفضّل خذ حصتك من الضيافة رفيق، قالت له ناديا بامتعاض.
- لا، خذوا راحتكم، وهذا حمود معكم، اهتموا به هو يستحقّ كلّ خير، وإذا أرادت الرفيقة ناديا، أرسلوا ضيافتنا إلى غرفة العجائز.

كانت ناديا تعرف أنّ أبا خلدون والأمين العام يستغيبون والدها، ويعاشرون أمّها المشهورة بجمالها، وكانت متيقّنة أنّها على علاقة جنسية مع عدد من أعضاء قيادة حزبهم بغفلة عن أبيها، الذي أعماه حبّه لاقتناء الكتب، وأحلامه بنشر المحبة والعدالة التي استقى أسسها من ثرثرات مسئوليه بالحزب الكاذبة وبعض قراءاته المتواضعة.

قلقت ناديا؛ لوجود المسؤول الشيوعي لدى أمّها في أثناء غياب أبيها، ولوجود حمود الذي لا تثق به في السهرة، لاحظ أحمد وثريّا تغيّر مزاجها، وحاولا أن يخرجاها من حالتها من دون جدوى، ثمّ فتح أحمد حديث السياسة الذي جاراه به حمود، فاستفزّه؛ حتّى شرع أحمد في شتم السلطة ورئيسها وأحزاب الجبهة، الذين يضلّلون الناس، ولعن قياداتهم الذين يشتغلون قوادين لرجال المخابرات، كان أحمد يحكي تحت وطأة سكره، فأسرعت ناديا، وجهّزت صحن ضيافة، وطلبت من حمود أن يوصله إلى غرفة المعيشة، ثمّ طلبت منه إحضار أبيها من محلّه فورًا.

تنبّهت ثريا لخطورة ما يتفوّه به أحمد، حالما احمرّت عيناه، وانبلج منهما قطرات دمع سالت على وجنتيه، فودّعت مضيفتها، وتأبّطت ذراعه، وخرجا معًا، أوصلته إلى أم الإبر، وتأكّدت من دخوله المنزل، ثمّ رجعت إلى منزلها.

أما حمود ففي تلك الليلة بقي أرقًا؛ حتّى أتمّ تقريره عن السهرة، وعن آراء أحمد، وصباح اليوم التالي سلّمه للذيب، وبعد أيّام قليلة اعتُقِل أحمد، وأهين وعذّب، ولكنّ ثريا تعاونت مع ناديا وتمكّنتا من الاتصال بالأمين العام لحزب الجبهة الشيوعيّ الذي اقتنع بمناصرة أحمد حزبه، فتعهّده وأخرجه من معتقله بكفالته بعد فترة من اعتقاله التعسّفيّ.

لم يرتضِ الذيبُ قرار المخابرات إخراج أحمد، فحاول أن يعيده، ولكنّ ثريّا بعلاقاتها ضمن حزب الجبهة الشيوعيّ وبمساعدة ناديا، عن طريق معرفتها رئيس اتحاد نقابات العمال، كانتا تحميانه، وتفشلان مساعي الذيب بغية إيذائه.

رجع مضر الدغريّ من دمشق إلى جامعته في حلب، وتقدّم بامتحاناته النهائيّة، ثمّ دافع عن مشروع تخرّجه في كلية الهندسة المعماريّة، وحصل على درجة الامتياز، ولم ينتظر حتّى يستلم شهادته؛ إذ عاد إلى دمشق ومارس نشاطه السياسي الذي ضاق عليه مع الإسلاميين المتشدّدين في حلب، وانحاز منتصرًا لانتفاضة جموع السوريّين السلميّة، واستطاع حمود الاتصال به، وحاوره وأظهر عداءه لسياسة السّلطة، ثمّ أعطاه منشورًا لحزب اليسار الإسلاميّ.

***

التقى مضر مع الذيب في منزل بستان أبيه، استذكرا طفولتهما، وكان مضر فرحًا بالذيب، الذي حكى آراءه بشفافيّة منتقدًا استبداد السّلطة، ولم ينبس الذيب بأيّة كلمة توحي بنواياه العدوانيّة تجاه مضر، على الرغم من أنّه كان يتمزّق داخليًّا، وهو يستذكر حياته البائسة في بستان آل الدغري، فقد كان يقارن بين نشأة مضر، وهو يقود سيّارته مرتديًّا أفخم الألبسة، ونشأته التي كان مضطرًا فيها أن يبيع بعض الخضار على قارعة الرصيف؛ ليكمل مستلزمات معيشته اليومية مع ناطور، لم يحظ منه على أدنى ثقة به، بل كان ينتزع منه نقوده منذ طفولته، ويعاقبه بالضرب شاتمًا إيّاه وأمّه المجنونة، اشتهى الذيب في تخيّلاته لو بقيّ ذلك الناطور في قيد الحياة، لكان روى غيظه وحقده بقتله والتمثيل بجثته انتقامًا منه.

وافق الذيبُ مضرَ على كلّ ما يقوله، وشتم السلطة ورئيسها أمامه، فازداد مضر ثقةً به، وطرح آراءه مدينًا العنف الممارس من قبل السلطة والعنف المضاد لها، ثمّ استدلّ بمواقف أمير تنظيمهم في دمشق يوسف عبيد المعارض أشكال العنف المسلّح كلّها ونزوعه إلى أساليب الجهاد السلميّ، كما فضفض مضر للذيب، ولم يخطر بباله أن يقوم بالوشاية عنه، حتّى تمكّن الذيب من معرفة الأساليب المتّبعة لتواصله مع إخوته ورفاقه، وعرف من مضر، أيضًا، جانبًا من تحرّكات يوسف عبيد.

أرسل الذيب لمضر ورفاقه من اخترق تحركاتهم، وكان يجمع التقارير ويصنّفها متعاونًا مع المرأة التي وجدت ضالّتها بتضليل مضر والإيقاع به وبرفاقه.

تشرّد كثيرٌ من الشباب الإسلاميين خارج سوريا؛ هربًا من اضطهاد السلطة وقمعها، ثمّ اغتيل أميرهم في دمشق يوسف عبيد بأسلوب وحشيّ تحت جسر فيكتوريا، حينما دوهِم بإشراف فرع مخابرات القوى الجويّة، فقد طعنه الذيب ابن شطمة المجنونة ببلطة حادّة من الخلف شقّ بها رأسه نصفين، وفرّ مع فريقه هاربين بسيارة كانت مواكبة حدث الاغتيال، ولم يكتشف مضر دور الذيب في الاعتقالات، إلّا حينما واعده، فحضر ومعه دورية مخابرات؛ إذ اعتقلته.

بعد فترة أعدموا مضر الدغري ميدانيًّا مع كثير من رفاقه في فرع المخابرات الجويّة، واستبقوا في معتقلاتهم الآلاف من الإسلاميين الذين فُبركت لهم تهمٌ كإضعاف الشعور القومي ووهن نفسية الأمة ونشر أخبار كاذبة وتحقير رئيس الجمهورية،... وحكموا عليهم ورحّلوا إلى سجن تدمر الرهيب.

تلقّى الذيب تهديدات بالقتل، فأبلغ امرأته المشرفة على نشاطه، ثمّ أُمِر بالامتناع عن الظهور والتوقّف عن الذهاب إلى الجامعة وإلى أم الإبر، وخصّصت له دورية مرافقة مسلّحة وحراسة دائمة، وعلى الرغم من الإجراءات الأمنيّة كلّها، التي قاموا بها لحمايته، فقد تمكّن أصدقاء مضر الدغريّ من وضع عبوة ناسفة في سيارته قبيل موعد لقائه مع ضابط في مكتب الأمن القوميّ، إذ استقلّت امرأته السيارة مع اثنين من المرافقين، منتظرين رجوعه الذي تأخّر دقيقة؛ نتيجة نسيانه محفظة وعودته لجلبها، قبل وصوله بثوانٍ انفجرت السيارة، فماتت المرأة وأصيب المرافقان بجروح بليغة، ونجا الذيب.

بعد مراسم دفن المرأة، اختفى الذيب وتوقّف عن الظهور نهائيًّا؛ إلى أن أُرسِل ببعثة دراسية إلى بولندا؛ ليكمل دراسة الدكتوراه في الفنون الجميلة.

(٩)

قبيل الامتحان النهائيّ للثانوية العامة، واعدت ثريا أحمد على اللقاء بعد خروجها من عملها، ظنّ أنّها هيّأت لقضاء مغامرة جنسيّة خارج مألوف أيامهما، فحلم بامتطاء جسدها، والإذعان لرغباتها الأنثوية طامعًا برفع صهيل رجولته الغائصة في بحر نارها، ثم قال محدّثًا نفسه:

- في أسوأ الحالات أنا مهيَّأ لمغامرة الخربة، فهيّ عظيمة الشأن أيضًا.

التقيا، وفضّلت ثريّا أن يجلسا في حديقة عامّة، توجّها نحو حديقة الأزبكية؛ هناك، حول طاولة مهترئة وعلى كرسيين متهالكين جلسا متقابلين، أحضر أحمد كأسي شاي من بائع متجوّل، وقبل أن يرتشف من كأسه، سألها عن سبب شحوب وجهها، فأشاحت بناظريها عنه على غير عادتها، ولم تستطع أن تخفي ملامح قلق على سيماء وجهها، ثمّ أبلغته عن حملها.

- هلّ تأكدت من الحمل؟ قال أحمد مندهشًا.
- نعم، وأجريت فحصًا في مخبر تحاليل طبية.
- ولكن كيف حدث الحمل ولم يحدث الإيلاج؟ واستدرك أحمد:
- على كلّ مبروك، الآن ماذا تريدين أن أعمل؟ أنا جاهز لأيّ شيء تريدينه.
- الحمل ممكن الحدوث من دون عملية إيلاج يا فهمان، لا بدّ أن نجد حلًّا، أجابته ثريا ممتعضة.
- نتزوج مثلًا؟ قالها ممازحًا، وأردف: مستحيل يا ثريا يا عيني، قبل أن آخذ البكالوريا أولًا، فردّت عليه وقد بدا الانكسار عليها:

- لا أحد قال لك تنضرب على قلبك وتتزوج! ولكن يجب أن نجد حلًّا لا بدّ أن نفكّر بحل.
- أنا أمزح يا ثريا، ما عليك يا حبيبتي، أنا جاهز لتنفيذ أيّ حلّ تقترحينه، قال لها أحمد محاولًا طمأنتها.

شرحت له ثريّا كيف أن الحمل ممكن حصوله، من دون أن تتمّ عمليّة الإيلاج، لأنّها أحسّت بظنونه الآثمة بحقّها، وأبلغته عن إمكانية إجراء عملية إجهاض للجنين عند طبيب مختصّ، ثمّ اتفقا على تأمين المال اللازم والبحث عن طبيب مناسب.

***

أول ما خطر على بال أحمد هو الاستعانة بالأستاذ منذر، ذهب إلى بيته فأنكرت زوجته وجوده، وقبل ابتعاده، نادت عليه، وطلبت منه أن يرجع ليلًا من دون إثارة أيّة شبهة؛ لأنّ البيت مراقبٌ، والأستاذ لا يتحرك إلّا تحت جنح الظلام.

حلّ المساء، ومشى أحمد قرب منزل الأستاذ بحذر، تأكّد من عدم وجود أحد يراقبه، وقرع جرس المنزل، فأدخلته زوجه، ثمّ استقبله الأستاذ في ركن مهمل على سطح منزله، سأله عن دراسته وأحواله وحدّثه عن ضرورة الكفاح ضد الطغاة الفاسدين، ثمّ أعطاه منشورات لحزب معارض يسهم في تأسيسه، تحت مسمّى حزب الشعب الإسلاميّ.

تردّد أحمد في إخبار أستاذه بمصيبته، فشجّعه للبوح بما يضمره، فتجرأ وأخبره متلكئًا، ووجّه الأستاذ له أسئلة تتعلق بالتأكّد من حملها وأخرى عن انتمائها الدينيّ ومكانة أهلها الاجتماعيّة، ولم يخف قلقه حول انتمائها الديني المغاير، وازداد قلقًا، حينما عرف أن أباها متطوع في المخابرات، وبعد ذلك رافق أحمدَ إلى بيت طبيب صديقٍ له.

استجوب الطبيب أحمد، وتأكّد من خطورة الموقف، ثمّ كال له اللوم على سلوكه المنحرف، وحذّره من معاودة اقترابه من النساء خارج الزواج الشرعيّ، وأخيرًا طمأنه:

- لي صديق جراح يجري عمليات إجهاض لبنات شيوخ القبائل وأبناء المسؤولين اللواتي يحملن سفاحًا؛ منعًا للفضيحة، ولكنه يتقاضى أجورًا عاليّة.
- ما من عائق ماليّ، ردّ أحمد.
- غدًا صباحًا حضّر نفسك مع صديقتك؛ حتّى تذهبا إلى عيادته.

قال الطبيب، ثمّ عقّب بسلسلة من النصائح؛ لعدم تكرار ممارسة الجنس؛ لصغر سنّه، وعدم معرفته بالأمراض المنتشرة بين النساء، كما لاقى توبيخًا من أستاذه؛ لأنّه يهمل دروسه رغبة بالزعرنة مع بنات الهوى، دافع أحمد عن صديقته، وأكّد لهما أنّه يحبّها، وأنها ليست من بنات الهوى، وأنها موظّفة ومثقّفة، وهي وحيدة أبويها اللذين قدما من الساحل السوريّ، وحكى لهما عن اهتمامها بدراسته وحرصها على نجاحه.

في اليوم التالي، عاين الجرّاح حالة ثريا، ثمّ اتفقا معه على إجراء العملية، أسلفاه دفعة نقديّة، ثم ترافقا في الموعد المقرّر، حالما وصلا؛ لم يكن في العيادة سوى الطبيب وممرضة، أُدخلت ثريّا إلى غرفة العملية، وظلّ أحمد في بهو الانتظار، أخرج مقرّر اللغة الإنجليزية، وشرع يقرأ فيه، ريثما تنتهي عملية إجهاض ثريّا، ثمّ نادت عليه الممرضة، وقف عند رأس ثريّا، هنّأها بالسلامة، وأوقفها، وخرج معها إلى غرفة الانتظار، أجلسها على الكنبة، وأكمل للطبيب مستحقّاته الماليّة التي كانت كلّ ما يمتلكانه.

بعد أن ارتاحت، وشعرت بتحسّنها، طلبت من أحمد أن يغادرا العيادة، أوصلها بسيارة إجرة إلى أقرب نقطة من منزلها، راقبها حتّى ولجت الباب، ثمّ أطلّت من على الشرفة، لوّحت له بيدها مودّعةً.

بعد عملية الإجهاض، وفي أثناء التحضير للامتحانات النهائيّة للشهادة الثانوية، ابتعدا عن بعضهما، والتزم أحمد في البيت مكثّفًا دراسته، كان يستعين بالأساتذة الذين توسلّت ثريّا له عندهم، وحضّر نفسه جيدًا للامتحانات القادمة، وهو واثق من نفسه.

***

كان أحمد من الناجحين في الثانويّة العامّة، أقام لأصدقائه حفلة، واحتفل أهله بنجاحه، لا سيّما جدّته نعيمة التي أودعت لديه صندوقًا من الموزاييك، وفيه أحجيّة وقلائد أثريّة ومصاغ ذهبيٌّ، تتناقله نساء الدار الكبيرة عبر الأجيال، ويسلّم للمرأة الأكثر حكمة والأميز ذكاءً وجمالًا، والمتّسمة بقوة شخصيّتها ورجاحة عقلها، وطلبت منه المحافظة عليه اتفاقًا مع أمّه لإيداعه لدى من تستحقّ من نساء الدار الكبيرة، أطلّ إلى ما في داخله، وأبدى إعجابه بهذه العادة الأصيلة، ثمّ أودعه لدى أمّه التي ركنته في الصندوق الكبير، وأحكمت إغلاقه بقفلٍ متين.

سرّت ثريا بنجاحه أيما سرور، ورافقته حينما كان يقدّم أوراقه للتسجيل في الجامعة، وبعد بدء دوامه في محاضرات قسم الفلسفة، صار متاحًا لهما اللقاء في بوفيه الجامعة ومقهى الأصدقاء وفي خربة حيّ تشرين، وعلى سرير مريح في شقة مؤجّرة لأحد الزملاء القادمين من المحافظات، أو على بساط العشب في الزوايا المعتمة من حديقة الجامعة، وأهملا إجراء عملية رتق غشاء بكارتها.

انبهر أحمد بطلاب جامعة دمشق وبالحياة المدنيّة المغايرة لبيئته الفلاحيّة التي تربّى في كنفها، ولم يستطع إخفاء آثارها في تكوين شخصيته إلّا بانغماسه في علاقات اجتماعيّة ممتطيًّا سرج السياسة بمعيّة ثريّا التي تمكّنت من المحافظة عليه وتشجيعها له، ثمّ صارت تختار له ملابسه التي عليه أن يرتديها، وتشتري معه كتبًا من المعارض والمكتبات، وصارا يحضران الفعاليات الثقافيّة معًا.

مغامرات خاضاها معًا في الميادين كلّها، السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة، لم يتركا بابًا من أبواب الجنس، إلّا وجرّبا الدخول فيه، قرأا معًا الشعر وروايات محفوظ وسارتر ومسرح العبث وطوق الحمامة وألف ليلة وليلة، ثمّ حصلا على الثابت والمتحول لأدونيس وقرأا للعفيف الأخضر عن الكومونات ولياسين الحافظ ومسرح ونوس والحكيم... وأسهما معًا في الاحتجاجات؛ استنكارًا لسياسة القهر والإفقار والفساد ومواجهة مع مؤسساتها.

في تلك الأثناء تقدّم لخطبة ثريّا قريبٌ لعائلتها، رفضته، إذ كانت قد تمادت بمعاشرة أحمد كثيرًا، ثمّ ألمحت له إمكانية ارتباطها بغيره، فأخبرها أحمد بعدم جاهزيته للزواج الأحادي آجلًا أو عاجلًا مسوغًا رأيّه بتكرار رأي السعداوي في كتابها المرأة والجنس القاضي برفض المؤسسة الزوجيّة، طلبت ثريّا منه أن يساعدها برتق غشاء البكارة، تردّد في البداية لقلة ما يمتلكه من مال، ولكنّهما ذهبا أخيرًا إلى الطبيب، وبعد إجراء الفحوصات، أخبرهما بصعوبة الأمر؛ لأنّ غشاء البكارة متهتّك، وهو بحاجة إلى أدوات ومواد غالية الثمن؛ حتّى يتمكّن من رتقه، وطلب أضعاف ما هو بحوزتهما، وافقا، وتمكّن أحمد من استدانة المبلغ المطلوب من جدّته نعيمة؛ لإجراء عملية رتق الغشاء.

ذهبا إلى الطبيب، وبعد التدقيق بحالتها، أبلغهما استحالة رتق غشاء بكارتها؛ لتهتكه، مما كان سببًا لحصول فتورٍ في علاقتهما الجسديّة، واستمرّا بالتواصل عاطفيًّا وبالتعاون سياسيًّا، فأسهما مع طلبة آخرين بنشاطات طلّابيّة داخل الجامعة وفي حيّ أم الإبر وحيّ تشرين.

(١٠)

احتشد مئاتٌ من طلاب جامعة دمشق في كلية الحقوق لسماع محاضرة د. محمد الفاضل رئيس جامعة دمشق، كان شجاعًا في محاضرته؛ إذ حدّد معالم مرحلة جديدة في النظام السياسيّ العربيّ تأسيسًا على الحقبة النفطية وارتكازًا على مهادنة الأنظمة إسرائيل وإنهاء المقاومة الفلسطينيّة التي وفدت إلى لبنان بعد مذابح أيلول الأسود في الأردن ١٩٧٠، ثمّ جهر بكلامه المتّزن بعد إدانته توريط الجيش السوريّ بتدخله في لبنان قائلًا بصوته الجهوريّ:

- ... هدفهم إضعاف الجيش العربيّ السوريّ، واللامعقول هو سكوت الناس عن ذلك وعن الفساد والقهر في جسد الدولة، والسكوت عن الإجرام الحاصل بحقّ المخيمات الفلسطينية في لبنان تواطؤًا مع إسرائيل.

في ٢٢ شباط / فبراير ١٩٧٧م اغتيل د. الفاضل في حرم جامعة دمشق، عُرف يومها أنّ قائد سرايا الدفاع، شقيق رئيس الجمهوريّة الأصغر، هو من أمر باغتياله، فصمتت الجامعة، أساتذتها وطلابها.

بعد أيّام دعا شباب الفصيل الثوريّ لاعتصام، وكتبوا لافتة: «الموت للقتلة»، ورفعوها في المكان نفسه الذي اغتيل به أستاذهم، ثمّ هتفوا مطالبين بالقصاص من المجرمين، وبعد أقلّ من نصف ساعة وصلت دوريات المخابرات، واقتحمت الحرم الجامعيّ، وهاجم عناصرها المعتصمين بالأيدي والعصيّ، دافع بعض الطلاب عن أنفسهم، فأُطلِق الرصاص الحيّ بكثافة في الحرم الجامعيّ؛ مما جعل المعتصمين يفرّون متوارين عن الأعين، لكنّ المخابراتِ تمكّنت من اعتقال بعضهم، ومنهم أحمد وثريّا التي تتصل مع الشهيد د. محمد الفاضل بصلة قربى عائليّة.

عرف والد ثريّا باعتقال ابنته، وتمكّن عن طريق موقعه في الأمن من إطلاق سراحها في اليوم نفسه، ولكنّه أبدى سخطه الشديد عليها، ونبّهها ألّا تقترب من السياسة، وأجبرها أن تكتب تعهدًا بعدم تدخّلها بالشؤون السياسيّة أمام محقّقيها وجلّاديها في فرع الأمن السياسيّ.

في أثناء بضعة أيّام أخضع الطلبة الآخرون للتحقيق الذي رافقه تعذيبًا جسديًّا ونفسيًّا، ثمّ أُجبِر العلمانيّون منهم على كتابة تعهدات بعدم القيام بأيّ عمل سياسيّ، وذلك لكون الطلاب ممنوعون من الأنشطة السياسية وفق ميثاق جبهة السلطة التقدمية التي ضمت بعثيين وشيوعيين وناصريين، ثمّ أطلقوا سراحهم، واحتفظوا بالإسلاميين الذين غابوا في غياهب معتقلات وأقبية ومقابر أجهزة نظام المخابرات السوريّة.

خرج أحمد من المعتقل، ووصل إلى البيت، فوجد أهله ينوحون عليه، حكى لهم مجريات سجنه، ثمّ خلع ملابسه وأشهدهم على آثار التعذيب، تألّم الجميع على مدى التوحّش الذي تعرّض له، وكالوا له النصائح ليبتعد عن السياسة، ثمّ سأل عن جدته نعيمة، وذهب ليسلّم عليها في غرفتها، فوجدها مريضة، قبّلها، فتوسلت لله أن يحميه، وقالت له:

- اشفق عليّ يا ستي، تعرف كم أنت غال على قلبي، لا تخاطر بالسياسة مع المجرمين بالسلطة، اترك الأمور لله لا بد أن يعين شعبه المظلوم بالنهاية.
- والله يا ستي إذا الشعب ما قام قومة واحدة سيبقى بلا كرامة أمام سلطة لصوص.
- صحيح يا قلبي، لكن احذروا منهم، لأنّهم لا يخافون الله.

***

في المساء لاحظ اختفاء أخيه الكبير سليمان من السهرة، ثمّ عرف أنّه يحرس جثمان أبيه وأسلافه في المدفن، تعجّب من الأمر، وتساءل عن سرّ استمرار حال التخلّف والجهل بين أهله في زمن ثورات العلم والفضاء والتقدّم التقنيّ المذهل، ثمّ أبدت أخواته ضيقًا من وجود المدفن في الدار، وقالت الكبرى منهن:

- واللّه العظيم يا أحمد، أحسّ أنّ المدفن ساكن داخل قلبي، لا بدّ أن تسعوا وتنقلوه للمقبرة العمومية.
- اللّه كريم يا أختي، ردّ أحمد.

ثمّ توجّه نحو المدفن، فوجد سليمان قابعًا في زاويته، وهو يرتجف من شدّة البرد، لا يسمح لنفسه بمغادرته؛ حتّى لا يطال المدفن أذى من الحاقدين في الحيّ، وحينما سأله أحمد:

- من الحاقدين يا أخي؟

جماعة الحارة الشرقية، والخونة من أقاربنا، واللّه إذا تركنا المدفن يومًا واحدًا ليغطّوه بخراهم.

- إذن، من هم أصدقاؤنا في هذا الحيّ يا أخي؟ صمت سليمان برهة ثمّ أجاب:
- عليك أن تعدّ أنّه لا وجود للأصدقاء سوى إخوتك؛ حتّى أبناء عمومتك بالدار الكبيرة والبستان وأصهارك أعداء لنا.

طلب أحمد من سليمان ترك حراسة المدفن، لكنه أبى المغادرة، فشعر أحمد حينئذٍ بغلطته الكبيرة التي جعلته ينتصر لدفن أبيه في الدار، وليس في مقبرة العموم، نتيجة نزواته مع ثريّا، وقال محدّثًا نفسه:

- كنتَ بحثت عنها ووجدتها، كم كنتَ أنانيًّا بتفضيل لقاء ثريّا على الدفن اللائق لجثمان أبيك، وكم تضرّر إخوتك الذين لن ينسوا حضوره في عقولهم وقلوبهم طالما جثمانه مدفون في داخلهم.

استيقظ أحمد في اليوم التالي، لم يستطع أن يبقى كثيرًا مع أسرته؛ إذ سرعان ما تحرّك لزيارة معارفه السابقين بالحيّ، ثمّ عاد في ساعة متأخّرة من الليل، وصل إلى البيت وهو يترنح من شدة السُكْر، استقبلته أمّه باللوم والعتاب بداءة، ثم بالسباب والشتائم لشخصه المقيت، حالما شرع بالتقيّؤ، ثمّ دفعته للاغتسال قبل أن يندسّ في فراشه، وفي اليوم التالي ذهب إلى الجامعة، ولم يرجع منها إلاّ في ساعة متأخرة من الليل كعادته.

***

بعد ثلاثة أسابيع من اغتيال محمد الفاضل، وقع حادث اغتيال كمال جنبلاط، الذي كان قد رفض طلب حافظ الأسد للتعاون معه لإقامة فيدراليّة مكوّنة من كانتونات إثنيّة وطائفيّة، وتضمّ سوريا ولبنان والأردن، توافقًا مع إسرائيل مقابل إنهاء الكفاح المسلح الفلسطينيّ، كما اعترض جنبلاط حينذاك على تدخّل الجيش السوريّ في لبنان.

لم يكن الأمر خافيًّا على أحد من هو قاتل جنبلاط، وسمّوه بالاسم يومذاك، ضابط سوريّ من فرع مخابرات القوى الجويّة، ولكنّ رعب الناس وهلعهم جعلهم يصمتون، ثمّ اتفق أحمد وثريّا مع شباب من الفصيل الثوريّ وأسهموا بمسيرة طلابيّة، استنكروا فيها اغتيال جنبلاط، ورفعوا لافتات استنكار لجريمة القتل، وبعد أن استدعيَّ أحمد إلى فرع الأمن السياسيّ من جديد، حقّقوا معه، وتأكّدوا من عدم صلة التنظيمات الإسلاميّة بالمسيرة، فأطلقوا سراحه.

ثمّ مرّ أنور السادات بسوريا والتقى حافظ الأسد، منطلقًا من دمشق نحو القدس، وانتظر النّاس موقف الأسد، الذي تأخّر بالإعلان عنه، وصمت لأكثر من أسبوع، فكان مثار تساؤل عن الدور الذي سيؤدّيه الأسد في تلك المرحلة، وبعد مرور عشرة أيام على ذاك الصمت، تعاون طلاب مع الفصيل الثوري، ونظّموا مظاهرة مناهضة زيارة السادات، طافت شوارع عديدة في المدينة قبل اقتحام المخابرات لها وتفريقها واعتقال بضعة شباب منهم.

بعدها قاد النظام تحرّكًا سياسيًّا متعاونًا مع نظام البعث العراقيّ ومباركًا من قبل إسرائيل والولايات المتحدة لعزل مصر عن محيطها الإسلاميّ والعربيّ، فاختلف شباب الفصيل حول الموقف؛ إذ كانت ثريّا يقظة، وعبّرت عن موقفها في اجتماعهم السريّ قائلةً:

- يا شباب، والله، عزل مصر عن دورها المركزيّ بالمنطقة، هو ما تريده إسرائيل؛ لإضعاف بلدان المنطقة، ثمّ أكّدت أخرى:
- لاحظوا سياسة إسرائيل في لبنان، تريد أن تقيم كيانًا سياسيًّا للموارنة شبيهًا بكيانها، وآخر للدروز، إنّها تجزئ المجزّأ بسوريا الطبيعية، لتصبح هي الكيان الأكبر؛ لذلك قتلوا جنبلاط، لأنّه رفض التعاون معهم، في حين لا يقدرون على تقسيم مصر، فيقومون بعزلها عن محيطها العربيّ.

ولكنّ أكثريّة شباب الفصيل لم يؤيّد وجهة نظر ثريّا، وعدّوا أنور السادات خائن الأمة ومن الضروريّ عزل نظامه، ولم يؤيّد ثريّا سوى الفتيات اللاتي يعملن معها وأحمد وبعض الشباب الصغار.

بدأ تنظيم الفصيل الثوريّ بالتصدّع، وظلّ بقايا شبابه يتوارون بظلال أحزاب جبهة السلطة، لا سيّما حزب الجبهة الشيوعيّ بشقيّه البكادشيّ والقوميّ؛ حتّى تفرّقوا، فمنهم من اقتيد إلى خدمة الجيش، وآخرون غادروا سوريا، والذين استقرّوا تخلّوا عن العمل السياسيّ لمصلحة أعمالهم في الأسواق التجاريّة الاستهلاكيّة التي تفشّت منذ تلك المرحلة، لا سيّما في الأحياء العشوائية كحيّ تشرين وأم الإبر والسومرية وجرمانا وعش الورور وغيرها من التجمعات التي احتوت على كثيرٍ من الأقليات الفرعيّة، أصحاب الولاءات الأوليّة، الطائفية والإثنية والعشائرية.

لم يتقدّم أحمد لامتحاناته الجامعيّة، وبقيّ وجوده في دمشق مرتبطًا بثريّا، ثمّ ترك دراسته، وودّعها متمنيًّا لها حياة هانئة مع زوجها المرتقب، وسافر إلى بيروت.

موبقات... موبقات

obeikandl.com

obeikandl.com

موبقات... موبقات

(١١)

غامرت ثريّا، وقبلت بزواج قريبها الملحاح إلى التقرّب من أسرتها؛ إذ لم يملّ من خطب ودّها طوال بضعة أشهر، حتّى صار لا يفارق بيتهم في أثناء فترة الخطوبة، وبعد أن عقد قرانهما؛ هُيّئت لوازم زواجهما، وأقام لها أبوها حفلة زفافٍ في صالة مناسبات بحيّ تشرين، بعدما رفضت أن تُقام في صالات نادي الضباط، دعا إليها شخصياتٍ سياسيّةً واجتماعية مؤثّرة في المدينة وزملاءه من العسكريين ورجال المخابرات، الذين أطلقوا رصاصًا غزيرًا بالهواء؛ احتفالًا بالمناسبة، فأرعبوا سكان المنطقة، ولا سيّما أطفالها،... ثمّ قَبلتْ ثريّا الهدايا من الجيران والأقارب، ووقفت باكيّة بين يدي أبيها وأمّها، وغادرت مع زوجها نحو الساحل؛ لقضاء شهر العسل بسيارتها الصغيرة التي قدّمها لها أبوها بمناسبة الزفاف، من دون معرفتها أنّ الرصاص الطائش أودى بحياة طفلة كانت تطلّ من شرفة شقّة أهلها.

في اللاذقية اعتذرت لنفسها من زوجها في الأيام الأولى؛ لعدم قدرتها على الاقتراب منه، وتعلّلت بالإرهاق الذي أصابها؛ نتيجة حفلة الزفاف، وبعد أيام هيّأت نفسها بحسب إرشادات أحد الصيادلة، وشجّعت زوجها لقضاء حاجته معها، وحينما انتهى، عرف حقيقة غشاء بكارتها المتهتك، على الرغم من محاولتها إيهامه بإظهارها أوجاعًا تصنّعًا، وببقع سائلة حمراء سقطت على الشرشف.

لم تحتمل ثريّا جلسات التحقيق التي أجراها معها زوجها، التي طغى

عليها أساليب الترهيب والتهديد بفضحها مع أهلها، إلى أن غافلته وغادرت من دون علمه، ووصلت وحيدة إلى أهلها في حي تشرين.

عرفت ثريّا بمقتل الطفلة بالرصاص الذي أطلقه المدعوون في ليلة زفافها، وتأكّدت من إجبار المخابرات أهلها على عدم تقديم شكوى بحقّ القاتل؛ فعبّرت عن استيائها، وبكت بين يدي أمّها، ثمّ ارتدَت السواد، ووضعت بظرف كلّ ما استطاعت الاستحواذ عليه من نقود، ورافقت أمّها إلى أهل الطفلة؛ قدّمت عزاءها، وفاضت الدموع من عينيها، وتركت ظرف النقود تحت وسادة من دون أن يشعر أحدٌ من أهل الطفلة، وغادرت.

لحق بها زوجها، وحالما وصل، تمكّن من الاختلاء بها من جديد، هدّدها بفضحها، إن لم تطلعه على سرّها، ثمّ شعرت أنّ الدائرة تضيق عليها، وموقفها يزداد حرجًا، فتركت سيارتها، وأقلّت المواصلات العامّة، وغادرت من جديد باتجاه حلب، من دون أن تخبر أحدًا بوجهتها، وهناك باتت في فندق، وكادت أن تتعرّف إلى مهنة جديدة عن طريق نزيلة أقدم منها.

***

كان زوجها من المتشدّدين في حزب السلطة ومن المقرّبين لدوائر المخابرات، وكانت تجمعه مع ثريّا نشاطات في الحيّ وفي اتحاد نقابات العمال بصفتها ممثلة حزب الجبهة الشيوعيّ، وغالبًا ما كانت النشاطات تقوم بإمرته، وكان مبهورًا بمنصب أبيها في المخابرات، وبحجم أملاكه مع زوجته في قريتهما بالساحل السوريّ وفي حيّ تشرين بدمشق؛ وزواجه من ثريّا لم يكن إلّا طمعًا بثروة أسرتها؛ لذلك لم يتوقّف لحظة عن البحث عنها منذ غيابها، أمّا أبوها فقد أبلغ جهات أمنيّة عديدة، إلى أن تمكّنوا من معرفة مكان وجودها، بعد أن غابت نحو الأسبوعين، أوقفوها في قسم للشرطة في حلب، وأبلغوا أباها بوجودها، فاستقلّ سيارة من سيارات فرع المخابرات، وتوجّه إلى حلب من دون أن يبلّغ حتّى أمّها، حينما واجهها دمعت عيناه، عانقا

بعضهما وسط عويلها المحزن وبكائه الصامت، وكتب تعهدًا على نفسه لدى قسم الشرطة بعدم إيذائها، ثمّ حوّلت إلى القضاء، الذي أفرج عنها بكفالة أبيها الماليّة وتعهده القانوني بحمايتها.

جلس الأب مع ابنته في المقعد الخلفي للسيارة، وطلب من السائق السرعة الفائقة، حاول أن يفهم من ابنته سبب هروبها من زوجها، لكنّها تكتمت، وازداد نشيجها، فواساها، ثمّ ساد الصمت؛ حتّى وصولهما إلى البيت، كانت الأم بانتظارهما هلِعَةً مما حدث، ولحظة وقوع نظر ثريا على أمّها، ارتمت بحضنها، وصارتا ترثيان حالهما، وتبكيان بحرقة.

قُرِعَ جرس البيت، ففتح الأب الباب، وجد زوجها وبعض الجيران يريدون الاطمئنان على ثريّا، اعتذر لهم، وطلب من زوجها أن يقابله في فرع الأمن، ثم دخل غرفته، شغّل المسجّل على تلاوة آيات من القرآن الكريم، وأغلق الباب ممتنعًا عن استقبال أحد؛ حتّى حان موعده مع زوج ثريّا، فخرج من دون أن ينبس بكلمة، طأطأ رأسه نحو الأرض شاعرًا بالعار، وتوجّه إلى فرع المخابرات.

تخلّف زوجها عن مقابلة أبيها في الفرع؛ حتّى تسنّى له مواجهة ثريّا، أعلمها بكتمانه سرّ ما جرى بينهما، ثمّ وعدها بالغفران، وذهب إلى أبيها في الفرع، ولم يستطع الأب معرفة شيء عن فرار ثريّا، ثمّ اتفقا أن يقابلاها معًا في البيت، وبعد ثرثرات حصلت في البيت، استرجعها زوجها وسامحها، وبعد فترة وجيزة شاركا أبويها في منزلهما، إذْ عادت إلى غرفتها وساكنت زوجها، ثمّ عادت إلى عملها في اتحاد نقابات العمال، وسارت أمور العائلة بشكلٍ روتينيّ.

***

كان الزوج يلحّ على ثريّا لإنجاب طفل، وكانت ترفض، ثمّ إنّ أباها وأمّها كانا يتمنيّان طفلًا يحمل اسميهما ويرثهما، أمّا ثريّا فلم يرق لها الأمر بداءة،

ثمّ نزولًا على رغبة أهلها، حملت من زوجها الذي سعد بالخبر، وأسعد أمّها أيضًا، وكان أبوها على أبواب التقاعد؛ لبلوغه السنّ القانونية لإنهاء خدمته، فأحضر من السوق الحلويات الشهيّة والمشروبات المتنوّعة؛ احتفالًا بحمل ابنته، وأقام مع أهل بيته وأصدقائه المقرّبين سهرة عارمة، رقص الأب على غير عادته، ودعا زوجه للرقص معه؛ احتفالًا بحفيدهم القادم، وفي الأيام التالية للحفلة وصل قرار نهاية خدمته، فشرع بتسليم مكتبه ومحتوياته، ثمّ أقام لزملائه حفلة وداع، وأحيل إلى التقاعد.

التزم أبو ثريّا في البيت، وصار يطلب من ثريا أن تأخذ إجازة؛ لأنّه يشتاق لحفيده، وهو في أحشائها، كلّما غابت عنه في شغلها، وبالفعل أخذت إجازة طويلة، وجلست بجانب أبيها، وكانت مسرورة به وبأمّها التي لازمت البيت أيضًا، ولم يكن زوجها مزعجًا في أثناء حملها؛ إذ كثيرًا ما كان يخرج؛ لمتابعة نشاطاته خارج المنزل.

بعد فترة، لاحظت ثريا تراجع صحة أبيها وانخفاض وزنه فجأة، فطلبت منه الذهاب إلى المستشفى فرفض، وادّعى التزامه بحمية غذائيّة رغبة في إخفاض وزنه، ومع مرور الأيام ازدادت أحواله سوءًا، ولاحظت زوجه أن سعاله ازداد، ونفسه ضاق ثمّ ظهرت بحّة في صوته، وبرزت أوردة في صدره، فأَجبرته على الخضوع لكشوفات طبيّة، وعند النتيجة ثبت إصابته بسرطان الرئة بدرجة متقدّمة، لا تسمح له الإفادة من إجراء عمل جراحيّ، فشرع الأطباء بعلاجه دوائيًّا وبإعطائه جرعات كيميائيّة، ولكنّه كان يتراجع يومًا بعد يوم؛ حتّى توفّي بعد حوالي أربعة أشهر من اكتشاف مرضه، أخذوا جثمانه إلى قريته في الساحل، وهناك أقاموا له موقف عزاء وحفل تأبين، ثمّ دُفِنَ جثمانه في مقبرة قريتهم.

رجعت ثريا وزوجها وأمّها إلى حيّ تشرين، واستقبلوا كثيرًا من المعزّين، كانت ثريّا حاملًا في تلك الفترة، وكانت مُجازة من عملها، ثمّ أضحت تواسي

نفسها بالذهاب إلى مقهى القنديل؛ للقاء زملائها، أمّا زوجها فكان فيما يختصّ به، كمن جاءه الفرج بموت حميه؛ إذ شرع يلحّ على أم ثريا بالذهاب إلى قريتهم؛ لملاحقة أملاكهم، وطلب منها توكيله لدى كاتب العدل على شقّة صغيرة ومحلّين في حيّ تشرين من أملاكهم ليشرف على استثمارهم، ثمّ أحضر معقب معاملات؛ لنقل ملكية الأب المتوفى، لكنّ ثريّا كانت تعرف نواياه الدنيئة، فوقفت له بالمرصاد محاولةً التحصّن من أطماعه.

***

لم تتوقّف ثريّا عن نشاطها السياسيّ، ومن بين الذين كانت تلتقي بهم ناديا قطري، التي كانت تضيق ذُرعًا بحمود الذي فُرض عليها مرافقًا، كان يظلّ قابعًا في زاوية من مقهى القنديل بعيدًا عن طاولتها، يقترب حينما تومئ له ناديا بالاقتراب؛ إلى أن أشفقت ثريّا عليه، وطلبت من ناديا دعوته إلى طاولتهما، وشرعت بطمأنته ومحادثته؛ رغبةً في منحه الثقة بنفسه.

بدأ زوج ثريّا في رفض خروجها المستمرّ من البيت، ثمّ أصبح يؤنّبها، ويطلب منها أن تبقى في البيت؛ لتحافظ على جنينها سليمًا، وشكا همّه لأمّها التي كانت تهدّيء من روعه مسوّغة خروجها؛ للترويح عن نفسها بعد موت أبيها، مؤكّدة له التزامها في البيت حالما أنجبت طفلها، ولكن الزوج لم يستكن لخروجها، وكان يعدّه تحديًّا له وتجنّبًا للجلوس معه، لا سيّما أنّها كانت قد توقّفت عن الاستجابة لطلبه بممارسة الجنس منذ وفاة أبيها، ثمّ راقبها، ولاحظ قرب حمود منها، فقرّر الانتقام منها عن طريق إيذاء حمود، فكتب عنه تقريرًا كيديًّا للمخابرات عن نشاطه السياسي المزعوم.

استدعيّ حمود إلى فرع مخابرات، فبحث عن الذيب، وأخبره هلعًا، فرافقه إلى الفرع، وبعد إخضاعه للتحقيق، عرف حمود أنّهم معنيّون بمعرفة علاقته مع ثريّا والفصيل الثوريّ الذي نشطت من أجله، أبلغهم بكلّ ما يعرفه عنها، وكلّف بتقديم تقارير دوريّة عن نشاطها، ثمّ أفرجوا عنه في اليوم نفسه.

أخبر حمود ثريّا ببعض مجريات التحقيق معه، فتحقّقت من أنّ زوجها هو من رفع تقريرًا عن نشاطها، وزجّ اسم حمود؛ انتقامًا منها بحسبانه يجالسها في أثناء خروجها إلى مقهى القنديل؛ مما دفعها إلى طلب طلاقها منه، وحينما امتنع ورفض القيام بإجراءات الطلاق، غادرت البيت، واستأجرت بعيدًا عنه وعن أمّها، ثمّ رفعت دعوى قضائية مستعجلة، وكسبتها؛ نتيجة توافقها معه على الطلاق شريطة تنازلها عن كامل حقوقها، إضافة إلى تسليمه كلّ هداياه وشبكة العرس وكل ما تعلق بتجهيزات عرسهما، ومنحه مبلغًا من المال تعويضًا، وفوق كلّ هذا أحضر سيارة وعمالًا إلى بيت حميه، واستحوذ على كلّ ما تمكّن من تحميله في سيارة النقل، ونقله إلى بيت قام باستئجاره في الحيّ نفسه، رجعت ثريّا إلى البيت، ورافقت أمّها؛ لتجهيز البيت من جديد، ثمّ اشترت لوازم طفلها القادم؛ إذ كانت قد أصبحت على أبواب الولادة، ثمّ التزمت البيت إلى جانب أمّها، حتّى أنجبت طفلًا أسمته ماهرًا، والتزمت بتربيته، وبقيت بجانبه طوال إجازة الأمومة التي مدّدتها عدة من مرات.

***

لاحظت أمّ ماهر وجود أشعار غير طبيعيّة على جسد وليدها منذ ولادته، وأخبرها طبيب المستشفى أنها ستزول مع تقدّمه بالعمر، ولكنْ بدأت تظهر تصبّغات سوداء يتخللها لونٌ أصفر على جلده، وكان لها رائحةٌ نفاذّة، فعرضته على طبيب جلديّة، فطلب منها إجراء التحاليل والصور؛ حتّى اتّضح أنها نتيجة زيادة هرموناته الذكريّة. وحينما تقدّم في عمره، لاحظت ازدياد الشعر في أنحاء جسده جميعها، على عكس توقّعات أطباء مشفى التوليد، مما استدعى إدخاله إلى مشفى الأطفال، فأجريت له الفحوصات اللازمة، وعالجوه بأدوية، ثمّ أخضعوه لأشعة الليزر التي خفّفت من نمو شعر جسده، ولكنّهم أبقوه في المستشفى؛ لمراقبة أحواله؛ فساءت حالته؛ حتّى غاب عن الوعي، فوضعوه في حاضنة خاصّة، وطلبوا من أمّه المغادرة، لأن معالجته تحتاج إلى زمن طويل؛

إذ توقّع أحد الأطباء العائدين من لندن حديثًا وجود خللٍ جينيّ في الهرمونات المذكّرة، وكانت علامته نتوءًا بحجم رأس دبوس في قمّة رأسه، وتحته تجويف على شكل قناة دقيقة تتصل بداخل جمجمته.

صارت ثريّا تتردّد كلّ يوم إلى المستشفى؛ لتطمئنّ على ابنها المحتفَظ به في حاضنة، وفي يوم من الأيّام لاحظت حركة ديدان حوله، كانت سوداء اللون مع وجود تموجات لونية صفراء، خافت ثريّا على ابنها كثيرًا، لا سيّما حينما نشطت حركة الديادن، ثمّ صرخت من دون وعي، وهرعت نحو الممرضة، أخبرتها، فهرعت بدورها إلى غرفة الأطباء، وبعد أن فتحوا الحاضنة، لم يجدوا شيئًا من الديدان، خرج الطبيب، وهو يؤنّب الممرضة؛ ثمّ وجدوا ثُريّا في حالة غيبوبة،عالجوها، إلى أن استيقظت من إغماءتها، فاستنجدت بالمحيطين بها، وهي تلوّح بيديها:

- أبعدوا الخفافيش عنّي، أبعدوها عن عيوني، أين الضوء؟ لماذا غابت الشمس؟...

كانت تصرخ، وكأنّما الخفافيش تأكل عينيها وجسدها، واستمرّت بالصراخ؛ حتّى هدأت بعد أن حقنوها بحقن مهدّئة، سألها الطبيب عن الكابوس الذي أصابها، فحكت له حقيقة ما شاهدته من الديدان السوداء التي كانت تحوم في حاضنة ابنها، وأكّدت له أنّها لم تكن نائمة، بل يقظة وهي تشخص نحو ابنها، الذي صار يعبث بالديدان؛ حتّى تحوّلت إلى خفافيش، ثمّ انقضّت عليها، وباشرت بأكل عينيها.

(١٢)

وصل أحمد إلى بيروت، وتعرّف إلى شباب من حركة المرابطين، حاول أن ينشط معهم، ولكنّهم كانوا حذرين منه؛ لكونه سوريًّا، ثمّ التحق مع زميله وديع الفلسطينيّ، بدورة تدريبيّة لدى الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين، تدرّب فيها على استخدام الأسلحة إضافة إلى تلقيه برنامج تثقيفيّ تعرّف عن طريقه على بعض ملامح الماركسيّة، توطّدت علاقته مع وديع، وخاضا غمار تجربة العمل الفدائيّ، ثمّ اشترك مع شيوعيين في الحركة الوطنيّة اللبنانيّة بمعسكر كشفيّ، تعرّف عن طريقه إلى ميسون، وهيّ ابنة ناطور سوريّ من السويداء، يخدم مع عائلته قصرًا في عاليه لثريّ كويتيّ، يقيم فيه بضعة أسابيع في الصيف، ويغادره بقية أيام السنة، كانت ميسون في السنة الثانية في كلية الحقوق بجامعة بيروت العربية، وقد راق لها أحمد حالما عرفت أنّه سوريّ.

تحاورا واهتمّ أحمد بإخبارها عن قطيعته مع انتماءاته السابقة كلّها وانقطاعه النهائيّ عن الثورة، فأبدت إعجابها بآرائه؛ إلى أن ذكر ثريّا وشوقه لها واحترامه لشخصيتها الرائعة، فأظهرت غيرة أنثوية، ثمّ بالغت بالنطق باللهجة اللبنانية، بحيث لم يتمكّن أحمد التخمين بأنها غير لبنانية، وبذلك ضلّلته بداءة بإخفاء جنسيتها، وثانيًّا؛ بادعائها الانتساب إلى عائلة لبنانيّة من جبل لبنان تتبع سلالات التنوخيين افتخارًا.

انتهى المعسكر، وأقام أحمد في بيروت، تعرّف إلى مجموعة طلّاب بعد أن رافق ميسون إلى الجامعة، وشاركهم قراءة أشعار للقباني ودرويش وأدونيس... إلى أن غار منهم، فذهب إلى الجامعة اللبنانيّة وتمكّن من تقديم أوراقه والتسجيل في قسم الفلسفة، أخبر ثريّا برسالة عن مجريات أحواله، وردّت عليه، وأصبحا يتبادلان الرسائل بأوقات متباعدة، وبعد أن أبلغها عن

علاقته مع ميسون، أذنت له أن يساكنها شريطة ألّا يتزوّجها، ثمّ اتفق مع ميسون على المساكنة، وشرعا بحياة مشتركة.

في غمرة نشاطهما السياسيّ حصلا على فرصة الانضمام لمعسكر في الجنوب اللبنانيّ، أوقفا دراستهما الجامعيّة، وانضمّا إليه، وبعدما انتهى المعسكر قرّرا البقاء، فاستأجرا غرفة واسعة قرب النبطية في قرية أرنون القريبة من قلعة شقيف، وعاشا معًا، وأسهما بمواجهة اعتداءات الجيش الإسرائيليّ إلى جانب المقاومة الفلسطينيّة؛ إلى أن تمكّنت إسرائيل من الهيمنة على الشريط الحدوديٍّ مع لبنان توافقًا مع قوى محليّة، فتعثّر تنفيذ عمليات فدائيّة ضد الجيش الإسرائيلي، مما اضطرهما للرجوع من الجنوب اللبنانيّ إلى بيروت.

عادا إلى دوام الجامعة، واشتغلت ميسون في مكتب محام في الفترة المسائيّة، أمّا أحمد فتابع دراسته في قسم الفلسفة، وأظهر تفوقًا في صفّه؛ حتّى صار يعمل مساعدًا لأحد الأساتذة في القسم.

***

وصلت رسالةً من ثريّا ليد أحمد، أبلغته فيها أنّها طلّقت زوجها، وأنّها تعمل على إعادة تكوين تنظيم الفصيل الثوريّ، لم يسعه الردّ؛ إذ اجتاحت إسرائيل لبنان في صيف ١٩٨٢م وحاصرت بيروت، ومن قلب الحصار اشترك أحمد وميسون في الدفاع عن المدينة، وانضما إلى صفوف المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة، التي تكوّنت بعد أن أجهز الجيش والطيران الإسرائيليّ على المنشآت اللبنانيّة، إضافة إلى استكمال مذابح الفلسطينيين واللبنانيين في بيروت باشتراك الحاقدين من ميلشيات المارونية السياسية ومن كان يساندها.

توافقت القوى السياسية على حلّ سياسيّ تساوقًا مع إرادة المجتمع الدوليّ ونزولًا عند إرادة إسرائيل، فانسحب الجيش الإسرائيلي من محيط بيروت إلى جبل لبنان، وهناك توقّفت قواته فترة؛ حتّى انتهى أهل جبل لبنان من

شكر الضباط الدروز الفلسطينيين في الجيش الإسرائيليّ، الذين تمكّنوا من تحييد الجبل عن الهجوم العسكريّ الإسرائيليّ على لبنان، وحمدوا ربّهم على عنايته بسلامة طائفتهم وجبلهم من دون نواحي لبنان الأخرى، التي تعرّضت إلى الدمار، وإلى قتل قطّانها، ثمّ قدّموا لأولئك الضباط الضيافة الفاخرة وحمّلوهم الهدايا لشيوخهم في فلسطين، الذين كانوا قد تقدّموا أشواطًا كثيرة بتعاونهم مع دولة إسرائيل.

أمّا المقاومة الوطنيّة اللبنانية فقد تبلّور تنظيمها في أثناء ملاحقة شبابها الجيش الإسرائيليّ؛ حتّى عسكروا في الجنوب اللبناني مداومين على مقارعة جيش الاحتلال الإسرائيلي، الذي احتفظ بالجنوب اللبنانيّ تواطؤًا مع بعض أهله.

مرّة أخرى، حطّ رحال أحمد وميسون في مدينة صور، وفي ربوعها عاشا أجمل أيام حياتهما؛ إذ اشتركا في عمليات فدائيّة مع المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة مغامرين بحياتهما؛ حتّى شهدا تفجيرَ مقرّ الحاكم العسكريّ الإسرائيليّ، ومن بعده تفجير مقرّ المخابرات الإسرائيلية في الجنوب، ثمّ بدأت تتشكّل حاضنة اجتماعيّة واسعة للمقاومة الوطنيّة اللبنانيّة؛ إذ نَعِما بظلالها.

لم يكن أحمد يفكّر في الزواج أو أن يصبح أبًا، لذلك حينما عرف أنّ ميسون حاملٌ، أصابه قلقٌ شديدٌ، وشعر بالعجز؛ لم يستطع أن يقبل فكرة أن يكون ربّ أسرة؛ إذ صار أقرب إلى العدميّين من ناحية الزواج الأحادي والأسرة المكبّلة لحرية الفرد، تأثّرًا بغريب كامو واللامنتمي لكولن ويلسون وهشام شرابي...

سأل عن إمكانية إجهاض الجنين، فدلّه رفيقه على عيادة طبيب فلسطينيّ في مخيم البرج الشماليّ، واتفقا معه على إجراء العمليّة، وحدّد لهما المكان في إحدى عيادات مخيم عين الحلوة بعد ثلاثة أيام، إلّا أن إسرائيل فجّرت قبيل الموعد المتفق عليه عشرات المنازل على رءوس أصحابها في ذاك المخيم،

واعتقلت أكثر من ١٥٠ شخصًا من أبنائه، كان من بينهم الطبيب الذي اتفقا معه على إجراء العملية، ثم عرفا أن العيادة التي اتفقوا على إجراء العملية فيها، قد دمّرت بكاملها؛ مما أخرّهما عن إجراء العملية، حتّى تلاشى أملهما بإجهاضه؛ نتيجة تقدّم الجنين في التكوّن.

تيقّن أحمد من أنّه أضحى أبًا لمولود قادم، فدخل حالة اكتئاب، ثمّ داهمه ألمٌ رهيب في معدته، أودى به إلى دخول مشفى حيرام في صور، وهناك تمّت مداواته لإيقاف نزيف داخليّ حادّ، وبعد خروجه من المستشفى، التفّ من حوله رفاقه، وسهروا بجانبه؛ إلى أن تماثل للشفاء.

في تلك الفترة كانت مواقع شباب المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة تتراجع، وتُخلي مواقعها للمقاومة الإسلاميّة، التي اشتدّت بعد حملات التشيّع الخمينية بمناطق النفوذ السوريّ، فقمعت الشباب المقاومين الذين عاندوا، ووجّهت الإهانات لمعظمهم، وقامت بالاعتقالات أو التهجير القسريّ أو القتل لعددٍ كبير منهم، مما اضطر من بقيّ منهم إلى الرجوع ناحية بيروت، ومنهم أحمد وميسون.

بعد وصوله إلى بيروت، أخبر أستاذه في الجامعة اللبنانية عن قصته مع ميسون وحملها منه، وركّز على عائق اختلاف دينهما أمام زواجهما، إذ ميسون درزيّة، فرافقه ذلك الأستاذ إلى منزل أحد مسؤولي الحزب التقدميّ الاشتراكيّ، وكان درزيًّا ينزع بتفكيره إلى الليبرالية، وحكى أحمد له مشكلته.

ساعدهما ذاك المسؤول، منح أحمد هويّة شابّ سوريّ درزيّ مفقود في معارك الحرب الأهليّة، ثمّ أعدّ وجاهة اجتماعيّة، زاروا أباها في عاليه بجبل لبنان، وطلبوا يد ميسون لأحمد، وتمكّنوا من الإسراع بإعلان زواجهما، وأقاموا لهما زفافًا في عاليه؛ مكتفين بكتابة عقد زواج شيوخ دروز من دون تسجيله لدى الدوائر المدنيّة، أصبح أحمد زوجًا لميسون وفي أحشائها جنينٌ لا يعرف بوجوده سوى أبويه والأستاذ الجامعيّ ومسئول الحزب التقدميّ،

والمقرّبين لهما الذين عرفوهما في المقاومة الوطنيّة اللبنانيذة في الجنوب.

لم يتوان أحمد عن مراجعة كليته في الجامعة اللبنانية، وكان بعض أساتذته في قسم الفلسفة، يشفعون له، لاجتهاده ومواقفه العقلانيّة لما يجري في الحرب الأهليّة، ويساعدونه في تخطّي موادّه.

***

استَعَرَت نار الصراع المسلّح بين القوى الوطنية والقوات الانعزالية، وعلى جبهة في الجبل كان أحمد مشاركًا في القتال مع مجموعة من الشيوعيين، إلى جانب شيوخ من قوات أبي إبراهيم الدرزية، ثمّ احتدمت المعارك، وانتبه أحدهم لزاوية مكشوفة للخصم في الطرف الآخر، فصرخ محذرًا رفيقيه:

– جورج، إلياس، تراجعوا... إنّ الانعزالية كشفوا موقعكم، بسرعة يا جورج انسحب أنت وإلياس باتجاه الشيوخ، فمكانهم أكثر أمنًا.

انسحب جورج وإلياس فعلًا نحو الشيوخ، ولاذوا بالقرب منهم، بعد لحظات سقطت قذيفة مكان وجودهما المكشوف، فحمدوا الله، واطمأنّوا لوجودهم بين الشيوخ بعد نجاتهم؛ وإذ بأحد الشيوخ المتوحّشين، اقترب منهما، وشخص نحوهما، وهو يلقّم سلاحه، فصرخ أحمد مروّعًا، حالما رفع الشيخ بندقيته وصوّبها نحوهما؛ إذ خرجت من منخريه دودتان غامقتا اللون موشحتان بالأصفر، وامتدّتا كسيخين مرفوعين عن تنور النار توًّا، ومسقيين بالسمّ الزُعاف نحو جورج وإلياس، حضرت صورة الذيب ابن شطمة في مخيلة أحمد، ارتداها وجه شيخ الدّين، بعد أن سقطت عمامته البيضاء على الأرض، فسطعت قرعته الصلعاء، المستعاض عنها بلحيّة كثّة شعثاء مع شاربين تحركّت ذؤابتهيما اعتراضًا على دودٍ ينغل تحتهما، وسرعان ما حلّقت طيور الليل من ذاك الرأس المغطّى بالديدان السوداء، فاستحالت سحابة سوداء هطلت شرانق متأهّبة؛ لزرع الموت، حتّى غطّت ساحة القتال التي شغلها شيوخ يحملون ذقونًا مفعمة بروائح جيف متفسّخة احتقنت في

صدره، مختلطةٌ بروائح الذيب ابن شطمة وبمدفن الدّار الذي حوى جثمان جدّه الشيخ وصفي، ثمّ انتابته إغماءة، لحظة سماعه صوت الشيخ المشوب بسخريّة سمجة، وهو يضحك:

– يا هلا بالرفاق، قلتم لي رفاق الدرب الصعب والقتال المرّ ها، ....ها، ألم تقولوا لي ذلك؟ يا أولاد الكلب، اسمك جورج وأنت إلياس وبعدكم عايشين؟

ثمّ أفرغ مخزن بندقيته الروسيّة في جسديهما، لم يتوقّع أحدًا فعله وهو قادم نحوهما، ومن قلب المفاجاة هبّ رفاقهما لنجدتهما، ولكن بنادق إخوانه من شيوخ عمامات الجهل والطائفيّة المقيتة، كانت أكثر بكثير مما في حوزتهم، وتحت تهديد السلاح أمرهم قائد مجموعة الشيوخ بأخذ الجثتين والانسحاب، قبل أن يلحقهم برفيقيهما على ما خاطبهم، فامتثلوا للأمر، حملوا رفيقيهما محاولين إسعافهما، لكنّهما توفيا قبل وصولهم إلى المستشفى الميدانيّ، ونسوا أحمد الذي كان غارقًا في إغماءته بين الشيوخ، حتّى رجع رفاقه وأسعفوه حتّى تمكّن من السير وحيدًا.

لم يشعر أحمد بغربته كما شعر به في ذاك اليوم الذي فقد فيه رفيقي دربه، إلياس وجورج، كان قلبه يبكي، والقرح يأكل معدته، والدمع يفيض من عينيه؛ إذ اشتاق إلى جدّته نعيمه وإلى أمّه وأخواته وأخوته، واشتاق إلى ثريّا التي تركها لعبثية ريح الطائفية الصفراء، كان يشعر بالخزيّ والعار؛ كلما تذكّر جنينها الذي ألزمها بإجهاضه، ثمّ هانت عليه نفسه، وتمنّى الموت. غيّب نفسه على درب لم يستطع أن يحدّد مساره فيه، أخيرًا اشتدّت آلام معدته، قعد على الأرض؛ حتّى جاء من نقله إلى صيدليّة قريبة، فوخزه الممرض حقنةً، حتّى تمكّن من الرجوع إلى البيت.

عادت لأحمد آلام معدته بشدّة، فالتزم البيت مداومًا على أدويته؛ إلى أن اشتدّت حرب الجبل اشتعالًا، التي راح ضحيتها، حينذاك، آلاف الشباب من اللبنانيين والفلسطينيين، ودمّرت بلدات وضاعت ممتلكات الناس وسرقت

محتويات بيوتهم وعقاراتهم، وهُجِّر المسيحيون من قراهم التي هيمنت عليها ميليشيات درزية، لم يشترك أحمد بالقتال؛ إذ مكث في البيت معانيًّا من اشتداد مرضه عليه، وكان بطن ميسون قد بدأ بالانتفاخ، فأبلغته بضرورة التواري عن الأعين لما بعد الولادة، فاعتزم الرحيل إلى طرابلس في أقرب وقت، أخبر رفاقه، واطمأنت ميسون حالما أبلغوهما بإمكانية تحقيق طلبهما سريعًا.

***

لاحظ أحمد أن صور كمال جنبلاط، قد اختفت عن الجدران، وحلّ مكانها صور ابنه بلباسه العسكريّ المموّه، سأل عن تلك الظاهرة، فأجابه أخ ميسون نمر:

- يا عمّي؛ الذي يريد سياسة الأستاذ كمال وحكمته، يلحق به في قبره، بعث الله لطائفتنا وليد بك؛ لينقذها من أعدائها أدامه الله للطائفة، من دونه كنّا انتهينا.
- لكن، الأستاذ كمال شخص تعدى طائفته، وكان مؤثرًا في السياسة العربية كلّها، وكان معه وسام لينين، الوحيد العربيّ الذي أخذه بعد ما مُنح لجمال عبد الناصر، ردّ أحمد على نمر، فأجابه منفعلًا:
- اسكت ولو عمي، الله يخليك، نحن لا ينقصنا منظّرين، ولسنا بحاجة من ينظّر علينا ويحكي حكي فاضي، على الأحوال كلّها، اليوم لك دعوة لحضور اجتماع الحزب مع أعضاء متنفذية عاليه، جهّز حالك.
- .....

في البيت أخبر أحمد ميسون بما جرى له مع أخيها، وكشف عن نيّته في عدم تلبية دعوتهم، فقالت له ميسون راجيّة:

- الله يخلّيك يا أحمد اذهب، واجتمع معهم، ولا تعاندهم، هؤلاء لا يفهمون السياسة مثلما تفهمها أنت، هؤلاء مجرمون وحيوانات،

وينتقمون من الذين يعارضهم الرأي، اجتمع معهم اليوم، ونحن على كل حال مسافرون إلى طرابلس.

- لأجل خاطرك سأجتمع معهم، لعلّي أعرف كيف يفكرون.
- تسلم لي يا أحمد لا يوجد أغلى منك، ردّت ميسون باسمةً.

مرّ نمر على أحمد وقاده إلى مقرّ الحزب التقدّميّ، بدأ اجتماعهم بوقوفهم دقيقة صمت على أرواح شهداء حزبهم، ثم نقل مسؤولهم أخبار الحزب والرئيس وليد بك، ونقل تأكيد الأخير ضرورة تطهير الجبل من الانعزاليين المسيحيين واجتثاثهم، ثمّ رحّب برفيق جديد وهو أحمد السوريّ، وأشاد به وبنمر الذي حصل على الجنسية اللبنانية مع أسرته، ثم قال:

- للأسف كان أحمد من جماعة الشيوعيين، على الرغم من أنّه من عجول السويداء الميامين، فردّ أحمد:
- ما عليهم الشيوعيين؟ على أساس أنتم وإياهم متحالفون بالحركة الوطنيّة!
- صحيح، لم يقُل أحدٌ غير هذا، لكن ولو خيّي، هؤلاء الشيوعيون، أخلاقهم لا تتناسب مع أخلاقنا وقيم ديننا، هم في جهة ونحن في جهة أخرى.
- لكنّهم مقاتلون أشدّاء، حينما كنت في المقاومة الوطنيّة اللبنانية رأيت منهم بطولات خارقة ضد الإسرائيليّ بالجنوب.
- اسكت ولو خيي، فضحتونا بالمقاومة، على الرغم من أنّ الحزب كان مشاركًا فيها، لكنها فشلت، وماتت أمام المقاومة الإسلامية، اللّه يبارك فيها.

ثمّ تداخل كلام الموجودين، وصاروا يدلون بآرائهم من دون أن يفهم منهم أيّة كلمة، صمت أحمد أمام كثرة المداخلات؛ إلى أن قاطع أحدهم الجميع بصوت حادّ، موجّهًا سؤاله لأحمد:

- كيف استطعت أن تعيش مع الشيوعيين خيّي أحمد، جماعة توني وأمه وأخته ميري، هؤلاء ما هم رجال ولو خيي، وعلى ذمتي كلهم (...) مثليون، أنت تعرف فرعيّة بيروت للحزب الشيوعيّ؟ وتعرف سلامة وحنا وفرج ونورا؟
- نعم أعرفهم، وكنت معهم في الجنوب، قاتلوا قتال الأبطال ضد الإسرائيليين.

ضحك الجميع، وشرعوا في كيل الشتائم والتحقير لهم، وقال أحدهم:

- هؤلاء نسوان، ولو خيي، هؤلاء يلوطهم أبو عنتر بالجملة بالكارنتينا ببيروت، ألا تعرف أبو عنتر؟

ثمّ تباروا بالاستهزاء من الشيوعيين، وذكروا كثيرًا من أسماء ووقائع تفسد سمعتهم، وزعموا أنّهم شهدوا عليها؛ مما جعل أحمد يلوم نفسه بسبب علاقته معهم، إذ لم يكن يعرف شيئًا عما ذكروه عنهم.

انتهى الاجتماع، وازداد أحمد اكتئابًا، ثمّ ذكر لميسون ما سمعه، وتساءل معها إن كان كلامهم صحيحًا، ولكنّ ميسون ردّت عليه بأن الذين اجتمع معهم مثال للتخلّف والجهل، ولا يقتنعون إلّا بطائفتهم، وهم من أوسخ الشخصيّات، وأكّدت له أنّ الشيوعيين أشرف منهم ومن شيوخهم، وذكّرته كيف دافع الحزب التقدميّ عن الشيخ المجرم، قاتل جورج وإلياس، ثم ذكرت له عن جرائمهم بحقّ أهل بيروت من المرابطين، وفي جبل لبنان أيضًا بحقّ المسيحيين.

أصيب أحمد بصداع برأسه، وشعر بدوّار، فاستأذنها وذهب إلى الحمام؛ استحمّ، ورغب في الاسترخاء، حاولت ميسون استئناف كلامها، ولكنّه أومأ لها أن تسكت؛ لأنّ آلام معدته بدأت تشتدّ عليه.

لم يتأخّر رفاقهما في تأمين شقةٍ لأحمد وميسون، ثمّ ارتحلا من جديد إلى طرابلس، آخذين معهما بعض أشيائهما التي قدروا على حملها.

(١٠)

وصل الذيب إلى بولندا؛ لمتابعة دراسته في الفنون الجميلة والحصول على شهادة الدكتوراه، فراقت له الحياة فيها؛ إذ كان يتقاضى راتبًا كبيرًا، يفوق راتب أساتذته بالجامعة، مقارنة بقيمة العملة البولنديّة أيام الحكم الشيوعيّ الشموليّ، مما أتاح له أن يعيش حياة بذخ وتهتّك.

ثمّ شرع في مراقبة نشاط الإسلاميين الآخذ بالاتساع بين الطلاب السوريين الموفدين ومتابعة تحرّكاتهم، وصار ينتقل من حيّ إلى حيّ، ومن مدينة إلى أخرى، لينفّذ أوامر المخابرات، ويكتب لهم تقاريره عن نشاط الطلبة، ثمّ توطّدت علاقته بالمسؤول الأمنيّ بالسفارة السوريّة بوارسو، وأصبح ملازمًا له.

اشتغل الذيب، ضمن شبكة مخبرين، وكان من رءوس تلك الشبكة التي ضمّت بضعة عشرات، جلّهم من أصحاب الولاءات الأوليّة بمن فيهم المنضوين في صفوف أحزاب تدّعي العلمانيّة، كانوا يستدرجون الطلاب إلى السفارة؛ ليحقّقوا معهم ويسجنوهم في غرفة بالسفارة خصّصت لسجن المتهمين وتعذيبهم؛ وأصبح الذيب ابن شطمة هو المحقّق، وهو جلّاد السجن الذي يستخدم كابلًا رباعيًّا أخرج من طرفه أسلاكًا نحاسية، لينكأ بها جراح المعتقل بعد ضربه المبرّح؛ ليزيد من آلامه، جريًّا على ما كان يمارسه في معتقلات دمشق سابقًا.

وكان شريكه بإنشاء شبكة التجسس الطلابيّة وبالتحقيق في السفارة صديقه جابر، مسؤول منظمة حزب الجبهة الشيوعيّ في بولندا، الذي كان قريبًا من المخابرات البولنديّة؛ إذ كان يحمي الذيب والسفارة من شكاوى الطلاب الذي يخضعون للتعذيب في سجنها.

ومن الطلاب من عاندهم، وحاول مواجهتهم، ومنهم: شابٌّ فلسطينيّ الجنسيّة، كان يجاهر بمعارضته سلوكهم، ويجابههم بحجاجه المنطقيّ في النشاطات كلّها، التي كانوا يتواجدون فيها معًا، وكان الطالب الفلسطينيّ حريصًا على نشر جرائم النظام السوري بحقّ الفلسطينيين في مخيماتهم بسوريا، وحينما بدأ ذلك يؤثّر في سمعتهم وعلاقاتهم مع البولنديين، طلب الذيب من المخابرات السوريّة، أن يسمحوا له بتصفيته جسديًّا، ولكنّ المخابرات في دمشق رفضت طلبه ومنعته من الاعتداء عليه؛ لأنّهم يعرفون تأثير ذلك الطالب بين الفلسطينيين، الذين كانوا قد بدأوا الإعداد للانتفاضة الفلسطينيّة.

بعد فترة اختفى الطالب، وبعد سنوات من تحرّيات تنظيمه الفلسطينيّ وأهله عنه، عرفوا أنّ المخابرات السورية أرسلت له من تمكّن من تخديره، ثمّ وضعوه في تابوت، ومرّروه من مطار وارسو، ونقلوه إلى دمشق، ليختفي ذكره منذ ذلك الحين.

***

في مقهى مسرح المدينة التقى الذيب بطالب سوريّ كان يتابع دراسته عن مسرح بريخت الملحميّ، دخل ذاك الطالب إلى المقهى لأول مرّة، وفوجيء بطلاب سوريين جالسين مع عاهرات بولنديات تخصّصن بهم، اختار منهم الذيب لكبر سنّه، حيّاه ثمّ شرب قهوته معه، وعرّفه بنفسه، كان هذا الطالب هو تحسين، عرفه الذيب، وتذكّر أنّه حفيد مربّيه الحاج الدغريّ، وتذكّر أباه المغيّب في سجون المخابرات، وأخفى الذيب معرفته به، ثمّ دعاه الطالب لحضور العرض الأوبراليّ في مهرجان المسرح، الذي كان بعنوان (نبوخذ نصّر)، وحاول أن يدعو بقيّة الطلاب، فلم يأبه له أحدٌ منهم مظهرين مزيدًا من اللامبالاة، ثم سأل تحسينُ الذيبَ:

- ما مشكلة الطلاب مع المسرح، لماذا لا يريدون الحضور؟

- هؤلاء جماعة همج لا يفهمون الفنّ الراقي، ردّ الذيب متثاقفًا
- طيب، تفضل حتى نحضر معًا، أجابه بكلّ لطف.

ثمّ اشترى تذكرتين، ولأنّه تكرّر حضوره حجز له قاطع التذاكر مقعدين مميّزين في منتصف الصف الأول.

كانت مقدمة المسرح مغطاة بلوحتين كبيرتين متساويتين في الحجم، الأولى: تمثّل نجمة سليمان بن داود السداسية، ألوانها زاهية والأنوار مسلّطة على جوانبها، والأخرى: الثور المجنّح رمز بابل في بلاد الرافدين، يخترقها صدعٌ من قمتها؛ حتّى أسفلها، ألوانها باهتة، والأضواء الموجّهة إليها شحيحة، تغطّيها الظلال القاتمة.

قبل بدء العرض، جاءت سيدتان ورجلٌ، خاطبوا تحسين بالإنجليزية؛ إذ إنهم مجموعة، ويريدون استبدال مكانهم معهما؛ حتى يتمكّنوا من الجلوس بجانب بعضهم، رحّب بهم بودّ، وقبل طلبهم، ثم قادوه ومعه الذيب إلى مكان آخر في الصفّ الأول، شكروه بكل أدب وودّ، ثم غادروا.

انكشفت ستارة المسرح فسطعت أنواره الرزينة وسط ديكور شرقيّ المعالم، وتشكيلٍ سكونيٍّ مستقرّ مكوّن من فتيات يرتدين لباسًا محتشمًا ومتشحات بإزر وشالات سوداء، توزّعن على منصّة المسرح جالساتٍ على أرضيتها بتكوينٍ بديع، استقبلهم الجمهور بتصفيق حادّ، ثمّ شرعن بالإنشاد المستوحى من مزامير داود الكائنة في العهد القديم من الكتاب المقدّس، المعبّر عن أقصى درجات الحزن على شعبهم المسبي أيام نبوخذ نصّر وعن معاني الحبّ التي يتسم بها أنبيائهم، بعد دقائق ولسبب مجهول غادر الذيب المسرح ملوّحًا بيده لتحسين من دون أن ينبس بكلمة.

أكمل تحسين العرض الأوبراليّ وحيدًا، وفهم أنّه يوَضّح وجهة النظر اليهودية للصراع الذي مضى عليه نحو ٢٦٥٠ سنة، ويبيّن انتصار اليهود على البابليين بالمحبة التي أظهروها عن طريق أناشيد شرق أوسطية حزينة

وموسيقى جنائزية، لدرجة أن الجمهور كان يطالب بالإعادة وسط تصفيق حادّ لانتصار اليهود على نبوخذ نصر وجيوشه بعد تدمير بابل على أيدي الفرس الذين استمدّوا قوتهم من أنبياء اليهود المسبيين المتآمرين معهم.

خرج تحسين من المسرح، ومرّ على مقهى المسرح بعد انتهاء العرض، فوجد الذيب قابعًا في زاوية معتمة وفي حضنه امرأتان، وُضِع أمامهم عشاء فاخر ومشروبات روحيّة متنوّعة، لم يميّز ما الذي كان متدليًّا من منخريه؛ إذ شغله عن التدقيق فيهما آخرون من الطلاب القابعين في زوايا لا تقلّ مجونًا ودعارة عن طاولة الذيب، قارن بين جمهور عرض نبوخذ نصّر الأوبراليّ وطلاب المقهى السوريين، ولم يستطع إيقاف انهمار دموعه، خرج بسرعة، وتوجّه إلى الحمّام، تقيّأ من شدة حالتي الاستياء والغثيان اللتين أصيب بهما، وخرج مهرولًا نحو بيت الطلبة الذي يقطن فيه.

في اليوم التالي ذهب تحسين؛ لحضور مسرحية بولندية، وصادف الأشخاص الذين تبادلوا معه مقعدهم في اليوم السابق، قابلوه بمودّة وسلّموا عليه بحرارة، ثمّ عرف أنهم من سويسرا، وسألوه عن موطنه أجاب مبتسمًا:

- أنا من سوريا

لم يجب عليه أحدٌ منهم، نظروا نحوه نظرة ازدراء واحتقار، وتركوه وحيدًا من دون أن يتلفّظوا كلمة وداع واحدة.

***

اقتربت نهاية السنة الدراسيّة، وقرّر تحسين السفر إلى سوريا، فأبلغ أهله، بنيته قضاء عطلته الصيفية بينهم، فرحوا به، وأعدّوا له برنامجًا حافلًا، وأخبروه أن يعدّ نفسه لرحلة طويلة إلى اللاذقية التي أحبّ شواطئها وغابات الفرنلق على جبالها، واتصلت به ابنة عمّته سارة، ولم تخفِ شغفها بوصوله، كان هو ينوي أن يعلن خطب ودّها، وكان يحلم بها زوجة مرافقة

له في سنيّ دراسته في بولندا، كانت أسرته تنتظره لحظة وراء لحظة، جهّز أغراضه وهدايا لابنة عمّته ولجدّته، أم مضر الدغري، المودعة بدار العجزة، ولأمّه التي ترمّلت من دون أن تعرف شيئًا عن زوجها المغيّب، ثمّ أخبرهم عن موعد وصوله، وغادر بولندا من مطار وارسو.

وصل تحسين إلى مطار دمشق، سلّم جواز سفره، فأوقفه الأمن العام، وقادوه إلى فرع مخابرات القوى الجويّة من دون أن يرى أهله، وهناك فتشوا أغراضه ووجدوا معه دفترًا كان يكتب فيه هواجسه، ومنها ما كتبه عن مشاهدته الذيب والطلبة السوريين في مقهى المسرح، محمّلًا مسؤولية سلوكهم المنحرف لسلطة نظام الحكم التي ترعى طلابًا متهتكين، وتقديمهم بتسليمهم مواقع المسؤولية، إضافة إلى خواطر عن آماله بتحقيق نظام ديمقراطيّ في سوريا، وما إلى ذلك من خواطر طالب حالم.

أودع تحسين أشهرًا في زنازين معتقلهم الرهيب، استجوبوه عن علاقته بالصهيونية العالمية، وعمّن دعاه لحضور مسرحية نبوخذ نصّر، عرف عن طريق التحقيق أن الذيب هو من رفع فيه التقرير، فأخبرهم بما حدث، وأطلعهم عن سلوك الذيب وأقرانه فأجابه المحقّق:

- أنت كذاب وابن عرص، نحن لا نصدّق إلّا رفاقنا الحزبيين، وتقاريرهم أصدق منك، ومن كلّ أهلك يا ابن القحبة.

أخضعوه لأكثر أساليب التعذيب الجسديّ والنفسيّ وحشيّة، وأجبروه على الاعتراف بعلاقته مع الصهيونية عن طريق اسم اخترعه، ثمّ حوّلوه إلى محكمة أمن الدولة بتهمة الخيانة العظمى، فحكم عليه بالسجن ١٨ عامًا مع الأشغال الشاقة، نقلوه إلى سجن تدمر، ولم يعدْ من هناك.

(١٤)

كان أكثر ما يقلق أحمد هو انقطاع أخبار أمّ الإبر والشام عنه؛ إذ لم يكن يعرف عن أهله شيئًا، ؛ إلى أن رجع من الجنوب إلى عاليه مع ميسون التي أضحت زوجة له، وحينما ذهب إلى الجامعة اللبنانيّة، سلّموه بريدًا وصله من سوريا، وكانت رسالة من ثريّا أخبرته فيها أنّها خرجت من المعتقل، ولم يكن أحمد يعرف أنّها اعتقلت بالأصل، فقلق جدًّا عليها، وشرع يستقصي المعلومات عنها؛ حتّى وصلته رسالةً أخرى منها، بعد أن انتهت من فترة علاجها، وفقًا لما جاء بالرسالة، وأظهرت له رغبتها في زيارة لبنان بعد تمكّنها من إلغاء أمر ممانعة سفرها، كان حينذاك يستعدّ إلى التحرّك نحو مدينة طرابلس، فأرسل لها رسالةً يطلب منها التوجّه إلى طرابلس، بعدما يخبرها بمكان إقامته.

حان موعد قدومها، هيّأ أحمد نفسه، ثمّ انتظرها في كراج الشام بطرابلس بلهفة، وصلت وحيدةً، تعانقا طويلًا وضمّها إلى صدره، أحسّ بتغيّرات طرأت عليها عمّا كانت عليه، بكت بحرقة، وشاركها البكاء مما أثار اهتمام المارّة، ولكنّهما لم يكترثا لأحدٍ، قادها إلى بيته، وعرّفها بميسون التي أبدت غيرة منها، لا سيما حينما ظهر وعيّ ثريّا السياسيَّ المتميّز وسلوكها الاجتماعيّ المتحضّر الذي اكتسبته من دروب اختلاطها بمجتمع مدينة دمشق الذي يحمل طابعًا مدنيًّا أصيلًا، ولكنّها أخفت غيرتها، حينما بدت ثريّا مرعوبة ،مما حدث لمدينة حماه السوريّة من تدمير ولأهلها من موت واعتقال وتشريد واغتصاب ونهب وتغييب.

ثمّ أخرجت بحثًا مطوّلًا تناولت فيه واقع سوريا في ظلّ أعتى ديكتاتورية تقوم على توريط أبناء طائفة العلويين بالعداء لبقيّة مكونات المجتمع السوريّ؛ معتمدةً في إعداده على معلومات أمنيّة؛ حصلت عليها من بعض أقاربها، ومن أوساط عملها في اتحاد نقابات العمال وحزب الجبهة الشيوعيّ.

ذكرت ثريّا في بحثها وقائع الأحداث الداخليّة في سوريا، وفنّدت بالأرقام الموثّقة والشهادات الحيّة حجم موت الآدميين الكبير والدمار الذي طغى على مدن حلب وحماه وحمص واللاذقية وريف دمشق ودرعا... إلخ، ووصفت، بدقة، اغتيال يوسف عبيد الذي عارض تسليح انتفاضة الشعب السوريّ، وذكرت الذيب بن شطمة الذي نفّذ عمليّة اغتياله، وذكرت كيف قاد مضر الدغري ورفاقه إلى الإعدام، ثمّ تخوّفت على مصير طائفة العلويين ووجودها؛ نتيجة إسهام كثير من أبنائها في الجرائم التي ارتكبت بحقّ الشعب السوريّ إلى جانب أقليات أخرى مناصرة السلطة، وذكرت مذبحة سجن تدمر؛ إذ اختاروا منفذيّها من طائفة محدّدة، وفنّدت سياسة استقواء النظام السوري بالخارج تناغمًا مع السياسات الإسرائيلية والإقليمية والدوليّة وحماية للانعزاليين الموارنة بمواجهة وحدة الدم اللبنانيّ الفلسطينيّ، وأشارت إلى تحالف النظام السوريّ مع إيران ضد العراق وإسهامه في إضعاف دوره الإقليميّ، ثمّ ذكرت في بحثها مواءمة موقف النظام السوري مع وحشيّة الإسرائيليين؛ لاجتثاث المقاومة الفلسطينيّة في لبنان، وفي عزل مصر عن المحيط العربيّ والإسلاميّ، ثمّ ذكرت حالات اعتقال أجهزة المخابرات الملايين من السوريين والفلسطينيين واللبنانيين أو تشريدهم أو تغييبهم وسرقة ممتلكاتهم، وأبشعها تدمير الجيش السوري مدينة حماه التي عُتِّم على فظائعها إعلاميًّا مقايضة على اجتياح إسرائيل لبنان وحصار بيروت وإخراج المقاومة الفلسطينية منها.

سلّمت ثريّا البحث لأحمد مكتوبًا على آلة كاتبة وموقَّعًا باسم ثريّا السوريّة، وطلبت منه إرشادها لنشره، لم تقبل مجلات لبنان ودور نشرها وصحفها نشره؛ لرعبهم من المخابرات السورية التي كانت مهيمنة مع جيش النظام السوريّ على كلّ شيء في لبنان.

بقيت ثريا بضيافة أحمد وميسون ثلاثة أيام، ثم أودعت لديه نسخة من بحثها راجية، أن يسعى إلى نشره، وأخفت أخرى في حقيبتها، وأعادتها معها

إلى سوريا، ثمّ ودّعتهم، ورجعت؛ لعدم قدرتها على التغيّب أكثر عن ابنها الذي تركته برعاية أمها.

***

على الرغم من ابتعاد أحمد وميسون عن أعين أهلها فقد بقيا في حالة رعبٍ؛ إذ يشكّل اكتشاف حقيقة هوية أحمد السنيّة فضيحة يوليها الدروز أهميّة كبيرة، قد تصل عقوبتها إلى جريمة قتل، كما حدث مع طرابلسيّ سنّي تزوج من درزيّة على غير رغبة أهلها، فاستدرجها أقرباؤها بالخديعة والحيلة لمصالحتها، ولحظة وصولها مع زوجها إلى قريتها، اختطف مجهولون الطرابلسيّ، وقطعوا عضوه التناسليّ، وأنقِذ من بين أيديهم بالصدفة المحضة، ثمّ اختفت زوجته، ولم يتمكّن أحد من معرفة مصيرها؛ لأنهم قتلوها وأخفوا جثتها غالبًا، كان أحمد يرتعد خوفًا من تلك القصّة الواقعية والحقيقية!

اهتمّ شباب شيوعيّون بهما بطرابلس، وحاولوا مساعدتهم، لكنّ أحمد لم يستجب لهم، تحت وطأة ما يسمعه عن جرائم الشرف لدى الدروز، ورابطًا بين تقوّلات وكلام جماعة حزب جنبلاط الدرزي عنهم، والعار الذي قد يلحقه؛ نتيجة صلته معهم، فأحمد ليس إلّا نتاج بيئة غوطة دمشق الفلاحيّة التي يولي أهلها الذكورة الفحوليّة أهميّة على حساب كلّ من هو ليس فحلًا بالمعنى الجنسيّ السوقيّ للكلمة؛ حتّى التقى مع شباب فلسطينيين، فطلب منهم مساعدته، واشتغل معهم بمركز للدراسات الثقافية؛ مما أتاح له الاطلاع على كثير من الكتب والإفادة من الباحثين الذين كانوا يأمّون المركز، كما أنّ ميسون استقرّت في الشقّة التي استأجراها؛ استعدادًا لولادتها الوشيكة، وبعد أن ولدت ميسون ابنتهما، التي أسمياها سلمى، أصبح أحمد سعيدًا جدًا بها التي احتفل بقدومها كلُّ من كان يزورهم في طرابلس، ثمّ بدأت تنمو في شخصيته سمات الأبوة.

كبرت سلمى، وازدادت حيويّة وجمالًا برعاية أبويها وسيدة طرابلسية

جليلة في أثناء غيابهما؛ إذ اشتغلت ميسون أيضًا في مكتبة قريبة من مكان عمله، فطوّرت نفسها بقراءتها المتواصلة، إلى أن صار لسلمى من العمر نحو سنتين، فكّر أحمد بالرجوع إلى سوريا، وقال لميسون مظهرًا حنينًا:

- هناك، نسجّل زواجنا رسميًّا فدخولك دين الإسلام سهلٌ في مثل حالتنا، أمّا أن أصبح درزيًّا فهو محرّمٌ، ثمّ نسجّل سلمى في دائرة النفوس، ونستطيع الإقامة مع أهلي في الدار الكبيرة، ريثما أتمكّن من شراء بيت أو بنائه، قال أحمد لميسون راجيًّا حياة أكثر كرامة مما هم به.
- ومن أين لك النقود؟ ردّت عليه مستنكرةً.
- من إرثي، أنت تعرفين أنّ والدي كان فلاحًا ومن ملّاكي أم الإبر، ثمّ أخبرها أنّ الأراضي المملوكة لأسرته قد ارتفعت أسعارها كثيرًا بعد الهجرة التي توجّهت نحو دمشق وريفها من أرياف الساحل والجنوب ومنطقة الجزيرة السورية.

لم تمانع ميسون مرافقته بالعودة إلى سوريا، وأظهرت له رغبتها في أن تبني أسرة بعيدًا عن صخب الشباب والسياسة، فقال لها أحمد معترضًا:

- إياكِ أن يكون عندك نوايا بإنجاب أطفال غير سلمى!
- لماذا؟ لا يوجد أحلى من الأولاد، انظر إلى سلمى، ما أحلاها! ردّت ميسون وضحكت.
- صحيح، لكني لا أستطيع تحمّل مسؤولية أكثر من سلمى، لو أنّها لم تأت لما فكرت بالعودة وشراء بيت.
- .....

صمتت ميسون، وحلمت بمعيشة ماديّة رفيعة، ثمّ عبّرت عن توقها للعيش في سوريا سريعًا، وطلبت منه الإسراع في زيارة أهلها بعاليه على جبل لبنان قبل رحيلهما.

(١٥)

رجعت ثريّا إلى دمشق الشام، وعادت لتعيش حياتها المعتادة مع أمّها، فأحوال أسرتها الماديّة كافيّة كي تهتمّا بنفسيهما وبابنها ماهر، ولكنّ اعتقالها التعسّفيّ أثّر في نفسيتها كثيرًا، على الرغم من أنّها لم تمكث في سجنها أكثر من ثلاثة شهور، لكنّها كانت كافيّة لتنضح أحقادًا على نظام الفساد والقهر، وعلى طائفتها؛ إذ كانت تتذكّر أنّ أكثر من آذاها في سجنها هم الضباط والجلّادون العلويون.

ومن جملة من كانت ثريّا تلتقيهم في مقهى القنديل حمود، وكانت تعرف أنّ طفولته لم تكن طبيعيّة، فهو ابن الزواج المختلط، أبوه درزيّ متزوّج من عمّة أحمد السنيّة، فانتبذ حمود مع أخوته من الطائفتين، وزاد في بؤس الأسرة ظروف ربّها الماديّة المتردّية، فهو نجّار متنقّل لا يلتزم بمواعيده، وعرف عنه أنّه كذّاب، فقلّ عمله وضعف، إضافة إلى إهانته امرأته والاعتداء عليها بالضرب أمام أبنائها؛ مما أورث حمودًا شخصية مكتئبة ومهزوزة، وكان يزداد كآبة، كلما قارن ظروف حياته بظروف أحمد ونشأته في أسرة اكتسب الودّ والاحترام بين أفرادها، على الرغم من تمرّده على قيم الجماعة وتقاليدها.

وكانت ناديا قطريّ تزور رئيس اتحاد نقابات العمال، بصفتها عشيقة له، وكان حمود يرافقها، وفي يوم من الأيّام زار مكتب ثُريّا في الاتحاد؛ فسألته عن أحواله، وعن أسباب تأخّره في دراسته وعن تعثّر تخرّجه في كليّة الحقوق؛ إذ كان في عمرها نفسه تقريبًا، وكانت قد تخرّجت منذ سنوات عديدة في كليّة آداب جامعة دمشق، فقال لها يائسًا:

- ظروف أهلي لم تسمح بإكمال الدراسة، فاضطررت للعمل عند الخياط أديب قطري، وهو من شجعني على إكمال دراستي.

أثنت ثريّا على همّته، وشجّعته، ثمّ تعمّد حمود مديح أحمد أمامها باعتباره قريبه وصديقه المقرّب، فاستحبّت ثريّا منه ذلك، وقرّبته منها أكثر وأكثر، وحينما اشتكى لها صديقتها ناديا ومعاملتها المتعاليّة عليه، وعدته أن تصلح الأمر معها.

بعد أيام جلست ثريا وناديا ومعها أختها الصغرى حول طاولة في مقهى القنديل، وانزوى حمود بالقرب من بابه، ابتسمت ثريّا في وجهه ودعته للجلوس معهم بعد أن استأذنت ناديا:

- كأنك خجلان أستاذ حمود، تفضلّ اجلس معنا، وجّهت ثريا دعوتها لحمود.
- لا... لا أعرف إذا كانت الأستاذة ناديا تحتاج إلى شيء منّي، أجاب حمود متوجسًا.
- لا أحتاج أيّ شيءٍ، ردّت ناديا باحتقار.

كان محور حديث تلك الجلسة أحمد وأخباره، على الرغم من أنّ ثريّا، كانت تعرف بعضًا من أخباره بعد زيارتها الخفيّة له في طرابلس لبنان ورسائلهما القليلة المتبادلة، لكنّها كتمت فرحتها، حينما ذكر حمود أنّه سمع عن نيّة أحمد بالرجوع من لبنان، ولم تكن تعلم بنيّته فعلًا.

لم تكن ناديا مرتاحةً؛ إذ كانت لا تثق بحمود، فطلبت منه الخروج؛ ليجلب لها علبة سجائر من الخارج، وبعد مغادرته مكسورًا، صارحت ثريّا:

- والله يا ثريّا ما استطعت أن أثق بهذا الشخص، وعلى الرغم من أنّ أبي يمنحه كامل الثقة، فإنني أشعر أنّ شخصيته مفعمة بالعدوانيّة تجاه كلّ من هو محيط به.
- اصبري قليلًا ناديا خانم، يبدو أنه طيب ومن أسرة بائسة، لكن أنت تتطلعين نحو القمم هذه الأيام، ردّت ثريّا.

- لا والله يا ثريّا، لعن الله أبو القمم الذين تقصدينهم، كلّهم حراميّة ومجرمين وأولاد عرصات، لكن ليس باليد حيلة، حاكمك لاكمك مثلما يقولون؛ وأصارحك أنني حاولت أن أمنع حمود من مرافقتي فعرف رئيس الاتحاد، وطلب مني أن أستبقيه. أجابتها ناديا متأفّفة.
- من الممكن أن يكون رئيس الاتحاد قد خصّه بمرافقتك؛ خوفًا عليك.
- لا والله يا ثريّا، نظراته الذئبية تقول غير ذلك، هيئته تدلّ على نذالة ودناءة، يا خوفي وفزعي يكون مخبرًا.

رجع حمود وناول ناديا علبة السجائر، أمرته بالجلوس، وصمتت عن الكلام، ثمّ تحدّثوا بالسياسة، دافع حمود عن حزب الجبهة الشيوعيّ، وأخبرهم أنّه أمين لجنة فرع الحزب في أمّ الإبر، الذي ترتبط به ثريّا بعلاقة تقيها ملاحقة المخابرات واعتقالها كما حدث معها سابقًا، ثمّ انفضّ اللقاء حينما رغبت ناديا في إنهاء الجلسة، وغادروا المقهى.

***

في اليوم التالي ذهب حمود بمفرده إلى مكتب ثريّا في مقر الاتحاد، وبعد أن سمحت له بالجلوس، طلبت من عامل الحجابة أن يسأله، عما يريده من ضيافة فطلب الشايّ، وطلبت لنفسها قهوتها المعتادة، قال لها:

- لا أعرف يا آنسة، من البارحة وأنا أفكر في لقائك، كنت محرجًا من المجيء إلى مكتبك، لكنّني لم أستطع منع رجليّ اللتين قادتني إليك.
- أهلًا وسهلًا يا حمود، منزلتك مثل منزلة ابن خالك أحمد.
- والله يا آنسة ثريا قلبي اشتاق إليك، ولم أستطع نسيان ابتسامتك الجميلة، ردّ حمود متوجّسًا منها.
- الله يخليك، كلك ذوق يا حمود، أجابته ثريّا بودّ.

بعد أن شرب الشاي؛ استأذنها من أجل زيارتها في بيتها، فسألته عن مراده، قال لها:

- اشتقت إلى أن ألتقي بابنك ماهر، اللّه يخليه لكِ، وأحبّ أن أتعرّف أكثر إلى بيتكم الشريف الذي أنجبك.

شكرته، واعتذرت عن استقباله في بيتها، وواعدته مساءً في مقهى القنديل.

في المساء دخل إلى المقهى، وجال فيه مبصبصًا بين طاولاته، ولم يقع بصره على ثريّا، خرج ووقف خارجًا منتظرًا قدومها مظهرًا قلقًا معبّرًا عنه بقضم أظافر أصابع يديه بأسنانه، أو بسؤال المارّة عن الساعة بشكل هستيريّ، وحينما وصلت ثريّا انفرجت أسارير وجهه، وضحك بصوت عالٍ فاتحًا فمه كاشفًا عن أسنانه المنخورة، فقالت له:

- كأنّك قلق يا حمود، انتظرت كثيرًا؟
- صار لي أكثر من ساعة، أجاب حمود، وقد ازدادت أساريره انفراجًا.
- ولماذا جئت مبكرًا؟ أنا واعدتك على السابعة والنصف.
- أعرف، ولكني لم أنتبه إلى الساعة رفيقة ثريا، فردّت عليه مؤنّبةً:
- عليك الالتزام بأوقات مواعيدك يا حمود، فالمثل الفرنسيّ يقول: من يأتي متأخّرًا عن موعده لا يحترم مواعده، ومن يصل مبكرًا لا يحترم نفسه، فقط الذي يلتزم بميعاده يحترم نفسه ويحترم الآخرين ويحترمه الآخرون.
- معك حقّ رفيقة، أجاب حمود ضاحكًا .

جالسته في زاويتها المعتادة، وسألته عن أحواله، فأجاب وهو يلعن حظّه في هذه الدنيا، وسرعان ما انتقلت بسؤالها عن أحمد، وشعرت أنّه يحاول التهرّب من أسئلتها عنه، وبعد أن فتح حمود حديث السياسة، انتقدت مهادنة قيادة حزبه المتوافقة مع طائفية السلطة وقهرها وإفقارها الناس، واتّهمت

تلك القيادات بإذعانها للمخابرات والانغماس ببؤر الفساد المنتشرة، فأعلن موافقته التّامة على آرائها، ولم تتنبّه إلى معمعيته، على الرغم من أنّه ارتاب منها كونها علويّة، ثمّ اطمأنّت له، وأعطته منشورًا للفصيل الثوري، وطلبت منه قراءته في البيت مؤكدّة سريّة التنظيم، طالبة كتمان أمره على كلّ من يعرف، أخفاه تحت قميصه، وبعد أن صمتت قليلًا، اغتنم الفرصة، وسألها إن كانت مرتبطة بأحد من الرجال، فأكّدت له أنّها غير مرتبطة بأيّ رجل، واستأنفت:

- زوجي السابق كرّهني في الرجال كلّهم، ألا تذكر حينما كتب تقريرًا عن علاقتك بي، كيف استدعوك؟ ذاك الموقف جعلني أطلّقه.

كان حمود لا يعلم عن سبب استدعائه، قبل سنوات، شيئًا، حين سمع، استغرب الأمر، وأبدى ارتياحًا أكثر، وتجرأ على مخاطبتها:

- واللّه، ما كنت أعرف سبب التحقيق معي، لولا الذيب يومها، اللّه يعلم ماذا كانوا فعلوه بي، على كلٍّ ليس كلّ الرجال سيئين رفيقة ثريا.
- .....

بعد أن تحدّث عن شعوره بالوحدة، وشرح مأساته مع الفقر وواقع أهله البائس، ونبذ أهل أبيه له ولأخوته، تحدّث عن عصاميته التي مكّنته من شراء بيت صغير في أمّ الإبر بمساعدة أمّه، وعن طموحه بأن يكون محاميًّا عن حقوق العمال والفقراء.

لم تقاطعه ثريّا، شعرت بضرورة منحه فرصة للتعبير عن مكنونات نفسه؛ حتى يتخلّص من قلقه وتوتره، بعد استرساله بالحكي وبوحه عن معاناته، فاجأها إن كانت تقبله زوجًا لها، فلمعت على الفور في ذاكرتها لقائها الأول مع أحمد في احتفال عيد ميلاد الأمين العام للحزب، حينما قدّمه لها حمود، وتذكّرت أنّه كان معترضًا على علاقتهما، ثمّ استغربت طلبه قائلةً:

- يا حمود، من زمن بعيد، وأنت تفكر بالارتباط معي؟
- أي والله، منذ اليوم الأوّل الذي تعرّفت فيه إليك، وأنا أفكّر فيك.
- لكنك تعرف أنني كنت على علاقة مع ابن عمتك أحمد!
- أعرف، ولكنّه سافر، وتركك وتزوج في لبنان، وصار عنده عائلة، وأخبرنا أنّه لن يرجع.
- يعني أنت لا تمانع أن تكون زوجتك على علاقة سابقة مع رجال آخرين؟
- أنا يعنيني الحاضر والمستقبل، المهمُّ أن يكون الاحترام والحبّ موجودين بين الزوجين، حينها لا يبقى للماضي أهمية.

صارحته بشكل أكثر وضوحًا، وحذّرته من أنّه هو من أخبرها برجوع أحمد الوشيك، وهيّ تحمل بقلبها حبًّا له، وحذّرته من غيرته المحتملة، لا سيّما حين يعود أحمد؛ ولكنّه كان يزداد تمسّكه بها، ولم يسمح لنفسه التفكير بالغيرة، أو بمغايرة ثريّا لطائفته، أو بتواضع إمكاناته المادية والثقافية أمام إمكاناتها، بل استهان بعقول الرجال الشرقيين وأفكارهم وسلوكهم وتسلّطهم على المرأة طالبين منها العفاف، ثمّ السماح لأنفسهم بفعل الموبقات كلّها مستبيحين لأنفسهم نساء الآخرين.

طلبت ثريّا منه التفكير جيدًا، وواعدته بعد أسبوع في المكان نفسه، ولكنّه اعترض على هذه المدّة الطويلة، فقالت له:

- الزواج يا حمود ليس نزهة أو رحلة صوب البحر ليومين، الزواج هو مصير حياة للرجل والمرأة، والأكثر خطورةً هو حياة أبنائهما في المستقبل، أنا أريد أن ألتقي بك بعد أسبوع بوصفك صديقًا، وليس بوصفك حبيبًا أو زوجًا محتملًا. فردّ حمود واثقًا من نفسه:
- أعرف أن الزواج مسؤولية، لكن أنا فكرت كثيرًا في الزواج منك قبل أن أخبرك، وأخذت القرار، وأنا مقتنع به ١٠٠٪.

- على كلّ في الأسبوع القادم نكمل الحديث.

لم يسعه الوقت للاعتراض، فقد وقفت، وخرجت من المقهى، لحق بها نحو سيارتها الصغيرة، دعته للركوب وأوصلته إلى أقرب محطة حافلات، ونزل مفارقًا.

***

انتظر حمود الموعد مع ثريّا، وفي اليوم نفسه الذي حان فيه، ذهب منذ الصباح، اشترى حذاءً جديدًا، وقصّ شعر رأسه، ثم استحمّ وحلق ذقنه، وهذّب شاربه، وقبيل الموعد ارتدى أجمل ما عنده من لباس، ووقف أمام المرآة محادثًا نفسه:

- واللّه، أنت شخصية حلوة يا حمود، لو يفهمك الناس ما كانوا ليستهجنوك! وما كانوا قالوا عنك أنّك بشعٌ، لماذا أنت خائف، أن لا تقبل بك يا حمود، ثريّا مطلقة، وأنت عازب، واللّه يا حمود لا ينقصك شيءٌ، ثريّا قبلت بزمانها بالشرشرح أحمد! كيف لا تقبلك الآن؟ واللّه إنك وسيم وما فيك عيب، أنت يا حمود الذي يجب أن تقول: نعم أو لا، وليست هيّ...

نسيّ نفسه أمام المرآة، إلى أن انتبه، فغادر البيت نحو المقهى مستمرًّا بمحادثة نفسه طوال طريقه، كان يتحسّس شعره بين الفينة والأخرى أو يمسّد شاربه، ويبتسم لنفسه كلما لمح صورة وجهه معكوسة عن مرآة الحافلة مبديًّا إعجابه بشخصه وملامحه المليحة، محدّثًا نفسه:

- واللّه، إنّ الناس لا يفهمون يا حمود، لماذا يستبشعونك؟ لماذا يكرهونك وينكرونك؟ واللّه هم البشعون والمكروهون وعيونهم مرعبة وبشعة!... كان حمود يحادث نفسه بصمت، وكانت حركاته تدلّ على حالته النفسيّة، من دون أن ينتبه لنظرات الركّاب السّاخرة على حركاته المضحكة.

التقت ثريّا بحمود، تحاورا، واقتصدت في كلامها، كانت حريصة على عدم جرح كبريائه، ومع كثرة حكيه فقدت القدرة على تحمّل الجلوس معه وقتًا أطول، شربت قهوتها، ودَعَته إلى البيت، ولكن بعد أسبوع، وغادرت.

لم ينس حمود صورة ثريّا، انتظر كالواقف على جمر، غير مصدّق أنّ ثريّا واعدته في بيتها، فكّر أن يزورها في عملها قبل نهاية الأسبوع، وبعد أن وصل إلى باب اتحاد نقابات العمال الخارجي تراجع؛ حتّى لا يفسد علاقته معها.

انتهى الأسبوع، هيّأ علبة حلويات، ولعبة الشرطة والحرامية البلاستيكية لابنها ماهر، وارتدى طقمه الأسود وربط ربطة عنق زهرية اللون كان أخذها من الذيب ابن شطمة، وتوجّه نحو بيت ثريّا، حينما فتحت له الباب، تفاجأت من منظره؛ إذ يدلّ لباسه على قلّة ذوق، ولكنّها أخفت عنه انطباعها، وأدخلته إلى غرفة الاستقبال.

حكى لها ولأمّها عن نفسه وعن مواضيع عديدة باستثناء موضوع الزواج؛ إذ لم يتجرأ على المجاهرة به أمام أمّها، وبعد أن غادر، استشارت ثريّا أمّها بقبوله زوجًا، فحذّرتها الأمّ من بقائها وحيدة طوال العمر، ونصحتها بقبوله.

التقت ثريّا بناديا، وأخبرتها باعتزامها قبول حمود زوجًا؛ فرفضت ناديا الفكرة من أساسها لعدم التكافؤ بينهما، وحذّرتها من الارتباط به؛ لأسباب تتعلق بشخصيته المضطربة، ولكنّ ثريّا كانت مشدودة لأم الإبر، لسبب لم تدرك كامل كنهه، ربما كان من وحيّ علاقتها السابقة مع ابن خاله أحمد!

في أثناء شهر من تعارفهما اتفقا على الزواج، ثمّ أقاما عرسًا متواضعًا بحضور أصدقائهما من دون الأهل لاعتراض غالبيتهم العظمى على زواجهما، فهو درزيّ وأمّه سنيّة وثريّا علويّة، ثمّ زفّها إلى بيته الصغير في أم الإبر، وبعد مدّة وجيزة طلبت منه الانتقال معها للسكن مع أمّها في بيت أهلها الواسع في حي تشرين، فلم يمانع؛ بل فرح لأنّه أضحى بإمكانه تأجير بيته مفروشًا، إذ راجت إيجارات الشقق مفروشة في تلك الآونة في حيّ أم الإبر المجاور

لكازينوهات الليل، أمّا ماهر فقد راق له حمود، وصارا يذهبان معًا، كان حمود يلاعب ماهر في الحدائق، ويهتمّ به مراعيًّا مرضه الذي جعله متخلّفًا عن أبناء جيله، ثمّ صار يزور معه نادي الشبيبة الرياضيّ، ويقوم بتدريبه.

لم يكن مبتغى ثريّا الإنجاب من جديد، كانت تعبة من ولادتها الأولى، إلّا أنّ حمود، منذ البداءة، ألحّ عليها، واستعان بأمها لإقناعها، ولكنّها رفضت فكرة الإنجاب رفضًا قاطعًا؛ حتّى استطاع أن يخدعها ويستبدل علبة دواء منع الحمل بأخرى، من دون أن تنتبه، فحملت بغفلة منها، ولكنّها أجرت عملية إجهاض لجنينها، وأقصت حمود في غرفة أخرى؛ إذ كان يتحرّق شوقًا لمعاشرتها.

لم تخمّن ثريّا مقدار قذارة حمود الذي اختفى فجأة، بعد أشهر من زواجهما، فقد توارى عن الأنظار، بعد ما اغتصب ابنة الخياط أديب قطري، الذي تبناه وعلّمه واستأمنه على بيته، اختفى عن الأعين في بستان أخواله، وصار يتهرّب من مواجهة زوجته ثريّا التي تمكّنت، أخيرًا، من معرفة مكمنه، فتوجّهت إليه، وجرّته إلى مكتب محامٍ، وأجبرته على إقراره بقبول الطلاق، وأخرجته من حياتها.

obeikandl.com

(١٣)

ذهب أحمد وميسون وسلمى إلى جبل لبنان؛ لوداع أهلها، وبقوا هناك نحو الشهر، راجع أحمد في أثنائه قسم الفلسفة في الجامعة اللبنانيّة، واستلم وثيقة تخرّجه، وودّع أساتذته ورفاقه من الذين لم يغادروا لبنان أو يهجّروا، ومن عاليه عادت الأسرة الصغيرة إلى طرابلس، ولم يمضِ عليهم بضعة أشهر قليلة؛ حتّى جهّزا أمورهما، بعد أن تلقيّا دعوة من أصدقائهما إلى سهرة عامرة في مقهى الخيرات على شاطيء البحر، وحفلة أخرى في مركز الدراسات الثقافيّة الفلسطينيّ، الذي كان يعمل به أحمد، ثم أقاما مأدبة عشاء في مطعم رويال وسط طرابلس لكلّ أصدقائهما؛ عرفانًا لهم بالجميل، وشرعوا بحزم حقائبهم وأمتعتهم؛ استعدادًا للعودة، وفي صبيحة يوم كئيب توجّها مع سلمى إلى كراجات الشام في طرابلس، وارتحلوا إلى دمشق.

استقلّوا سيارة أجرة من قرب محطة سيارات لبنان والأردن الموحّد في البرامكة بدمشق، وتوجّهت بهم إلى منزل أهله في حيّ أم الإبر، هناك استقبله إخوته وأخواته بحفاوة ودموع الفرح، وأكثر ما لفت انتباهه أخوه الأصغر عمر، الذي تركه طفلًا صغيرًا، فأحسّ به نسخّة جديدة من شخصيته، ولكن جيناته معدّلة، كما عبّر أحمد بذلك بعدما عانقه بحرارة، ثمّ ذهب إلى غرفة جدّته نعيمة التي كانت نائمة، اقترب منها، ولثم رأسها بقبلة، فاستيقظت، دمعت عيناها، وهنّأته برجوعه، ثم طلبت منه إحضار سليمان؛ لينقلها إلى غرفة المعيشة، أمّا أمّه فقد عبّرت عن عتبها ولومها له، وأظهرت حزنها حينما خاطبته:

- لماذا فعلت هذا يا أحمد، كيف هنت عليك وتركتني، لماذا لم تسأل عن إخواتك وأنت تعرف أنهم يتامى بعد موت أبيهم؟

- .....

بكت بحرقة، فاحتضنها وقبّلها، ووعدها ألاّ يتركها طوال عمره، ثمّ أبدت فرحها بابنته التي تشبهه، ضحكت لها وقبّلتها، ولكن سلمى تركتها وهربت إلى حضن أمّها، ثمّ قادها عمر إلى أرض الدار مُلاعِبًا لها، فرحت سلمى كثيرًا، كانت تركض أمام عمر، وهو يلحق بها في أرض الدار الواسعة، وكان يرفعها عاليًا، فتملأ فضاء الدار الكبيرة ضحكًا؛ حتّى تبتسم لها وريدات الدّار، وتشرع براعمها بالتفتّح، وتزقزق على أنغام فرحتُها عصافيرَ الدّار، إذ تطلّ من بين أغصان التوتة الشاميّة الهرمة التي تبتسم للحياة من جديد رغمًا عن أرواح مدفن الدّار المخيّمة ليلًا أسود فوق رءوس أهل الدار الكبيرة.

عرفت أمّ سليمان أن أصول ميسون سورية؛ فحمدت الله، ثمّ قالت:

- أنا لا أحبّ اللبنانيين؛ لأنّهم متكبّرون، ويظنّون أنفسهم أفضل من غيرهم.
- شكرًا يا خالة، بالفعل، نحن عانينا كثيرًا منهم، أجابتها ميسون بلهجة لبنانيّة.
- ولماذا تتكلمين بلهجتهم، غدًا تصبحين مثلهم، وتتطبعين بطباعهم، لأن لغة ابن آدم هي شخصيته، وهي التي تحدّد سلوكه، فردّ أحمد هازئًا:
- الله يا أمي، تتحدثين مثل أساتذة اللغة الكبار، أين كنت تخبئين هذه الأفكار؟ فردّت أمّه عليه لائمةً:
- يا أحمد من يوم يومك، وأنت تحكي كلامًا أكبر منك، لو أنك فتحت أذنيك لنصائحي لكان وضعك مختلفًا عما أنت عليه اليوم.
- .....، ثم قال أخوه سليمان:
- الآن، أصبحتم كلكم فلاسفة، قوموا رتبوا قاعة أحمد، من دون كثرة

حكي، وفذلكة، وأنا ذاهب إلى جدّتي نعيمة؛ كي أنقلها لتسهر معنا.

خصَّصت الأسرة لأحمد وزوجه وابنته القاعة الكبيرة بجانب الليوان، مقابل قاعة الجدّة نعيمة، فُرشت على عجل، وسرعان ما اعتادت أسرته الصغيرة على الحياة في الدار العربيّة، إيوانها في صدر الدار يشرح الصدور في سهرات الأهل، وباحتها واسعة، وأشجارها تمنح الحياة على الرغم من أنّها سبب لتراكم الأوساخ في جنباتها، جوٌّ من الإلفة بين عائلات يقطنَّ غرفًا كثيرة تنفتح نحو أرض الدّار، وتستخدم نساء الدّار مطبخًا مشتركًا واسعًا، وحمامات مشتركة، وإذ تنغلق جدران الدّار على كلّ ما هو خارجيٌّ، فإنّ كلّ نوافذها وفتحات جدرانها تطلّ نحو حميمية العلاقات الأسرية، أكثر ما كان يزعج أهل الدار هو مدفنها الذي شيّدوه لهم في قاعة المونة الشرقيّة، فاحتاروا بتخزين مونتهم، وأعمت بصائرتم روائح جثامينه التي تزكم الأنوف.

***

تمكّن أحمد في أثناء تلك الفترة من استعادة علاقاته الاجتماعيّة القديمة من جديد في أمّ الإبر، ثمّ زار بيت أستاذ الرياضيات منذر وسأل عنه، فعرف أنّه مغيّب في المعتقل منذ سنوات عديدة ولا أحد يعرف عنه شيئًا، ثمّ تقصّى أخبار أستاذ التربية الإسلاميّة محمد سعيد، فعرف أنهم أعدموه منذ سنوات.

بعد بضعة أيام استغرب أحمد تزايد وجود حمود بين البستان والدّار الكبيرة، فسأل عن سبب وجوده، وعرف من أهله أنّه على خلافٍ مع أبيه، وهو مضطر للإقامة المؤقتة.

وبعد لقاء معه ألمح حمود لأحمد بمعرفته بالفصيل الثوريّ، الذي حرص أحمد على عدم البوح بأية معلومات عنه؛ خوفًا على ثريّا، التي كانت قد أخبرته عن اهتمامها بعشرات من الشباب؛ من أجل ديمومته بشكل سريٍّ، حاول أن يعرف من حمود عن مصدر معلوماته، فتكتّم حمود، ثمّ استشفّ أحمد أنّه عرفه عن طريق ثريّا نفسها.

في صباح اليوم التالي توجّه أحمد إلى مكتب ثريا في مقر اتحاد نقابات العمال، فاجأها بحضوره، فانبلجت الدموع من عينيها في اللحظة التي دخل فيها إلى المكتب، ولم تستطع أن توقف انهمار دموع فرحها؛ احتفالًا بلقاء صديقها الأول من جديد، عانقها وضمّها إلى صدره، ثمّ انتزعت نفسها منه، واتّجهت نحو باب المكتب، وأحكمت قفله من الداخل، وارتمت في أحضانه هامسة في أذنه:

- أين تركتني يا شقيّ، لماذا تركتني؟
- والله اشتقت لك يا ثريّا، اشتقت إلى كلّ لحظة عشتها معك، أجابها أحمد صادقًا.

– آه يا كذّاب، لو اشتقت لي، لذكرتني، تركت كل شيء ولحقت بك، لكنك رُزقت بأولاد، أعانك الله! كيف رجعت؟ قالوا لي: إنّك لا تريد العودة! قالت له ثريا متعجّبة.

- ومن قال لك: إنّي نسيتك، وإنّي لا أريد العودة إلى وطن، أنت أجمل ما فيه؟
- قريبك، النذل حمود، بعد ما نقل لي خبر عودتك، أكّد لي مرّة ثانيّة أنّك تراجعت عن قرار عودتك، ذكرت ثريّا اسم حمود باستياء، فأجابها أحمد:
- العمى، هذا فعلًا نذل، جاء لزيارتي أمس، وحدّثني عن الفصيل الثوري، أخفيت معرفتي به؛ خوفًا عليك منه، هذا لا يتورّع عن بيع شرفه مقابل مصلحته.
- من الكيّس أنّك لم تبح له بشيء، هل تعرف أنني كنت زوجة له؟
- لا والله! البارحة زارني، وما أخبرني بشيء، احكِ لي ماذا حدث في غيابي، ولماذا لم تُخبريني، يا ثريّا، قبل إقدامك على الزواج منه.

- لو أخبرتك فإنني أعرف أنّك ستغيّر رأيي، لأرفضه، لذلك قلت لنفسي لأجرّب حظّي معه.

ثمّ شرعت ثريا في إخبار أحمد قصة زواجها من حمود لفترة وجيزة، واعتدائه على ابنة معلمه الخياط، وأنّ معلّمه لم يشأ أن يزيد فضيحة ابنته، ففضّل عدم تقديم شكوى بحقّه.

صمت أحمد، وشعر بالخزيّ والعار، نكس رأسه مطوّلًا، ورجاها قائلًا:

- فيما بعد تخبريني، يا ثريّا، عن التفاصيل؛ لأنني أعرف نذالته ووقاحته.

***

حصلت ثريّا على إذن من شغلها، وغادرا مكتبها، فضّل أحمد أن يذهبا بداءة إلى مقهى الأصدقاء الذي جمعهما باللقاء الأول، وبعد أن جلسا على الطاولة نفسها التي جلسا عليها أول مرّة، طلبا القهوة، ثمّ قبّل رأسها وضمّها نحو صدره، فأغمضت عينيها، واستكانت له، فهمس بإذنها عبارات ودّ، وسألها عن أمها وابنها، ثمّ عرف أنّ أهل قريتها يعادونها، ويهدّدونها بالقتل إذا ما استمرّت بفضحها النظام الحاكم.

تلفّت أحمد نحو طاولات الكهول في المقهى، واستعاد المشهد نفسه الذي تركه منذ بضع سنوات؛ عشّاق يائسون، تشي حركاتهم بقدر كبير من المخاتلة، لم يتغيّر شيءٌ، زبائن الأمس هم أنفسهم زبائن اليوم، تغيّرت بعض ملامح الوجوه فقط، غادر المقهى من غادره، وجاءه زبائن جدد، ولكنّ حركاتِهم لا تزال هي نفسها التي خبرها، حينما انفتحت له أبواب الجنّة مع ثريّا بعد الاحتفال بعيد ميلاد الأمين العام، ويوم وفاة أبيه رحمه الله.

دعا أحمد ثريّا لإلقاء نظرة إلى الطاولات، ثمّ سألها:

- هل تغيّر شيئًا بالنسبة إليك يا ثريّا منذ زيارتنا السابقة؟ ثمّ استدرك ممازحًا:

- أم أنت زرتيه بعد زيارتنا الأولى المجيدة؟ فدفعته عنها وأجابته:
- اللّه يلعنك يا أحمد، دائمًا نواياك سيئة تجاهي، اعتذر ضاحكًا وقال لها:
- ابتسمي يا عيوني يا ثريّا، ابتسمي الآن، أيامنا القادمة ستكون نكدًا وجريمة وموتًا.

ثمّ حكى أحمد لثريّا عن مآسيه في لبنان، وعن زواجه الذي ثبت؛ نتيجة حمل ميسون، والتأخّر بإجراء عملية إجهاض للجنين، وبحسّ الأنثى الجموح، كانت ثريّا تطفيء اشتعال لهيب شوقها لأيام الصبا معه، ثمّ طلبت منه مرافقتها إلى بيتها للقاء أمها وابنها ماهر اللذين ينتظرانها لتناول طعام الغداء.

في سيّارتها سألها عن حمود، ففصّلت عن خيانته معلمه الخياط أديب وقيامه باغتصاب ابنته صاحبة الخمسة عشر ربيعًا بغفلة عن أعين أهلها، وهي تستحمّ وحيدة في بيتهم، بعد ما أحضر أشياء البيت التي أرسلها معه أبوها الخيّاط أديب، واعتذرت متأسّفةً؛ لأنّها كانت زوجة له، حينما قام بفعلته المشينة.

حكت عن قصتها معه، وكيف تزوجته بعد أن طلّقت زوجها السابق؛ نتيجة تيقّنها من صلاته الأمنيّة، ثمّ ختمت عن كيفية عثورها عليه بعد هروبه وإجباره على الطلاق، نكّس أحمد رأسه نحو الأرض مجدّدًا، ولم يستطع أن يرفعه، إلّا لحظة وصولهما إلى البيت، قدّم العزاء لأمّ ثريا في زوجها، ثمّ تناول الطعام معهم، وبعد ذلك انفردت ثريّا معه في غرفتها الخاصّة، وتحادثا عن ضرورة تنشيط تنظيم الفصيل الثوريّ الذي جمعهما في جامعة دمشق مع زملاء لهما.

***

زار حمود أحمد للمرة الثانية في الدار الكبيرة، وأخبره أنّه كان زوجًا لثريا، ولكنّه طلّقها؛ لعدم انسجامه مع سلوكها المتحرّر وسلوك أبناء طائفتها الذين يشتغلون في الجيش والمخابرات، لم يعلّق أحمد؛ وقف وسحبه من ياقة قميصه وطرده خارجًا، وطلب منه عدم زيارته مجددًا، لأنّ ثريا أخبرته عن سلوكه المشين وعن طلاقها له، قائلًا له:

- واللّه يا حمود إذا عرفت أنك تقترب من الدار لأجعلنك تندم أيّها الأحمق.

ظلّ أحمد يلتقي ثريّا خفيّة، وكانا يشتغلان على إحياء تنظيم الفصيل الثوريّ، واقتضى عملهما أن يتّصف بالدقّة والسريّة، نجحا في إعادة لحمة التنظيم في محافظات عدّة، ثمّ عقدوا مؤتمرًا مصغّرًا في منزل أحمد، ووضعوا خطّة سنويّة، ولكن حدث ما لم يكن متوقّعًا؛ إذ سمع أحمد بأسماء شهداء هاجموا مقرّ إذاعة صوت الأمل التابعة لجيش أنطوان لحد في الجنوب اللبنانيّ ودمّروه، وعدّ المحلّلون العملية، يومئذٍ، طعنة لإسرائيل، وقد عرف أحمد اثنين من منفذي الهجوم، ميشال الصليبي وحسام حجازي، وهما من رجال المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة اللذين أسهما بمقارعة الإسرائيليين في الجنوب، تأثّر كثيرًا، وصار يبكي وحيدًا بصمت، كلّما خطرا على باله، ثم عزل نفسه، وامتنع عن مقابلة أحد، سيطرت عليه حالةٌ من الاكتئاب مترافقةً مع آلام حادة في معدته، خرج بعد بضعة أيام من عزلته مقرّرًا العودة إلى الجنوب اللبنانيّ من دون زوجته وابنته، حاول أهله وأصدقاؤه أن يثنوه عن ذلك، ولكنّه أصرّ وشرع في تهيئة نفسه، إلّا أنّ شعوره بدوّارٍ وغثيان اضطراه لدخول المستشفى، فعرف عودة النزيف الداخليّ لمعدته؛ مما أخّره عن السفر.

بعد خروجه من المستشفى، تدبّر أمر مصروفه، وأعطى ميسون مبلغًا كان قد اقترضه من أخواته وجدّته نعيمة، وسافر إلى لبنان، أوقفوه على الحدود؛ بسبب تخلّفه عن الجيش، وأعادوه مكبّلًا إلى الشرطة العسكريّة، وبعد يومين رجع إلى البيت وورقة التكليف للخدمة العسكرية بحوزته.

التحق أحمد بكلية عسكرية في الشمال السوريّ، وخضع فيها لدورة عسكرية، كانت أشبه بمعسكرات الاعتقال النازيّة، لم يتمكّن في أثناء تلك الفترة من معاشرة أهله سوى في إجازات قصيرة وقليلة، ثم فُرِز إلى قطعة عسكرية بعيدة عن بيته، كانت الإجازات التي يحصل عليها شحيحة أيضًا، وتحتاج إلى رشوة للضباط.

***

في آخر إجازة له أخبرته ميسون أنها حاملٌ، فأصابه الهمّ والحزن؛ لأنّ ظروفهما لا تسمح باستقبال مولود جديد، حاول أحمد تأمين المبلغ اللازم لإجراء عملية إجهاض، فلم ينجح، ثمّ همّ للاقتراض من أقرباء له وقبل خروجه من البيت، زاره أحد رفاقه من الذين كان مشاركًا معه في العمل السياسيّ أيام جامعة دمشق، وعرف منه أنّه عائد من مكتب عقاريّ لتشغيل الأموال بالفائدة، وقد استرجع مبلغًا مع فوائده للتو.

على الرغم، من أنّ هدف ذلك الرفيق التقدّميّ جدًا هو إخبار أحمد بتحسّن أحواله الماديّة، وأنّه صار بإمكانه مجاراته ماديًّا، بعد معاناته مع أهله بسبب الفقر الذي أودى به إلى الإقامة في بستان أهل أحمد أشهرًا أيام الجامعة، قبل سفر أحمد إلى لبنان، بعد أن طرده أبوه من البيت، إلّا أن أحمد وجد فيه ضالّته لحلّ أزمته الماليّة، فطلب منه أن يودع المبلغ لديه محتسبًا فوائده، وتمكّن من الاتفاق معه على أخذ مبلغ ٢٠٠٠٠ ليرة، وكتب على نفسه سندًا بضعف المبلغ، وعلى الرغم من أنّه كان يعرف أن رفيقه يرتشي من وظيفته في شركة النفط السورية، لكنّه لم يظهر له شيئًا، استلم أحمد المبلغ، وزال عنه الهمّ والقلق، فأقلّ من عُشر المبلغ كان كافيًّا لإجراء عملية إجهاض، والمتبقيّ يتدبّر به مع عائلته شؤون مصروفهم، ريثما ينتهي من الخدمة العسكريّة الإلزاميّة.

في اليوم التالي رافق ميسون إلى العيادة النسائيّة، واتفقا مع الطبيب على إجراء العملية بعد أن يلتحق بثكنته العسكرية، ويعود بالسرعة القصوى؛ إذ ممتلكًا المال اللازم لتدبير أمر رجعته السريعة.

همّ بالالتحاق بثكنته، لانتهاء مأذونيته، لكنّه بعد أن وصل إلى الطريق العام رجع وقرّر أن يتخلّف متوهمًا قدرته على تجاوز عقوبة تخلّفه برشوة الضباط بمبلغ مضاعف وآخر لشراء إجازة طويلة، ينهي فيها عملية الإجهاض للجنين، ويقف بجانب ميسون، ويرتاح في بيته بعيدًا عن قرف الجيش ومتاعبه.

obeikandl.com

(١٧)

تجاوز عُمْرُ ماهر السِّنَّ المطلوبة للتسجيل في المدرسة الابتدائيّة سنوات عديدة، مما أخّره عن بدء الدراسة، وكانت أمّه وجدته تعلمّانه ما فاته، كان يستوعب ببطء، ولكن سرعان ما كان ينسى ما تعلّمه، فأصرّت أمّه ثريّا جعله يتقدّم، وصار يعرف أساسيات القراءة والكتابة والحساب بالفعل، وحالما تحسّنت صحته، وصار شكله مناسبًا لمجتمع المدرسة، اهتمّت أمّه بحلاقة شعر رأسه ونظافته، وألبسته ثيابًا جديدة، وأخذته إلى مدرسة ابتدائيّة حكوميّة برفقة جدّته، سجّلوه في صفّ متقدّم على قدراته العقليّة والمعرفيّة، وكانت المشكلة الأولى هي: عدم مناسبة صفّه لعمره، فقد بدا أكبر عمرًا من طلّاب الصفّ وأضخم حجمًا بجسده، وظهرت عدوانيته منذ أيامه الأولى؛ حتّى صار الأساتذة يتعقبونه ويتبارون بعقابه في كلّ مرة يعتدي بها على زملائه، وكان ماهر يزداد شراسةً، كلما اشتدّت عليه العقوبات الجسديّة، ثمّ اُسْتُدعيّ وليّ أمره، أبوه؛ لمعالجة مشكلة ماهر، من دون طائل؛ فقد طلبوا منه إخراجه من المدرسة؛ لعدم إمكانهم الاستمرار بقبوله؛ لأنّه كان يشكّل خطرًا على التلامذة، فرفض الأب طلب المدير، وهدّده بإخراجه من مهنة التدريس، إذا كرّر محاولات طرد ابنه ماهر من المدرسة، ثمّ طلب من فرع الأمن الداخليّ الذي يعمل مخبرًا لمصلحته التوسّط لإبقاء ابنه بالمدرسة، وبقيّ ماهر بمدرسته أسابيع، ولكن سريعًا طُرِد منها، بعدما قذف أحد الأساتذة بحجر فأصاب عينه، فنظّموا ضبطًا بالواقعة لدى قسم الشرطة، واحتجز ريثما استلمه أبوه، ورافقه إلى البيت محمّلًا قرار فصله من مدارس سوريا كلّها.

ذهبت جدّته، بصفتها إداريّة في قطاع التربيّة، لتعيده إلى مدرسته بناء على قانون استيعاب أطفال المرحلة الابتدائيّة إلزاميًّا، الذي كان ساريًّا حينذاك، فقال المدير لها:

- أنت تربويّة معروفة، وتقدّرين ماذا يعني بقاء ماهر بين التلاميذ، هذا الولد لا ينفع للدراسة وعقله لا يستقبل العلم، سنّه أكبر من سنّ زملائه في الصفّ، كما أنّ بنيته قوية وعلامات الشراسة باديّة على سلوكه، ثمّ قدّم لها موافقة وزير التربية لطرده من المدرسة خلافًا لقانون الاستيعاب الإلزاميّ.

مكث ماهر في البيت مع استمرار أمّه بإعطائه أدويته، ولاحظت شراهته للأكل ونموَّ عضلاته المتسارع، حتّى صار يعتدي على أبناء الحارة مسبّبًا إحراجًا لها ولجدّته، ثمّ أدمى أحد الصبية من جيران أهل ثريّا؛ فأخذوه إلى قسم الشرطة عنوةً، واتصل الضابط المسؤول بأبيه، وحينما حضر، وجد بأنّ أبا الطفل من معارفه المقرّبين في الحزب، ولمّا تحادثا عن مشكلة ماهر، تنازل أبو الطفل المضروب عن حقوق ابنه، واتفقا على الصلح برعاية قسم الشرطة، ثمّ استأذنهم بأخذه إلى بيته، بعد أن كتب تعهدًا على نفسه برعاية ابنه ومراقبته وعدم تكرار حادثة الاعتداء.

***

حاول أبو ماهر أن يجد له عملًا، فأخذه إلى الأسواق الشعبيّة، وتوسّل له العمل بالتنظيف لدى محلات أو مكاتب معارفه، وكان يودعه لدى بعض المحلات؛ ليعمل، ولكنّه لا يكمل يوم عمل؛ إذ يتركه ويخرج هائمًا على وجهه، حتّى يصادف من يقوده إلى بيت أبيه أو أمّه.

بعد فشل أبيه في إيجاد عمل مناسب له، لم يستطع أن يتحمّل وجوده، لا سيّما أنّه يحمل رائحة كريهةً، تحتاج إلى استحمامه يوميًّا وتعطيره، وتعقيم فضاء البيت الذي يعيش بكنفه، مما اضطره إلى إعادته إلى أمّه، حاولت أمّه وجدّته أن يخضعاه لنظام تعليميّ مكثّف، وصارتا تتناوبان على تدريسه، وكان يستوعب، ولكن بصعوبة، ثمّ بدأ يخرج من البيت، ويحاول أن يتقرّب من أماكن وجود الأطفال الذين يلعبون، وسرعان ما كان يختلف معهم، ويفرّ أمامهم راكضًا، وهم يتبعونه مستهزئين به، ويرمونه بالحجارة.

حينما كان يلج باب الشقّة، كان يفرغ جام غضبه بأمّه وجدّته؛ حتّى صار يعتدي عليهما بالضرب، وصار يستكشف الممنوعات المحيطة به مع تقدّمه بالسنّ، فيتلصّص على جسد أمّه مثلًا، ثمّ لاحظت أنّه يبحث عن ملابسها الداخليّة في الحمّام، ويشتمّ رائحتها بغفلة عنها، فأجبرت الأب على أخذه ليعيش في كنفه.

كان أبوه يحاول منعه من الخروج، حتّى لا يتعرّض لأذى الآخرين، ولا يؤذيهم مسبّبًا له إحراجًا، فصار ماهر يقذفه بأبشع الشتائم، ويعتدي عليه بالضرب، ضاقت السبل مع أبي ماهر لمعالجة سلوك ابنه، إلى أن أخذه إلى مستشفى الأمراض العقليّة ليودعه فيها، ولكنّ الطبيب الذي كشف عن حالته، رفض إيداعه، محتجًّا أنّ حالته لا تستحقّ أن يعامل كمن فقد عقله.

رجع به إلى البيت، إلى أن تمكّن من أخذه إلى سوق الهال، وأودعه لدى محلّ يعرف صاحبه، فراق لماهر تحميل البضائع وتنزيلها؛ حتّى نمت عضلاته بسرعة.

تعرّف إلى الصبيّة الأشقياء في بيئة سوق الهال، وصار يتعارك معهم على الدوام، وبعد أقلّ من ثلاثة أشهر، تعلّم استخدام أسلحتهم، ثمّ أضحى الموس لا يفارق جيبه، يشهره على كلّ من يختلف معه؛ إلى أن تمكّن من صبيٍّ، وجرحه بيده جرحًا بليغًا، فاجتمع أولاد السوق عليه، وأشبعوه ضربًا، ثم طردوه خارج السوق، وصل ماهر مرهقًا إلى البيت، وأخبر أباه بما جرى معه، لم يستطع الأب فعل شيء لابنه ماهر، سوى أن ضمّد جراحه، وقبّله، ثم أقنعه بالاستحمام، وبقيّ يسايره، حتّى نام.

***

داوم ماهر الجلوس أمام التلفاز في بيت أبيه، لا يفارقه إلّا حين ذهابه إلى جنبات المطبخ؛ لِيُلتَهِمَ كلّ ما تقع عليه يديه؛ حتى أضحى بلا رقبة من شدة السمنة التي أصيب بها، هدأت نفسيته، من كَثرة ما كان يتابعه من أفلام

كرتون ودعايات على شاشة التلفزيون؛ حتّى تلاشى أذاه للآخرين، لا سيّما إنّ أباه كان حريصًا على عدم توانيه عن إعطائه أدويته العصبيّة والنفسيّة التي غيّرها له طبيب دمشقيّ عائد من الولايات المتحدة لتوّه، وكان من المطّلعين على مرض ماهر الاستثنائيّ في لندن، حينما كان رضيعًا.

لم يكن ماهر يذكر أمّه وجدّته، ولم يخطر لأبيه أن يذكّره بهما؛ إلى أن اتصلت أمّه؛ لتطمئن عليه، فأجابها أبوه، كما يجيبها في كلّ مرّة، بدعواته للّه أن يأخذ عمره؛ حتّى يرتاح منه؛ لكثرة ما يعذّبه، ولكنّ ثريّا كانت قد اشتاقت إليه بعد بضعة أشهر لم تره فيها، وطلبت من أبيه أن يحضره إليها، وبالفعل بقيت معه أيامًا عدّة أخذته إلى الحديقة، وحاولت أن تصطنع له أصدقاء، ولكنّه اعتدى بالضرب على فتاة تصغره سنًّا، أمام أرجوحة كبيرة، ثمّ رماها على الأرض وفجّ رأسها بحجر؛ مما أدّى إلى إيداعه سجن الأحداث.

أُبلغ الأب عن ضرورة حضوره إلى سجن الأحداث، وشعر أنّه ارتاح منه، ودعا ربّه أن يبقى أطول مدّة في السجن، ولكنّ أمّه ضغطت؛ لإخراجه، وأجرت وساطات عدّة مع ذوي الفتاة، حتّى أخرجته من السجن، وسلّمته لأبيه، الذي لاحظ أنّ ابنه أضحى أكثر تأمّلًا، بل محاكيًّا نفسه غاضبًا منها في كثير من الأحيان، حينئذ كان يدرك الأب أنّ موعد غياب وعيّه اقترب، فيضاعف له جرعة الأدوية، بناء على تعليمات طبيبه، وينتظر دخوله حالة فوضى مع أشياء البيت، فيمنعه من تخريبها أو كسرها، ويخفّف من حجم الأضرار، وبعد موجة العنف التي يعيشها التي تمتدّ يومين أو ثلاثة، ينام مسترخيًّا كأنّه ميّتٌ، ولحظة صحوته يُظهر هدوءًا غير المعهود به، وقبولًا لكلّ ما يطلبه منه أبوه، بل استكانةً أمامه، ثمّ يعود لمتابعة برامج التلفاز، التي استحوذت على معظم أوقاته، لا سيّما بعد أن بدأت المسلسلات المكسيكية الطويلة تظهر مدبلجةً بالعربية على شاشة التلفزيون السوريّ؛ إذ هربت الناس نحوها؛ تفاديًّا لمعرفة ما كان يحصل من تحوّلات ديمقراطيّة في العالم، لأنّ نظام السلطة كان يعدّ كلّ متعاطف مع حركات الحريّة جريمة سياسيّة.

(١٨)

طلب أحمد من قريب له إحضار سيارته؛ لنقل ميسون إلى عيادة الطبيب، لإجراء عمليّة إجهاض للجنين، وحينما قام الطبيب بفحصها من جديد، أكّد لهما إمكانية الإجهاض، ثمّ اعتذر عن إجراء العملية بسبب مخاوفه من عقوبات قد تطبّق بحقّه؛ نتيجة تكرار عمليات الإجهاض بشكل غير شرعيّ، ووعدهم بإخبارهم حالما تنتهي أزمة مراقبة نقابة الأطباء عيادته خلال يومين.

على درب عودته من عيادة الطبيب حلّق طيف ملاك فوق رأس أحمد مرارًا، ثمّ غاب الإله، بعد أن التقط أحمد ومضات نور وملامح خير بقدوم طفله، وسمع نداءً خفيًّا:

- احتفظ بالطفل يا أحمد، احتفظ بالبركة التي حلّت عليك.

حاول أن يلمس الطيف، لكنّه تلاشى، وتحوّل صوته إلى أصداء في أذنيه، لم يبق له سوى ميسون بجانبه، وصدى حلمه الخفيّ، همس أحمد في أذن قريبه، بأنّه غيّر رأيّه، ولا يريد أن يجهض مولوده، دهشَ قريبه:

- لا تمزح يا أحمد، ما هذا الحكي؟ هل أصبت بالجنون؟!

لم يردّ أحمد عليه، بل التفت نحو ميسون متناسيًّا نظرات محيطه الاجتماعيّ كلّها التي رأت فيه مغفلًا، وقال لها بصوت عالٍ:

- حبيبتي، كيفك أنت، طمنيني عنك؟ تفاجأت ميسون وأجابته:
- والله، غير مصدقة، ما الذي جرى لك؟ منذ قليل كنت عاقلًا!
- لا والله يا ميسون، لكن أشعر أني ظلمتك، وعندي رغبة في تصحيح مساري معك، فردّ قريبه مؤيدًا ما قالته زوجته:

- كأنك لست طبيعيًا يا أحمد! قبل لحظات كان عقلك معك.
- لك يا جماعة، ما بكم؟ صار الصواب، بهذه الأيام، غلطًا، والغلط صوابًا، ما الأمر؟ أنا راغب في امرأتي، وأريد أن أصلح أوضاعي معها، أين الغلط؟

حضن أحمد زوجته ميسون أمام صديقه، ولثم فمها بقبلة، فأبعدته عنها بعصبيّة قائلة له بغضب:

- عشنا وشفنا والله! لقد رأيت العجب! توقّف عن الهراء، واحكِ ما تريد على المكشوف.

لم يجب أحمد، وإمعانًا بصدقه مع حالته، طلب من صديقه عدم الحضور في اليوم التالي، لأنّه تراجع عن إجراء عمليّة الإجهاض، فردّت ميسون ساخرة منه:

- كبير والله، ما أعراض هذه النخوة الفجائية التي ركبت دماغك؟ اتركني وشأني الله يخليك، أنا أريد أن أجهض يا أخي، لا أريد أولادًا لا منك ولا من غيرك، لم أعد أطيق لا الأولاد ولا الرجال الذين مثلك، سأله قريبه عن سبب تراجعه، فتلعثم بجوابهن ثم صمت.

ودّع صديقه، وتأبّط زوجته، ودخل إلى الدار الكبيرة، فوجد ابنته سلمى تلعب مع أقرانها في باحتها، ضمّها بحرارة، ثمّ أدخلها إلى غرفته، وطلب من زوجته أن تحضّر العشاء، ريثما يُحضِر الحلوى، وقبل أن يخرج طلبت منه ابنته آيس كريم، فضحك بصوت عالٍ، وطلب منها مرافقته في مشواره، فركضت نحوه فرحة برفقته.

تناولوا العشاء وسط ذهول زوجته غير المصدّقة، ثمّ أكلوا الحلوى والمثلّجات، وغادرت ميسون طاولة العشاء إلى ركن نومها؛ بحجة إرهاق أصابها، وغطّت في نوم عميق، أمّا أحمد فبقيّ مع ابنته يلاعبها، جلست بحضنه، وداعبته، وبكت أمامه، ثمّ قالت له:

- أنا أحبك يا بابا، ابقَ معي دائمًا، لا تتركني وتذهب إلى الجيش.

أخفى دموعه عنها، واستمرّ باللعب معها، حتى غالبها النعاس، فقادها إلى الحمام؛ لتنظّف أسنانها، ثم أوصلها إلى سريرها، وطبع قبلة على جبينها، هامسًا بإذنها:

- تصبحين على خير يا عيوني.
- وأنت بخير يا بابا.

***

ظلّ غريقًا في بحر أحلامه مع صورة الملاك الذي يحمل ابنه القادم، كان يغيب ويحضر في ذهنه على هيئات عديدة، ابتداءً من صورة السيد المسيح الذي بقي عازبًا سوى من قبلات حبّ تبادلها مع مريم المجدليّة، والحلّاج المعلّق جسده على غصن شجرة هرمة، ثمّ استذكر الأمير السيّد جمال الدين عبد الله التنوخيّ الذي طرده أهله من لبنان؛ رفضًا لدعواته الإصلاحيّة لشؤون دينهم المسيء إليهم وإلى الآخرين، والشيخ صلاح الذي نهض بأهله بأم الإبر، ومات مبتئسًا بعد تخليهم عنه، كانت اعتداءات ذويهم تتقافز بين وعيه ولا وعيه، ثمّ يتساءل مع نفسه:

- تُرى ما علاقة الجنين الذي لا يزال علقة بما ينهب عقلي؟ أيكون جنونًا، أم يكون سحرًا قد مسّني؟ ألا يمكن أن يكون لابني شأنٌ عظيمٌ مع هؤلاء الذين يرفضون مغادرة مخيلتي؟

ظلّ قلق السؤال ينهبه؛ حتّى توجّه إلى سريره أخيرًا، ولكنّه لم يستطع إغماض عينيه، حاول أن يقرأ رواية ليخفّف من غلواء نفسه، من دون فائدة؛ إذ كلما دخل بغفوة يحضر في مخيلته اعتداءات أهل الرسول المتكررة على شخصه، ابتداءً من طفولته التي جعلت أمّه تبعده عنها، وتسلّمه لمرضعات، واعتداء صبيّة البدو عليه جنسيًّا حينما كان في العاشرة من عمره، المفسّر

بحادثة شقّ الصدر الشهيرة، وصبره على أذيات أهله وإهاناتهم، لأنّه أصرّ على إخراجهم من ظلمات فسادهم وطغيانهم إلى نور الحقّ.

صعد إلى سطح الدار، وانتحى في زاوية معتمةً يرقب النجوم وسط سكون السماء اللانهائيّ، كان ضوء القمر الآتي شحيحًا من خلف أشجار الحور المنصوبة يؤنس وحدته، أخذ غفوة، فعاد له طيف رجلٍ مكللٍ بالبياض من أعلى رأسه؛ حتّى أخمص قدميه، يرتدي طقمًا إفرنجيًّا وربطة عنق وقبّعة، إضافة إلى حذاء أبيض، ابتسم برقّة، وانحنى قائلًا:

- دعني أحيا، يا أبي...

اِفترّ أحمد عن ابتسامة، وعبّر عن الرضى، حينما سمع ارتطام أسهم تخترق جسده من الجهات كلّها انطلقت من طيف زائره، الذي تلاشى في الفضاء تاركًا بقعة ضوء تحوم حوله، فجأة انتقل القمر من كبد السماء واستقرّ فوق رأسه ملتهبًا بنيران حمراء، فصرخ صرخة استغاثة، وهبط على السلم راكضًا، ارتمى أسفله، فتلاقى مع ابنته سلمى مرعوبةً من الصوت الذي اخترق أذنيها، وبكت في حضنه، قائلةً:

- أبي، أبي، أبي أبي أبي... أنا خايفة يا بابا...

احتضنها، ثمّ أذعن ليديها، فقادته إلى غرفته، لم يعِ أنّه فقد بصره، إلّا حينما أسلمته سلمى لسريره، وهي تئنّ وتبكي، وصلت زوجته واقتربت منه قائلةً:

- خير إن شاء الله، كأنّك تموت، أمّ أغمضت عينيك لا تريد رؤيتي؟
- أنا عميت يا ميسون؟ ما عدت أرى بعيوني، صرخت ابنته باكية:
- خذ عيوني يا أبي بابا... بابا...

***

أُستدعيّ طبيبٌ، وبعد أن شرح له الحالة، طمأنه بأنّها مؤقّتة، وأعطاه إبرة، ووضع قطرة في عينيه، فغرق في نومه حتّى مساء اليوم التالي، استحمّ، وعرف أنّه تأخر عن التحاقه بثكنته العسكرية، نّه أأ ثمّ نادى زوجته ميسون من دون مّجيب، أطلّ على أرض الدار، فلمح ابنته ناداها، فالتفتت بقامتها الحلوة، وهرعت نحوه، حملها وضمّها، ثمّ بدأت تتلمّس عينيه، وتسأله باكيّة:

- أتراني، يا أبي؟ بابا...
- أنا الآن أراك مثل طير بالجنة يا عيوني، لم يسعها إلّا أن تحوّل نشيجها إلى ضحك مستمرّ، وهي تتلمّس عينينه وأنفه،... ثمّ سألها عن أمّها فأجابت:
- لا أعرف.
- .....

وصلت ميسون بعد دقائق، لم تلتفت نحو أحمد أو ابنتها سلمى، دخلت إلى الحمام، من دون أن تلقي عليهما تحيّة، ثم خرجت بعد أن استحمّت، وغيّرت ملابسها، شغّلت جهاز التلفاز، وقبعَت بمواجهة شاشته تتابع مسلسلًا تركيًّا، سألها أحمد:

- كيف حالك يا ميسون؟
- من الله بخير، ومن البشر الذين مثلك لست بخير.
- وكيف حال الجنين بأحشائك؟
- أأنت جادّ في حديثك؟ وأنّك غيّرت رأيّك؟ ولا تريد أن نتخلّص منه؟
- طبعًا، أنا جادّ في حديثي.
- كأني أشعر أنّ جنونًا مسّك! قالت ميسون مشوّهة وجهها.

فردّت سلمى بعصبيّة وبصوت طفوليّ عالٍ:

- ماما، ماما، ماما، أنا أحبّ أبي كثير كثير، وأريد أخًا ألعب أنا وإياه...
- اخرسي، يا قليلة الأدب، لماذا ترفعين صوتك بوجهي؟

وتوجّهت نحو سلمى محاولة صفعها، فكان أحمد أسرع منها، إذ أمسك يدها، وأوقفها، ثم أسندها على الحائط، ووضع إصبعيه أمام عينيها، وضغط عليهما قليلًا، قائلًا لها:

- سلمى خط أحمر، لا تغلطي مرة ثانية يا ميسون! الآن سماح، لأنّ ابنك الذي ببطنك يشفع لك، انتبهي له جيدًا، اللّه يجبرك... ثم ضحك، وقبّلها من رأسها وضمّها، وامتدّت يده نحو سلمى، جذبها قائلًا:
- اعتذري لأمّك يا سلمى، لا بدّ أن تتخلّصي من الصوت العالي يا عيوني.

***

تأخّر في نومه في اليوم التالي، ثمّ أخذ غفوة من جديد، وسرعان ما صرخ مستيقظًا، شرب ماء، وتدثّر من جديد، وشرع يتذكر يستعيد وقائع حلمه الذي أيقظه من جديد.

في طرف أرض البيدر في أمّ الإبر، تلك الأرض التي سمّاها مع أقرانه ملعبًا في أيام نشأته، رأى صبيّةً يشخصون نحو شجرة مشمش كبيرة فاتحة فمها طالبة ماءً خلف الكورنيش الشرقيّ الذي لفظ الغوطة الشرقيّة خارج العاصمة دمشق، وفق مخطط دمشق التنظيميّ الذي أنجزه المهندس إيكوشار الفرنسيّ، وساعده بانشويا اليابانيّ منذ ثلاثينيات القرن العشرين، زمن حكم الفرنسيين لسوريا وفقًا لسايكس بيكو، والذي أتمّه بعد هزيمة ٥ يونيه/ حزيران/ ١٩٦٧م وصل أحمد وسأل الصبيّة عمّا يفعلون، فأجابوه:

- انظر إلى الجرذان في الشجرة.

كانت مملوءةً بالجرذان المتأهبة للانقضاض على من يحاول العبور من تحتها نحو الضفة الأخرى، ثمّ لاحظ أحمد أنّ أوراقها تخبّيء ثمارًا ناضجة، فهمّ بالعبور، فمنعه أحدهم خوفًا عليه، ثمّ قال آخر متحديًّا:

- إن كنت بطلًا يا أحمد اعبر للضفة الأخرى؟
- لا تقبل يا أحمد فالجرذان ستقتلك، انتبه...
- لا تستطيع العبور، أنت جبان. قال آخر...
- .....

بين صدّ ورد، غامر أحمد، وركض بأقصى سرعته محاولًا العبور نحو ضفة البيدر الأخرى، تعثّرت خطواته تحت الشجرة مباشرة، فانقضّت عليه الجرذان، وأوسعته ضربًا وعضًّا ونهشًا، ظلّ يغالبهم محاولًا الوصول إلى الضّفّة الأخرى، من دون أن يستطيع التقدّم خطوة واحدة، شرع بالمقاومة بين أنياب الجرذان، وأكثر ما آلمه عضّة جرذ ضخم تدلّت من منخريه ديدانٌ سوداء مشوبة باصفرار السمّ القاتل، امتدّت آثارها من كتفه؛ حتّى ما دون مستوى سرّته، أحسّ بقرب أجله، حالما وصلت الديدان إلى عينيه، فظلّ يردّد: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، مستعوذًا من ديدان مدفن الدّار والذيب وجدّه وصفي والشيخ القاتل لرفيقيهفي لبنان، وبعد أن استكان للموت، أرخى ذاك الجرذ من قبضة فكّيه قليلًا رافعًا أنيابه عن جسده، فتراجعت الدودتان؛ فاغتنم أحمد الفرصة وتخلّص من عضّته الفظيعة منتشلًا جسده بصعوبة ومندفعًا نحو الضفة الأخرى، تمزّقت ثيابه، وبدت عورته مدماة، وبرزت بعض عظامه، وغطّت الدماء وجهه وجسده، ارتمى على بقع دمه وغاص فيها، ثمّ غاب عن الوجود، وافتقد صبية البستان.

استعاد أحمد نظره، وأحسّ ببهتان ألوان الشجرة وتعفّن ثمارها أمام جرذانها؛ الذين ازدادت أعدادهم وشراستهم، تكاثرت الديدان السوداء التي تتدلى من مناخيرهم، واستحال بعضها خفافيش وطيور ليل شكّلت سحابة

سوداء فوق الشجرة محاولة تغليفها من كل اتجاهاتها، تراجع مرعوبًا، وارتمى خلف سياج من الشوك، لمح من خلفه صبية يلتقطون ثمرات متعفّنة تتساقط تحت الشجرة، وآخرون كانوا يتلاشون خلف الأفق، ويهوون في قاع مدفن الدار الكبيرة، استغاث، من دون أن يسمعه أحد، إلى أن صرخ صرخة أيقظته، فنهض، فناولته ميسون كأسًا من الماء.

***

استحمّ وارتدى ملابسه وتوجّه نحو غرفة أمه، فوجدها عند جدّته نعيمة، شرب معهما القهوة، وقصّ عليهما حلمه، صمتت أمّه ثمّ بكت:

- انتبه يا ابني، الجرذان في المنام أبناء حكومة، وكبيرهم هو الرئيس، انتبه ولا تتدخل في السياسة، أنت تحمل قلبًا طيبًا، من هو مثلك لا ينفع للسياسة، أفِق لنفسك يا أحمد، صار عندك أولاد، وانتبه؛ فالجرذان أبناء حكومة ورجال مخابرات ينوون أن يعضّوك، أنا أحذرك وأنت حرّ.

صمت أحمد متذكرًا سقوط الصبية في قاع مدفن الدار، ثم قال مغتاظًا:

- متى نتخلّص من المدفن يا أمي؟
- هذا المدفن كرامة للعائلة، لا أحد يرضى بإزالته، ردّت أمّه.
- والله يا أمي كرامتنا مدفونة مع جثامين أهلنا في المدفن، والجيش الكلب يميت إرادتنا، والسياسة تلغي حريتنا.

فردّت عليه جدّته:

- يا قلبي يا أحمد، كلّ كلمة قلتها صحيحة، لكنَّ الصبر مفتاح الفرج، ستتعرض لشدّة كبيرة مثل ما قالت لك أمك، وستتخلّص منها ومن شرور أعدائك بإذن الله، تفسير أمك صحيح يا ابني، انتبه من المخابرات هم أنفسهم الجرذان بمنامك، وكبيرهم هو رئيسهم، والديدان التي رأيتها ستبقى تنخر طيلة الحياة بأجساد المجرمين، هي آثار جثامين أولادنا وشبابنا الذين أعدمتهم سلطة الموت يا قباري.

- صار عندك عائلة يا أحمد،... قالت الأمّ مؤنّبةً.
- إذا صار لي شيء انتبهوا لابنتي وزوجتي، بخاطركم، وهمّ بمغادرتهما متوجّسًا.
- إلى أين أنت ذاهب يا أحمد؟ وانهارت أمّه بكاءً مرًّا.

ودّع جدته وأمّه، وقبّل رأسيهما، ثمّ غادرهما، أوصى ميسون بابنته، وسلّمها معظم المبلغ الذي اقترضه، ونبّه عليها إلغاء فكرة إجهاض الجنين من رأسها، ووعدها أنّه سيدفع رشوة للضباط في الجيش، ويعود للبقاء معها في أثناء حملها بابنه الذي لا يفارق مخيلته.

obeikandl.com

(١٩)

اتصل جابر بالذيب، ودعاه إلى سهرة عيد رأس السنة في مدينة أخرى، وطلب منه إحضار صديقة معه، لكنّ الذيب لم يستطع إقناع أيٍّ من البولنديات لمرافقته، فذهب وحيدًا.

وصل، ووجد جابر مع زوجته التي أنجبت طفلة، وأستاذه البولنديّ بمعهد الفنون البصريّة هم قوام السهرة، وكان الأستاذ يماثل تلميذه جابر في العمر تقريبًا، وحينما شرعت الزوجة في تهيئة طاولة سهرة رأس السنة، كان يساعدها بالمطبخ الأستاذ، وكانت تستعين، أحيانًا، بالذيب، وكان جابر مختصًّا بالخروج؛ لجلب أغراض من السوق وفق الحاجة إليها.

خرج جابر إلى السوق؛ لجلب كميّة من الفستق والكاجو واللوز، وتأخّر في العودة، وقبل وصوله دخل الذيب إلى المطبخ، فوجد الأستاذ محتضنًا الزوجة، مطبقًا فمه على فمها بنهم جنسيّ واضح، وكانت هي مسترخية بين يديه، فتراجع إلى الوراء في اللحظة التي لمحته، ودخل إلى غرفة المعيشة، وقبع أمام التلفاز ساكنًا، كأنّه لم ير شيئًا، رجع جابر، أوصل كيس القلوبات إلى المطبخ، وعاد إلى غرفة المعيشة مشتكيًّا للذيب معاناته في الحصول على طلبات زوجه التي لا تتوقّف.

لم يوح الذيب لجابر بدهشته مما شهده في المطبخ، إلى أن بدأت السهرة، ولم يستطع إخفاء دهشته حينما صار الأستاذ يقبّل امرأة جابر أمامه قبلاتٍ شهوانيّة، ثمّ شرع يحدّث كيف علّم الأستاذُ البولندي جابرًا أصول التعامل، وكيف أشرف على رسالته في الماجستير ومنحه شهادتها بمرتبة الشرف الأولى، وحاليًّا في الدكتوراه، وكيف عذّبه بتعلّم الحبّ، ثمّ شرح كيف زوّجه، ودرّبه على احترام مشاعر زوجته؛ أمّا جابر فكان يبدو مبتسمًا على الدوام، وأحيانًا يضحك ضحكة لا تخلو من بلاهة هستيرية.

شربوا الفودكا؛ حتّى الثمالة، وقدّموا التهاني لبعضهم عند الثانية عشرة ليلًا، وشرب الأستاذ نخب المرأة الجميلة مفرغًا كأسًا مملوءة من الفودكا في جوفه، وبعد دقائق، استأذن وذهب إلى غرفة أخرى؛ ليأخذ قسطًا من الراحة، بقيَّ الذيب وجابر وزوجته، التي بدأت تترنح، أيضًا، تحت وطأة سِكرها، وجاراها زوجها، إلّا أنّ الذيب بقيّ على وعيّه لقلّة ما تناوله من الفودكا، وبعد أن شرع جابر بالتثاؤب مترنحًا، اقتربت زوجته من الذيب ذي الوجه الأسمر الذي تشوبه ذقنٌ خفيفة وشاربٌ عارضٌ، وجلست بجانبه، وفي غفلة من زوجها وضعت كفّ يدها على عضوه، وشرعت بتمسيده، استثارت فيه غريزته الجنسية، فبادلها الذيب الحركة، فانتبه جابر، استيقظ واستقام، وطرده طالبً منه الرحيل فورًا، وعدّه معتديًا على حرمة بيته، لكنّ زوجته استهزأت بجابر، وأجبرته أن يصبر؛ حتّى الصباح، ثمّ أجلست الذيب على الأريكة، وقعدت بمواجهته.

صمت الذيب،طيلة ليلته، وكان جابر يجلس بحضرته شاخصًا إليه بكراهية شديدة، حتّى غادر صباحًا عائدًا إلى مدينته.

***

قبيل سقوط الشيوعيّة في بولندا، سادت قيم السوق الرأسمالية، وازداد الفساد في ظلّ النظام الشموليّ، ثمّ بدأ تململ الناس يظهر على مواقفهم وسلوكهم، وتشجّعت بعض الشخصيات الاجتماعيّة إلى الدعوة للإصلاح والحريّة، ومن ثمّ قادت عمليّة التغيير والاستعداد لحياة سياسيّة أكثر إنسانيّة حركة تضامن.

عُوِّمَت عملتهم البولندية (الزووتي) وارتفعت القيمة الشرائية للسلع، وعانى طلاب البعثات من العوز، فلجأوا إلى الاشتغال بالتجارة، وأرسل معظمهم إلى أهاليهم وأصدقائهم؛ ليمدّوهم بالسلع والبضائع السوريّة؛ لأنّ بولندا أضحت أمريكا الشمالية الجديدة، وبضاعة السوريين ستتحول إلى ذهب أحمر على ما كانوا يعدون به أصحاب البضائع.

تراكمت بضائع السوريين في أسواق بولندا، وكان الطلاب يتولون بيعها، وقلما أعادوا أثمانها إلى أصحابها؛ لأنّهم كانوا ينفقونها على حياة التهتك مع نساء اعتدن على ابتزازهم الماديّ، وفي أثناء ذلك تداعت مجموعات من الطلاب، وحصلوا على تراخيص لشركات تجاريّة، ومنها: شركة أسّسها الذيب مع جابر، وتمكّنا من استيراد كثيرٍ من بضائع تجار سوريين اتفاقًا مع بعض أركان في السفارة السوريّة، وشرعا بعمليات تسويقها مبتدئين بتوسّط أستاذ جابر البولنديّ لدى مدير مؤسسة استهلاكية من بقايا النظام الشموليّ الفاسد، لشراء كميات كبيرة من الألبسة والأحذية من شركة الذيب وجابر، وأخرى من الحلاوة الطحينية التي تمّ استيرادها من سوريا مباشرة لصالح تلك المؤسّسة، بعد أن تمّت رشوته بمبلغ كبير من المال، ثمّ تمكّن جابر من شراء شقّة بثمن بخس من الألمان الذين سمح لهم بمغادرة بولندا المحجوزين فيها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، زمن الحكم الشيوعيّ، ونسيّ نفسه في زحمة فساد المقاولات التي ازدادت والتجارة التي راجت، ونسيّ أهله، وانغمس في أوساط البولندنيين الفاسدة، وجنى أموالًا، وأضحى الأكثر دفاعًا عن قيم النظام الليبرالي الغربي، بعد أن كان المغالي في دفاعه عن ديكتاتورية البروليتاريا والنظام الشيوعيّ قبيل سقوطه المريع، ثمّ عاد يبحث عن العاهرات بعد ما طردته زوجته من بيتها، واحتفظت بابنتها.

لم يكن حظّ الذيب أقل من حظّ زميله جابر من الناحيّة الماليّة، فقد حصل على أموالٍ طائلة من عمليات بيع بضائع التجار السوريين، الذين تورّطوا في جلب كميّات كبيرة من بضائعهم الكاسدة في أسواق سوريا، التي أضحت حينذاك بأيدي فئات الرأسماليين التجاريين المهملين للإنتاج والتجريب بالصناعة، والفاعلين بتجارة العقارات والمخدرات والسلاح والبشر والنفط شراكة من ضباط المخابرات الفاسدين، وكان الذيب ابن شطمة يعيد لأصحاب تلك البضائع مبالغ تافهة قياسًا بالمبالغ التي كان يخبّئها؛ حتّى صار

صاحب رؤوس أموالٍ في بولندا التي تمكّن شعبها من الانتصار على سلطة شموليّة فاسدة والتخلّص من رموزها.

***

لم ينس الذيب وظيفته في ملاحقة الطلّاب السوريين المهتمّين بالسياسة؛ إذ كان يستعين بصديقه جابر، وظلّا حريصين على وظيفتهما بمراقبة الطلاب وملاحقتهم، لا سيّما الإسلاميّين، ثم يرسلان تقاريرهما إلى فروع المخابرات بدمشق.

وحينما كان الذيب يقوم بنزهة مع جابر في غابة بالقرب من مدينة وودج البولندية، وبعد أن انتهيا من سهرة عربدة مع عاهرات، اعترض طريقهما شابان، وأشهر أحدهما سكينه في وجوههما، واقترب من الذيب، ووضع يده حول عنقه، وقال له:

– يا واطي، يا قذر، كم عدد المتضررين بسببك، ورفع الآخر يده، وهوى بسكينه نحو قلب الذيب، لكنّ جابر استطاع بحركة سريعة إبعاد السكين من يده، ودفع الآخرعن الذيب، الذي ولّى هاربًا من أمامهم، وترك جابر لمصيره المجهول؛ إذ طعنه الشابّ المجهول بسكين اخترقت جانبًا من عنقه، ثمّ لحقا بالذيب، لكنّه كان أسرع منهم، وتوارى عن ناظريهما، إلى أن لجأ إلى مكان مأهول، فوليّا هاربين، تاركين جابر ممدّدًا على الأرض، وهو ينازع الموت.

أسعِف جابر، وأودع المستشفى، وحضر البوليس، لكنّهم لم يستطيعوا معرفة أحد من الذين قاموا بمحاولة الاغتيال، فأبلغ الذيب المخابرات بمحاولة الاغتيال، وقبع في بيته لا يتجرأ على الخروج إلّا للضرورات؛ حتّى كان موعد عودته إلى سوريا.

أمّا جابر فقد بقيّ أشهرًا تحت العلاج، ثمّ خرج بعد أن أجروا له عدّة من عمليات، ولكنّ رقبته بقيت ملتصقة بجانب كتفه الأيسر، لا يستطيع التلفت بشكل طبيعيّ.

اقترب موعد رجوع الذيب إلى سوريا بعدما حصل على درجة الدكتوراه، واستنفذ فرص تمديد بعثته، ولم يكن له أهلٌ في سوريا؛ إذ إنّ الحاج الدغري الذي رعاه في أثناء طفولته، وأدخله المدارس في نشأته، توفي حزنًا على ابنه مضر الذي أعدموه وأبقوا جثمانه مجهول المصير، توفّي الحاج بعيدًا عن عائلته التي تشرّدت، فابنه الأوسط أكمل دراسة الطبّ في العراق وبقيّ فيها، والصغير في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ولم يبق في منزلهم الكبير في الشاغور الجواني سوى ابنته التي بقيت وحيدة بعد تغييب زوجها مجهول المصير، فربّت وحيدها تحسين ودخل المعهد العالي للفنون المسرحيّة، وأرسلته؛ لمتابعة دراسته في بولندا وها هي ذي تفتقده كما افتقدت زوجها وأخوتها وأباها في سجون السلطة بعدما وشى به الذيب ابن شطمة، كما أنّ أمّها عميت بعد وفاة الحاج الدغريّ، فأودعت دار مأوى العجزة.

obeikandl.com

obeikandl.com

موت فوق المقبرة

obeikandl.com

obeikandl.com

موت فوق المقبرة

(٢٠)

بعد بضعة أيّام من غياب أحمد أخبرت ميسون حماتها عن اتفاقها معه على إجهاض الجنين، وطلبت منها مساعدتها؛ لإجراء العمليّة، فرفضت الأمّ بشدّة مستنكرة:

- هذه جريمة قتل يا ابنتي، كيف ترتضين أن تقتلي روح بني آدم، اللّه خلقها؟
- لكن أحمد اتفق مع الطبيب قبل ذهابه إلى الجيش، وأخاف أن يغضب عليّ، إذا ما حقّقت رغبته بالإجهاض، ردّت ميسون كاذبةً.
- إياك يا ميسون، عليك أن ترضي اللّه سبحانه وتعالى، وسيرضى أحمد بذلك بمرور الوقت، قالت الأمّ حاسمة موقفها.

ثمّ جنّ جنون سليمان حينما عرف رغبة ميسون في الإجهاض، وهدّدها بمقاطعتها إذا أجرت العملية، وقال لها غاضبًا:

- أنت تحملين في أحشائك أحمد جديد، وهو هبة من عند اللّه، إياك يا ميسون أن تغلطي، أنت بعهدتنا مع سلمى وجنينك من بعد عهد اللّه، حتّى يرجع أحمد بالسلامة.

لم تستطع ميسون إغفال إصرار أهل أحمد على التمسّك بجنينها، فتراجعت عن إجهاضه مكرهةً، ثمّ استطاب لها الحمل، حينما بدأ يتحرّك بأحشائها، إضافة إلى ازدياد اهتمام جميع أهل الدّار بها وبجنينها وكرمهم اللامتناهي ودلالهم لها ولابنتها سلمى.

انتظرت الأسرة قدوم الطفل يومًا بعد يوم، وأسبوعًا بعد أسبوع وشهرًا بعد شهر، وكلما اقترب موعد الولادة كان أهل أحمد يبدون مزيدًا من الشوق لرؤيته، وكانت سلمى تشاطرهم الشوق، وتقول لعمّها سليمان:

- أحب أن يجيء لي أخ يشبه بابا، حتى صير أحبه كثيرًا،...
- يا عيوني يا سلمى، أنت ما في أغلى منك في قلوب الكلّ، أحسّك قطعة من أبيك.

***

ولدت ميسون في مستشفى نسائيّ بوجود الجدّة نعيمة والأم اللتين باركتا لميسون قيامها بخير، ثمّ تناوبتا على حمله، إلى أن سُمح لسليمان بالدخول، فخاطب ميسون بودّ:

- الحمد لله على سلامتك يا ميسون، ثمّ حمل المولود وقال:
- سبحان الذي خلق الصبيّ، من وجهه يشعّ النور، انظروا ما أحلاه، ثمّ اشتمَّ رائحته، وحنى عليه، وقال في سرّه وهو مغمض عينيه:
- هذا الطفل تعويض لنا عن خساراتنا كلّها، والتفتّ نحو سلمى وقال:
- صار لك أخ يا عيوني، أخ لا يوجد أحلى منه في العالم.

اقتربت سلمى من أمّها، قبلتها ثمّ نظرت نحو شقيقها، وقالت:

- ماذا تسمينه يا ماما؟
- سمّيه ما تريدين، ردّت ميسون.
- جدّتي تريد أن تسميه على اسم جدي فخري، ما رأيك أنت؟
- أنا أريد أن أعرف رأيك أنت، موافقة على أيّ اسم تختارينه، أجابت ميسون وقبّلت ابنتها.
- نسميه إسكندر، ردّت سلمى، فردّت الجدّة نعيمة:

obeikandl.com

- حلو الاسم، لكن أنا أحبّ ان نسمّيه اسمًا جامعًا للبشر.
- ما الاسم الذي اخترتيه يا جدّتي، يجب ألّا يكون مثل اسمي، عتيق؟ قال لها سليمان، ثمّ انفجر الدمع من عينيه، لحظة نطق بتلقائيّة:
- سمّوه أحمد... واستدار، خارجًا على عجلٍ، حتّى لا يلفت انتباه أحد لدموعه، ثم قالت الجدّة نعيمة:
- يحيى، سموه يحيى جامع الإسلام والمسيحية واليهود، وصوت يحيى لا يزال يجلجل في أركان المعمورة، وفي فضاء الكون ينبئ بخرابه، ويدعو لهجران خطيئة البشر، فقالت أمّ سليمان:
- هذا الاسم عتيق، منذ بداية حمل ميسون، تنوين تسميته يحيى، أعطنا اسمًا غيره لو سمحتِ يا حماتي، ردّت الجدّة:
- أنا من جهتي، أحبّ أن تسموه على اسم الأنبياء، واسم يحيى يناسبه، أجابت الجدّة بجديّة وإصرار.
- وأنت ماما؟ خاطبت سلمى أمّها، فأجابتها:
- مثلما تريدون سمّوه، تصطفلوا.
- لابدّ أن تختاروا بسرعة، فقد سألت الممرضة مرتين عن الاسم، بعد قليل تجيء من جديد، قال عمر للجميع.

وصلت الممرضة، وسألت عن الاسم؛ لتسجيله في أوراق المستشفى، فردّت سلمى عن الجميع:

- يحيى، فأنشد عمر بصوته الطفوليّ:
- يحيا يحيى. يحيا ليحيا...

ضحك الجميع، ثمّ اقترب سليمان ضاحكًا، ورفع عمر عاليًّا تحبّبًا له، ضمّه مع سلمى، وقال:

- أنتما ومعكم يحيى أملي في هذه الحياة، جيلكم سوف يحرّرنا، إن شاء الله.

كان يحيى مثار إعجاب كلّ من رآه، ومثار حديث كل من هو قاطن بالدار الكبيرة، وكانت الجدّة نعيمة تتحدث عنه قائلةً:

- ما شاء الله، منذ الوهلة الأولى لوجهه، رأيت إكليل قوس قزح فوق جبينه، وذكّرني بأبيه أحمد يوم ولادته التي كانت بشارة خير للدار كلها، شكله يشبه أباه، لكنَّ حجمه أكبر، إن شاء الله يكون بشارة خير لكل أمة الإسلام، ثمّ أخذه عمّه سليمان وكبّر في أذنه، وأشهد الله على ولادته، وقال:
- وجهه مثل وجه الأنبياء وأهل الصوفيّة، سبحان الله على هذا الوجه الصبوح، الله يفكّ أسرك يا أحمد حتّى ترى هذه النعمة التي حلّت في بيتك.

بعد الانتهاء من إجراءات المستشفى، خرج الجميع إلى البيت، واستمرّ الاحتفال بقدوم يحيى أسابيع عديدة، ولكنّ غصّات كانت تطلق كلما ذكروا أباه أحمد المغيّب في سجون السلطة.

استقرّت الجدة نعيمة في الغرفة التي تظلّلها التوتة الشاميّة والمطلّة على أرض الدار، أمامها ورودها وشجيرات الليمون والنارنج القابعة حول بحرة مياه تتوسطها، كانت الجدّة تحتضن طفلًا لم تشهد له مثيلًا طوال عمرها، كما كانت تقول، وكانت لم تتوان مرّة واحدة عن ذكر الله، كلما وقع نظرها على شجرة التوت التي اخضرّت بعد أن يبس معظم غصونها، مرددة في أكثر المرات:

- هذا الولد ليس كغيره من أولاد العائلة، يشبه أباه، لكنه أطول ووجه مضوّي أكثر، قلبي يقول لي: إن مستقبله عظيم، وسيدخل الخير لأهله ولأم الإبر وأهل الشام.

اهتمّت الجدّة بحفيدها يحيى اهتمامًا بالغًا؛ حتّى صار محطّ أنظار كلّ زوّار البيت، ثمّ بدأت أمّه تغار من الجدّة، وتستحوذ عليه أكثر أوقاتها؛ حتّى تعلقت به كثيرًا، أمّا الجدّة فزاد اهتمامها بسلمى، وصارت تطلب منها النوم عندها، ولم يكن ذلك يرضي ميسون، وكانت تؤنّب ابنتها سلمى كثيرًا، وتنبّه عليها ألّا تنام لدى الجدّة؛ إلى أن عرفت أنّ الجدّة كانت قد منحت أحمد صندوق جواهر موروث عن سلفها، وأنّ أحمد أودعه لدى أمّه، وعرفت أنّ الجدّة نعيمة، تبحث عن المرأة الأكثر نضجًا وحكمة من نساء الدار الكبيرة حتّى توصي أمّ سليمان إيداعه لديها، وكلّ الدلائل كانت تشير إلى سلمى وترشّحها لاستلام الصندوق بعد وفاتها؛ لأنّها الأكثر قربًا من أرواح أسلافها الطهورة.

obeikandl.com

(٢١)

التحق أحمد بقطعته العسكرية متأخرًا يومين، راجيًّا أن يمنحوه إجازة عن طريق الرشوة السخيّة، الّتي كان ينوي دفعها للضابط المسؤول، وعند وصوله حدث عكس ما توقّعه؛ إذ استدعاه ضابط أمن الفرقة العسكريّة، وحقّق معه؛ بسبب تأخّره، ثمّ أرسله إلى سجن المفرزة العسكريّة، فزاره زملاؤه وأمّنوا له السجائر والطعام، ثمّ كلّف أحدهم توصيل رسالة لأهله، ضمّنها ضرورة منع ميسون إجراء عمليّة إجهاض.

في اليوم التالي، لاحظ أحمد أنّهم أفرغوا السجن من السجناء العسكريين الآخرين، وأبقوه وحيدًا، كما امتنع زملاؤه عن زيارته نهائيًّا، فبقيّ صامتًا بين جدران السجن، يتذكّر ويتأمّل ويفكّر بمصيره المجهول، أكثر ما كان يخطر على باله الجنين داخل أحشاء ميسون، كان يشعر برعب من افتقاده بعملية إجهاض حمقاء، وصار يشتاق إلى رؤيته كائنًا جميلًا، وكم تمنّى أن يزوره أحد زملائه ليعرف مصير رسالته التي بعثها إلى أهله، داوم الوقوف أمام نافذة مغلقة بشبك حديديّ محاولًا أن يلمح أحدًا من زملائه، من دون جدوى؛ إذ كان الجميع يتوارون عنه، ويحذرون الاقتراب من السجن.

بعد أسبوع سيق مكبّل اليدين ومُغمَض العينين (مطمّشًا) بعصبة قماشيّة سوداء، وسلّم لدورية مخابرات، وضعوه بسيارتهم، ثم شرعوا بضربه وركله طوال الزمن المستغرق للوصول إلى فرع الأمن، توقّفت السيارة، وأنزلوه إلى قبو، أوقفوه على جدار، ثمّ جاء أحدهم وفكّ العصبة السوداء (الطمّاشة) عن عينيه، ثمّ استلموا أغراضه منه، ولم يمهلوه؛ إذ بدأت حفلة الاستقبال من رجال تباروا في توجيه اللكمات والرفسات على رأسه ووجهه وجسده، مع أقذع الشتائم وأشدّها لؤمًا، ثمّ دفعه السجّان داخل زنزانة أرضيتها اتسعت

لفراش فرديّ، تمدّد عليه متلقيًّا إضاءة مبهرة ومؤذيّة وموجّهة مباشرة نحو عينيه اللتين أغمضتا تلقائيًّا؛ هربًا نحو النّوم، وبعد دقائق بدأوا تحقيقًا مع أحد المعتقلين، سمع أصوات السياط والكابلات المختلطة بعويل ذلك السجين مختزلًا مآسي الطائفيّة وأحقادها وإجرام الاستبداد والفساد، كان صوته يختفي لدقائق، ثمّ يعاودون تعذيبه مكيلين له أقذع الشتائم وأبشعها، أدار أحمد وجهه نحو الحائط الغاصّ بخربشات عديدة وكتابات بدمّ كاتبيها، وقرأ أحدثها: "اتق شرّ بطنٍ بعدَ جوعٍ شبع" كانت مشبّعة بدماء من كان قبله في الزنزانة، وفي غمرة الضوء المبهر ووسط دماء سجناء من سبقه، وعلى أنين المعتقل الذي يقومون بتعذيبه وصرخاته، استلقى أحمد على ظهره، وضع كفّ يده على عينيه، ثم غطّ في نوم عميق؛ لا يدري كم بقيّ نائمًا، إلى أن استيقظ على صرير باب الزنزانة الذي فتحه سجّان صارخًا:

- قرد ولو... ولك نايم، مع الأصوات الموجودة كلّها بالفرع وأنت نائم، انتظرني يا كلب، والله لخلّيك تصيح بالمقلوب يا أخو القحبي..

نهض أحمد واقفًا، ناوله السجّان سندوتشًا محشوة ببطاطا مسلوقة، أكل منها لقمة، ثمّ رماها في زاوية الزنزانة، فاستقرّت إلى جانب بضعة سندويتشات مماثلة، كان قد أكل منها نزلاء الزنزانة السابقين لقمة أو لقمتين، ورموها بالزاوية نفسها.

في تلك الليلة انتظر أحمد قدره المشؤوم، غير أنّ الصمت لفّ المكان ليلًا، ثمّ بدأ يسمع أصوات المعتقلين في زنازين أخرى، كانوا يتهامسون؛ ليعرفوا من هو المعتقل الجديد، وبدأوا يدقّون على جدران زنازينهم ضربات خفيفة على شكل إشارات أو شِفرات (مورس) متفق عليها فيما بينهم، ولمّا يئسوا من معرفته أو الإفادة من معلومات عن الخارج، كونه قادمًا من خارج أوساط احتجاجات الشباب الإسلاميّ المشكّل قوام المعارضة في تلك المرحلة، ولا يعرف شفراتهم، عاد الصمت، وغرق في نومه من جديد، حالمًا بإبقاء ميسون

جنينها حيًّا، وكان يأتيه في منامه إلهًا مخلّصًا، ثمّ تأتيه ثريّا غاضبة تطالب بجنينها الذي فقدته.

في اليوم التالي استيقظ على ركلاتهم وشتائمهم، أخرجوه ودفعوه إلى سيارة بعد تكبيله وتطميشه، وقادوه إلى فرع مخابرات آخر، استقبل استقبالًا متوحشًا أيضًا، ولم يصل إلى زنزانته، إلّا وكانت الدماء قد غطّت جسده ووجهه، رموه على أرض الزنزانة، وكاد أن يرى ظلالًا لأشخاص موزّعين في أركان الزنزانة بين قاعد وواقف، ثمّ استحالوا أشباحًا تضمّد جراحه، وبعد أن وعيّ ما حوله اختنق بروائح الزنزانة النتنة، ثمّ شرع يسألهم عن مكان وجوده، فهمس أحدهم في أذنه أنّه في فرع مخابرات القوى الجوية، رويدًا رويدًا بدأ يتأقلم مع الحيّز المتاح له؛ الذي لا يشكّل أكثر من موضع ليقف فيه، وبالتناوب مع غيره يجلس أو ينام بجدول حافظ المعتقلون على الالتزام بمواعيده.

في اليوم التالي بدأ التحقيق معه، على عكس ما توقّعه زملاؤه في الزنزانة، وتفهّم سرعة التحقيق معه؛ لكونه من اليساريين الذين يشكّلون أقليّة قياسًا لعشرات الآلاف من الإسلاميين القابعين في معتقلات السلطة منذ سنوات عديدة، منهم من كان ينتظر إخلاء سبيل أو نقل لسجون أوسع، ومنهم من ينتظر تنفيذ أحكام إعدام، وأكثرهم ينتظرون بدء التحقيق أو البتّ بنتائجه.

كان التحقيق يجري معه يوميًّا، تعرّض فيه لصنوف التعذيب كافّة؛ من الضرب على جسده ورجليه بالكابل الرباعيّ، وتوجيه خراطيم المياه الباردة على رأسه، أو الشَّبْح معلّقًا بالسقف لساعات عديدة، كما وضعوه على الكرسيّ الألمانيّ، وتعرّض للصعق بالكهرباء، عدا عن اللكم والترفيس والشتائم، وكلما كانوا يعيدونه إلى الزنزانة، كان زملاؤه يتحلّقون حوله ، ويمسحون الدماء النازفة من رجليه أو جسده أو وجهه، ومنهم من كان يثني على بطولته لسماعهم شتائمه السجانين في أثناء ضربه، وأسرّ أحمد لزملائه

أنّ الجلّادين والمحقّقين يرأفون به على عكس معاملتهم الإسلاميين فموت أحدهم لا يشكّل بالنسبة لهم أيّ قلق، أما اليساريون فلم يقصدوا إماتتهم، فردّ عليه أحدهم:

- يا أحمد، أنت لم تأتِ بجديد، ولكنّ المقصود بإماتته ليس الإسلاميين بل الوطن برمته، وطن الإسلام؛ إذ إنّ من يحكمنا لا صلة له بهذه الأوطان، وعقّب آخر:
- يبدو أنّهم مصرّونٌ على تفتيت الوطن وسرقته وقتل أهلنا وتهجيرهم.

***

في ليلة من الليالي بقي أحمد من دون تحقيق، وانشغل المحققون بأحد الإسلاميين، كانوا يسألونه عن اسمه، وهو لا يجيب، ثمّ بدأوا يصرخون:

- ألا تتوجع يا أخو الشرموطة، إلى متى تبقى صامتًا؟ والله، لأجعلنك تقول آخ إجباري عن ربك وعن محمدك،...
- .....
- قرد ولو، قول آخ.. ولا الله، لحتّى نتركك، صوت جلّاد آخر.
- والله لنجيب أمك وامرأتك وأختك وبناتك، وسنرى هل تقول آخ يا ابن القحبة أو لا تقولها، خلِّ ربك يفيدك...
- .....
- سبّيت سيادة الرئيس يا عرصة؟ والله لحتى خليك تشخّ على حالك والله، أنت لا تعرف مع من علقتك، نحن أولاد الجبال المرعبة، نحن رجال الأسد، انتظر سأسمعك صوت امرأتك، ونحن نغتصبها يا ابن...
- .....

كانوا يكيلون للسجين الضرب المبرّح، وظلّ صامدًا أمام وحشيتهم، جلبوا نساء تخصّه، وشرعوا باغتصابهنّ، بكى أحمد وجميع من وُجد في الزنزانة على مأساته، وظلّ ذلك السجين متمسكًا بصمته الرجوليّ أمام صراخهم المتوحّش، ولم ينته تعذيبه إلّا في صباح اليوم التالي باستشهاده.

حينما خرج أحمد وزملاؤه صباحًا إلى الحمّامات، لمح جدران الممر، الذي كانوا يعذّبون المعتقل الشهيد فيه، مليئةً بنتف من جسده ودمائه؛ التي تطايرت وعلقت بها، حينئذٍ تأكّد له استهداف السلطة الشباب السوريّ الحرّ، كان النظام يحاول إماتة جموحهم نحو الحريّة، ووأد تطلعاتهم لبناء وطن.

***

بعد أكثر من أسبوعين من التحقيق المتواصل مع أحمد، تنبّأ رفاق الزنزانة له بصعوبة إطلاق سراحه، أمّا أحمد فقد عرف أنّ سببَ اعتقالِه هو نتيجة اعتراف معتقل كان قد زاره، وقدّم له بعض المنشورات عن تنظيم اليسار الإسلاميّ، الذي كان أستاذه منذر المغيّب مسهمًا في تأسيسه، ثمّ حقّقوا معه عن كلّ مجريات حياته ابتداء من اشتراكه بنشاطات اجتماعيّة في المرحلة الثانويّة وما بعدها، مرورًا بكلّ ما جرى معه في لبنان وبعد عودته، وأكثر ما كان أحمد يخشى عليه هو ثريّا؛ إذ كانوا يسألونه، وكأنّهم يعرفون ببحثها عن سلوك السلطة الإجراميّ الذي سلّمته إيّاه في طرابلس؛ حينما زارته في طرابلس، ويعرفون عن نشاطها في الفصيل الثوريّ، كان ينكر معرفته بنشاطها السياسيّ، ولكنّ طيفها لم يكن يبارح تفكيره لحظة واحدة، كانت ترفرف إلى جانب مولوده القادم من دون أجنحة، ولكنّها غاضبةٌ منه، وإن كانت تطمئنه على حياة جنينه، لكنّها كانت تهوي على الأرض في كلّ مرّة، فيصرخ مذعورًا.

نُقِل أحمد من مخابرات القوى الجوية إلى سجن التحقيق العسكري، وأعادوا التحقيق معه، وحين انتهوا من استجوابه، ووقّع على أقواله تذكّر

أسماء من استمرّ من زملائه في العمل السياسيّ في صفوف المعارضة؛ إذ كانت ذاكرته قد لفظت أسماءهم من ساحتها في غرف التحقيق وأمام الجلّادين، ثمّ استرجعتها، حينما انتهى التحقيق معه.

بقيّ في مهجع جماعيّ لأكثر من سنة لم يحسّ فيها بحرارة الشمس سوى مرّات قليلة؛ حين كانوا يخرجون سجناء المهجع للتنفّس؛ إذ يسوقونهم في ممرٍّ طويل، مصطفّ بجانب حائطيه جلّادون، وبأيديهم كابلات يضربونهم بها؛ حتّى يصلوا إلى سلّم موصولٍ بفتحة سقفيّة يخرجونهم منها، فيستقبلهم آخرون بالضرب والشّتائم، وبعد أن يمشون دورتين في فسحة مسوّرة، ويستشعرون حرارة الشمس، يرجعونهم من الدرب نفسها إلى مهجعهم.

***

أُخرج أحمد مع عشرات من المعتقلين من زنازينهم، وأودعوا غرفة الترحيل، وفي أثناء أيام أطلِق سراح بعضهم، ثمّ كبّل أحمد مع أكثر من سبعين سجينًا، ونقلوهم بثلاث سيارات مغلقة.

لم يعرف أحدٌ من السجناء أنّهم متوجّهون إلى سجن تدمر الرهيب؛ إلّا بعد أن وصلوا إلى باديّة الشام، كانوا قد سمعوا عن الجرائم التي ترتكب فيه، وبالمقابر الجماعيّة للمعتقلين في باديّة الشام.

وصلت سيارة السجناء إلى سجن تدمر، لم يهتمّ السجّانون بتكبيلهم أو تعصيب عيونهم، أنزلوهم بالتتابع، وشرع الجلّادون يستلمون كلّ معتقل على حدة، ويتبارون بممارسة أبشع أنواع التعذيب الجسديّ والنفسيّ بهم.

صعقوا أحمد بالكهرباء؛ حتى ارتمى على الأرض فاقدًا الوعيّ، فاقترب منه الجلّادون، ورفعوه فوق رءوسهم، وشرعوا يمرجحونه، ثمّ قذفوه عاليًّا؛ حتّى ارتمى على الأرض، أحسّ أنّه يودّع الحياة، ودخل في عالم كلّ ما فيه أبيض، زاره طيف ابنته سلمى محتضنة شقيقها أو شقيقتها الذي تصوّره

ملاكًا، كانت ترفرف بجناحيها وتحلّق فوق رأسه، إلى أن مدّت إليه يديها لتعينه على القيام، فمدّ لها يده، ولكنّها غادرته، ثمّ اختفت في ظلمات سجنه، ولم يعرف كم من الوقت مضى، حينما صحى، على سقوط ثريّا من قمة جبل ووصولها جثّة هامدة أمامه، حاول أن يصرخ ولكنّه عجز، ثمّ سمع صوت معتقل بالقرب منه:

- الحمد على سلامتك...
- .....

لم يكن أحمد مدركًا مكان وجوده، بقيَّ أيّامًا عديدة على هذه الحالة، يغيب وعيّه، ويعود إليه للحظات، ولم يتيقّن أنّه في قيد الحياة، إلّا حينما بدأت رجله تؤلمه، إثر كسرٍ أصابها بعد أن رماه الجلّادون من فوق رءوسهم.

كان زميله يمسّد له رجله، فازداد الألم فيها، وارتفع صوته متوجّعًا، دخل أحد الجلّادين، ورمقه بنظرة حاقدة، ثمّ استدعى آخرون وحاولوا إخراجه لحفلة تعذيب جديدة، ولم يتمكّن من الوقوف، وكم تمنّى لو أنّه غادر الحياة قبل وصوله إلى سجن تدمر؛ وأمام عجزه عن الوقوف حملوه ومرجحوه فوق رءوسهم، ثمّ رموه من جديد داخل المهجع، أعانه السجناء على الوقوف، وركنوه في زاوية، وحالما وضع رأسه على الأرض، سمع أصواتًا غريبة أرعبته، فاستفاق عليها، ومن دون وعيّ، سأل سجينًا كان يرعاه عن تلك الأصوات الغريبة فأجابه:

- إنّها غرغرات المحكومين بالإعدام في ساحة الموت!
- .....

ظلّ أحمد في سجن تدمر أكثر من ثلاث سنوات، واجه موته فيه مرارًا، وفي كلّ مرّة كان رفاقه يهنّئونه بعودته لحياة جديدة منحها الله له.

ذاكرته انغلقت على شباب معتقلين يصدرون غرغرات الموت، وعلى

أصوات قتلة مجرمين اصطبغت باللهجة السلطوية، لم يكن يحسب نفسه أنّه من الأحياء في ذاك السجن الرهيب، إلّا حينما تتفتح ذاكرته نحو ثريّا، كان يرتعد خوفًا، كلما حضرت باكيّة تطالبه بجنينها الذي فقدته على سرير عملية إجهاضها، كان يعدها بالجنين القابع في أحشاء ميسون الذي يعينه على البقاء حيًّا، ولكنّها ترفضه وتطالب بجنينها، وتحمّله مسؤوليّة الإجهاض، كان يبكي على ثريّا، ثم يهرب منها، ويبوح لأقرب السجناء له عن أم الإبر وخيله التي خانته وماتت، وعن جدته التي أحبّته، وأمّه التي لن تموت؛ حتّى تراه، ويحكي عن ابنته سلمى بوصفها ملاذًا أخيرًا لهروبه من الموت مع مولوده القادم الذي حلم به، كان يبوح عن رفاقه شهداء المقاومة الوطنية اللبنانيّة بمواجهة الإسرائيليين.

obeikandl.com

(٢٢)

في أحد الأيام أدخل أبو ماهر ابنه إلى اجتماع لحزب الجبهة التقدّمية، وتفاجأ بهدوئه غير المعتاد، بقيّ ماهر مستكينًا طوال الاجتماع، وكان أبوه يتابعه كأنّه مدرك ما يقولونه، انسجم ماهر مع محيطه، ولم يلفت انتباه أحد لخلل في شخصيته أوعقله، أمّا أبوه فانصرف عن متابعة وقائع الاجتماع، ولم يعد يتابع ما يقولونه، بل أصبح يراقب ابنه المستكين، الذي كان يتأمّل ما يجري حوله مظهرًا دهشته مما يحدث أمامه.

انتهى الاجتماع، وأبدى ماهر لأبيه إعجابه بالذي حصل؛ إذ راق له ما يفعله الرفاق من طرح أسئلة وتلقّي إجابات من المسؤول، وأكثر ما لفت انتباهه وصول المتأخّرين عن موعد الاجتماع؛ إذ كانوا يقفون خلف الباب، ويردّدون شعار الحزب بسرعة مضحكة، ثمّ كان يقلّد حركة رأس مسؤولهم بتلقائيّة مضحكة؛ حينما كان يسمح لهم بالدخول، وكرّر ماهر أسئلته لأبيه، واتضح له أنذ ابنه استوعب كلّ ما جرى، ولكنّه كان يستتبع أسئلته بالضحك، فينظر إليه أبوه مؤنّبًا، فكان يصمت ويشيح بنظره عن أبيه، ثمّ يقلّد حركاتهم لوحده.

دُهِش الأب من حالة ماهر المغايرة لما عرفه بشخصيته، ودُهشَ أكثر من سلوكه الذي يكذّب المتوقّع طبيًّا كلّه، إذ كان ماهر قد دخل مرحلة المراهقة، وكان المتوقّع أن تزداد حالته سوءًا، ثمّ يموت مبكّرًا، ولكنّ ماهر استقامت صحّته، وأظهر قدرة اجتماعيّة تجلّت في اجتماع الحزب، عكس التوقّعات كلّها، صار يظهر للآخرين أكبر من عمره، فشاربه بدأ يخطّ فوق فمه، وحجمه ازداد طولًا وعرضًا، كان يوحي للآخرين بالثقة والقوّة والهدوء.

وبسبب ما أظهره ماهر من رغبة في حضور الاجتماعات، سمح له أبوه بمرافقته، ثمّ بدأت تتحسّن صحته؛ مما دفع الأب إلى تقديم طلب انتساب لماهر

إلى اتحاد شبيبة الثورة، وقاده إلى الاجتماع الأوّل، ثمّ صار يحضر اجتماعاته من دون مرافق، ولم يغب عن اجتماعٍ واحدٍ في قاعة الاتحاد الكائنة بمدرسة قريبة جدًّا من مكان سكنه، بل كان سبّاقًا لحضور الاحتفالات والنشاطات، إلى أن أُخضِع لدورات في محوّ الأميّة فأظهر تفوقًا، وسرعان ما أجاد القراءة والكتابة والحساب، ولعلّ ماهر لم يتخلّص من عدوانيته تجاه أهله وأقرانه ومجالسيه، إذ كان يكنّ لأمّه ثريّا وجدّته كراهيّة؛ إذ توقّف عن زيارتهما، ولكنّه لم يكن يصرّح بمنكونان صدره، فقد تعلّم كيف يخفي مشاعره، وتعلّم كيف يظهر مزيدًا من المداهنة للآخرين، مبتغيًّا استعطافهم على حالته.

لاحظ طبيب مختصّ بالطبّ الجيني تغيّر شخصية ماهر وازدياد قدراته على الاستيعاب منذ دخوله سنّ المراهقة، ولمّا لم يجد تفسيرًا علميًّا لما حصل، فقد نصح نقله إلى مركز أبحاث متقدّم للطب الجيني في لندن، ولم يكن بإمكان أبيه إرساله، لأنّ التكلفة الماديّة عالية جدًا، فطلب من ثريّا أن ترسله، فباعت أمّها قطعة من أرضهم الموروثة في الساحل، وأرسلته إلى لندن، ثمّ غطّت وزارة الصّحّة قسمًا كبيرًا من التكاليف بعد توجيهات الجهات الأمنية، إلى أن انتهت فترة دراسة حالة ماهر، فرجع من لندن، وبقيّ برعاية مستشفى تشرين العسكري اتفاقًا مع جهاز أمن الدولة، ليتحقّق من نتائج بحوث مركز لندن للطبّ الجيني، ولكن التقارير لم تذكر سوى أنّ حالة ماهر طبيعيّة، وجيناته سليمة وإن كانت نسبة الهرمون الذكري التستوستيرون زائدة لديه، ثمّ أخرجوه والتحق بأبيه من جديد، مظهرًا توقًا للاجتماعات في الحزب واتحاد الشبيبة، ناسيًّا أمّه.

***

لم يبق لثريا في تلك الفترة سوى أمّها في أثناء تلك الفترة، توفّي أبوها، وطلّقت زوجيها، وغابت عنها أخبار ابنها ماهر، وغيّب أحمد في معتقلات السلطة، شغلت نفسها بتعضيد تنظيم الفصيل الثوري الذي أصدر بيانًا

سياسيًّا دعا فيه الشعب السوريّ للاشتراك في عمليّة التغيير الديمقراطيّ، فردّ الإخوان المسلمون في حلب على إثره ببيانٍ عنوانه: (ارجعوا إلى جحوركم أيّها الشيوعيون) رافضين اشتراك شرذمة من الملحدين في الثورة الإسلامية، وفق تعبير بيانهم، الذي انتشر على نطاق واسع، أمّا ثريّا فظلّت في قلب حراك الشباب الجامعيّ السرّي، ولمّا انكشف نشاطها، الذي تمكنت من إخفائه عن أجهزة المخابرات سنوات عدّة، فقد اعتقلت للمرة الثالثة، وفي أقبية فرع المخابرات كيلت لها اتهاماتهم الجاهزة بإضعاف الشعور القوميّ ووهن نفسيّة الأمة، ورموها في زنزانة، عوملت بقسوة، وأكثر ما كان يزعجها هو محاولات الضباط المتكرّرة لاغتصابها، وإن كانت قد تمكّنت من حماية جسدها من همجيتهم البشعة، إلاّ أنها ضاقت ذرعًا في سجن النساء الذي نقلوها إليه؛ إذ وضعوها في مهجع العاهرات، إلى أن أضربت عن الطعام، فنُقلت إلى مهجع مكتظّ بنساء سياسيّات جلّهن من جماعة الإخوان المسلمين، لم يُستجَب لكلّ توسّلات أمها للإفراج عنها، ولا لتدخّلات حزب الجبهة الشيوعي، وبقيت في سجنها إلى أن تأكّد لنظام السلطة انتصاره على الشعب السوريّ، بعد أن ضاع شبابه بين طائفية النظام وفساده واستبداده وتكفيريّة التنظيمات الإسلاميّة التي رعتها المخابرات المركزيّة الأمريكية.

خرجت ثريا خاسرةً نصف وزنها، وحينما وصلت إلى بيتها لم تجد في استقبالها سوى أمّها، التي كادت أن تموت حزنًا عليها، وعرفت أن ابنها، عولجّ وأصبحت صحته على ما يرام، وعرفت أنّه متوافق مع أبيه، وهو مستقرّ لديه في بيته المؤجّر، فاتصلت به؛ ليحضره لها، ولم تكن تتوقّع أنّه غدا شابًّا؛ وكم سعدت عندما لاحظت عودة صحته إليه، حاولت أن ينام عندها، ولكنّه رفض، إذ ضاق ذرعًا بتوجيهاتها، وشعر كأنّه في سجن، وسرعان ما رجع إلى أبيه الذي رجاه أن يعود أمّه وجدّته، فرجع إكرامًا لأبيه، استضافته أمّه وجدّته، ولم يمضِ أيامًا حتّى بدأت تظهر ثآليل على بشرة وجهه، ثمّ انتشرت في معظم أنحاء جسده مصدرةً روائح كريهة، وحينما عّرضت حالته على

مشفى مختصّ بالأمراض الإنتانية، أعطوه علاجًا، وطلبوا من أمّه مراقبته في البيت، فازدادت حالته سوءًا إذ غطّت الثآليل جسمه بشكل كامل، فأعادوه إلى المصحة، عزلوه وأخضعوه لعلاج مكثّف دام بضعة أيّام، خفّت الثآليل، ثمّ احتضنته أمّه مع جدته من جديد، ولكنّ المرض عاد إليه، ثمّ غادرهما خلسةً، وطلب من أبيه أن يمتنع عن فرض إرادته عليه بالذهاب إلى أمّه، وبعد أيّام زالت الثآليل من على جسده، وبقيت آثارها التي تحولت إلى ما يشبه الحراشف، وعاش معه من دون أن يسعى للقاء أمّه، إذ عاد للانشغال باتحاد شبيبة الثورة، ثمّ تعرّف إلى أمّ الإبر، وزار حمود الذي كان يرافقه في صغره حينما كان زوجًا لأمّه ثريّا، وقليلًا ما كان يبتعد عنه.

obeikandl.com

(٢٣)

حصل الذيب ابن شطمة على شهادة دكتوراه بالفنون الجميلة من بولندا بعد غياب متواصل لأكثر من ثماني سنوات، وكان قد اشتغل في التجارة، واستحوذ على كثير من أموال التجار السوريين الذين غرّر بهم مشاركة مع زميله جابر، ومعظم الطلاب السوريين الذين كانوا يدرسون في بولندا.

ثمّ عاش حالة فزع من انتقام كثيرين ممن تضرّروا من تقاريره وظلمه، لا سيّما بعد محاولة اغتياله، فأزمع العودة إلى سوريا، أخطر فرع المخابرات بعودته، وذكّرهم بعدم وجود بيت له يأويه، فكان له ما رغب فيه، فقد صُوِّدِر منزل ريفيّ من منازل الحاج الدغريّ في حيّ أمّ الإبر الذي ربّاه، ووضع فيه الأثاث والفرش، وأوعزوا له بالقدوم.

وصل إلى مطار دمشق الدوليّ، استقبله جمعٌ من أهالي أم الإبر، على رأسهم شيخها ود. نبيه ومخبرين لأمن الدولة منهم حمود الذي اصطحب معه أخته ابنة العشرين عامًا، وحينما أسرع بعناقه مهنّئًا بسلامته، لفت انتباه الذيب أخت حمود فصافحها مبتسمًا، وتابع مصافحة مستقبليه في صالة المطار.

اقترب منه ضابط أمن؛ لحظة خروجه من بوابة القادمين، وهمس في إذنه مشيرًا إلى سيارة فارهة سوداء اللون، بلّورها مفيّم، فتوجّه الذيب نحوها، ثمّ التفت ووجد حمود يهمّ مع أخته بركوب سيارة أخرى، فدعاه لمرافقته بالسيارة، اعتذر حمود، ولكنّ الذيب أصرّ، واقترب من أخته ودفعها برفق؛ إلى أن استقرّت بجانب حمود، أقلعت السيارة، وسبقتها أخرى مشابهة لها، ثمّ تبعتها عدة من سيارات مرافقة إضافة إلى سيارات مستقبليه العديدة، فتشكّل موكب سيارات اخترق الطريق الرئيس في أمّ الإبر.

في أثناء الطريق سأل الذيب حمود عن أحواله وعن أخبار مدفن الدار، ثمّ حدّث صفاء عن بولندا وعن التقدّم الحاصل مقارنًا مع أحوال سوريا البائسة، وحينما ذكر حمود، أنّ ابن عمّته أحمد في السجن، ولا أحد يعرف عنه شيئًا، أجاب الذيب:

- أحمد كلّ عمره فوضوي، منذ كان صغيرًا لا يستطيع أن يكون عاقلًا، يريد أن يكون بطلًا من دون أن يفقه في السياسة شيئًا.
- واللّه كنت أنصحه دائمًا، ولكنه لم يسمع منّي النصيحة؛ حتى اعتقلوه، ولا أحد يعرف عنه شيئًا، أردف حمود مظهرًا شماتته فيه.

وحين وصولهم إلى أمّ الإبر طلب حمود إنزاله مع أخته صفاء أمام الدار الكبيرة، فامتنع الذيب، قائلًا له:

- يا أستاذ حمود أنتم أهلي، واللّه كنت مهمومًا؛ لأنّه لا أهل لي، ولكنَّ اللّه أرسلكم لي منقذًا.
- اللّه يبارك فيك دكتورنا، واللّه ما غبت عن بالنا طوال غيابك، ردّ حمود مظهرًا ابتسامة على استحياء.
- اللّه يسلمك يا أستاذ حمود، ويسلم هذه الصبية المستورة.

ثمّ حكى الذيب عن نفسه، وعن شهادة الدكتوراه التي يحملها، وعن أحوال الوطن المحتاج إلى رجالٍ لحمايته من المؤامرات الخارجيّة، ثمّ توجّه إلى أخت حمود، وسألها عن اسمها ودراستها فردّت عليه والخفر يغطي محياها:

- أنا اسمي صفاء في السنة الثانيّة، وأتخصّص في الأدب الإنجليزيّ بجامعة دمشق.
- ما شاء اللّه، على هذا الجمال، اللّه يحميك، ويبارك فيك يا صفاء.

ظهر على تصرّفات الذيب مزيدًا من القلق والارتباك أمام صفاء، وإزاء المنزل الذي سيحلّ فيه، الذي خبره منذ كان طفلًا، فاستذكر طفولته البائسة

في زاوية الحوش الذي كان يقيم فيه، وتذكّر إيذاء الناطور له، وشفقة الحاج الدغري عليه، وتذكّر الشعور الذي كان ينتابه فيما يختصّ بضآلة شأنه أمام مضر الدغريّ وإخوته، وبعد أن تمكّن من إخفاء ظهور دودتي الموت من منخريه؛ إذ تدرّب على التحكّم بهما في غربته، كانت السيّارة قد توقّفت، وترجّل السائق منها، وفتح بابها، ودعا الذيب للتقدّم نحو باب المنزل الذي تغيّر شكله ولونه، وتغيّرت ألوان جدرانه، عمّا كان عليه؛ حينما كان يقطن بجانب الحظيرة القريبة منه، تبعه حمود وصفاء، فتح السائق باب المنزل، وسلّم مفتاحه إلى الذيب، وبعد أن دخلوا وصل ضابط الأمن، وانزوى مع الذيب جانبًا، ثم استقبل المحتفين بقدومه وإلى جانبه حمود وصفاء.

كان منزلًا ريفيًّا واسعًا، تنوّعت ألوان قطع أثاثه وأنماطها، وتعارض ديكوره مع نظام عمارته، ولكنّ الذيب كان مندهشًا منه وفرحًا به، شكر زواره ورحّب بهم، ثم طلب الضابط من عناصره توزيع الحلويات تشرّفًا بسبب حصول الذيب على شهادة الدكتوراه ووصوله بالسلامة.

ودّعه الزائرون، وفي الأيّام التاليّة توالت زيارات أهل أم الإبر للذيب، وكثر الطامعون في لقاء مسؤولين في الدولة، الذين لا يعرفونهم إلّا حين يظهرون على شاشات التلفاز، لم يخلُ منزله من زائرين لأكثر من أسبوعين متتالين، وكانت صورة صفاء قد طغت على مخيلة الذيب راجيًّا أن يوفقه الله في الزواج منها، ثمّ استشار ضابط الأمن بالأمر، فقال له:

- تكرم يا دكتور، الطلب غالٍ ويرخص لك يا حلو.

ثمّ طلب منه الضابط تجهيز نفسه لدعوة أهل الحيّ إلى وليمة غداء كبيرة، واختيرت ساحة حيّ أم الإبر الرئيسة مكانًا لها، وكلّف حمود بانتقاء المكلّفين لإعدادها، وأضحى مقرّبًا من الذيب وملازمًا له، مثلما كان قبل مغادرته.

قبل حدث الوليمة، طلب الذيب من حمود أن يهيء لزيارة أهله لحاجته إلى استشارة أبيه وأمّه؛ الذين يعرفان شؤون الولائم أكثر منه، وبعد أن زار بيتهم،

الذي ورثته أمّ حمود عن أبيها الشيخ وصفيّ، عرفت صفاء بحسّها الأنثويّ أنّه يقصدها، فأخبرت أمّها، وأكّدت لها رفضها له في حال طلبها للزواج.

***

وُزِّعَت الطاولات في الساحة، ووصلت سيارات مطعم البوادي الأكثر شهرة في دمشق، أعجب الناس بالعمال المرتدين لباسًا موحدًا وبطريقة توزيعهم صواني الأوزي بالأرز، التي وضع على كلّ منها نصف خاروف، واتّضح للجميع البذخ في نوعية الطعام وكمياته التي يشي بملاءة الذيب الماليّة.

عند نهاية إعداد الموائد أمسك الذيب بيد حمود وأبيه، وكان بجانبهم ضابط الأمن وشيخ الحيّ والمختار، تقدّموا بضع خطوات إلى وسط الساحة، رحّبوا بالضيوف، ثمّ دعوهم؛ لتناول طعام الغداء، تقدّم، نحو الموائد بداءة، مسؤولو الدولة ورجال الدين والمخاتير، وبعد انتهائهم تقدّم بقية الحضور، وحين الانتهاء انتشر العمال، وهيئوا الموائد من جديد، ووزّعوا أطباق الحلويات الشاميّة، ثمّ وزّع كلّ ما تبقى من أطباق على أوّل الواصلين إلى سيارة المطعم، وأخيرًا توافد العمال الفقراء الذين كانوا قد وصلوا من شمال سوريا وجنوبها، وأكلوا ما تبقى وحملوا بقايا الطعام لأسرهم التي قطنت في الحدائق وخرائب أم الإبر؛ نتيجة الفقر الذي كان يزداد وضوحًا.

خلا المكان بعد انتهاء الوليمة، سوى من بضعة كلاب شاردة ظلّت تبصبص إلى بقايا الطعام، وتلتقط ما يتيسّر لها منه؛ كما توجّه بضعة من أصحاب المصالح النفعيّة مع الذيب إلى منزل آل الدغريّ المصادر، فقُدّمت لهم ضيافات باذخة بإشراف حمود، ثمّ لفت انتباهه. الذيب صبيًّا على وجهه آثار بثور شبيهة ببثور الجدري، كان يلازم حمود، ولكنّ نظره مثبّت باتجاه الذيب أينما تحرّك، فسأل حمود عنه، وعرف اسمه ماهر، وهو ابن زوجته السابقة ثريّا، وأضاف أنّ مستقبلًا زاهرًا ينتظر هذا النابغة، بناءً على ما عبّر عنه حمود.

نسيّ الناس موبقات الذيب، ونسوا أفضال المرحوم الحاج الدغريّ عليهم، ونسوا أنّه من أنقذ الذيب من الموت بعد أن اختفت أمّه شطمة المجنونة، ونسوا الذي رعاه وعلّمه، نسيّ الناس أنّ الذيب هو سبب مقتل ابنه مضر وسبب تهجير أبنائه الآخرين وسبب تغييب ابن ابنته تحسين، إلى جانب المئات من الذين وشى بهم، فاعتقلوا أو أعدموا أو هجّروا، في تلك الفترة بدأ الناس يهربون من ذاكرتهم، ويلهثون وراء المال بأيّة طريقة.

***

زار الذيبُ شيخَ حيّ أم الإبر مصطحبًا معه المختار، وأخبره برغبته في الزواج من صفاء أخت حمود، فوجئ الشيخ وداهمته غصّة، ولم يعرف كيف يجيبه؛ لأنّه يعرف حكاية أمّه، وولادته المبهمة، وكيف عثروا عليه أمام المقبرة، ولا يمكن أن يستقيم زواجه من صفاء الموصولة عن طريق أمّها بعائلة يعدّها كريمة، لكنّه آثر التكتم عن هواجسه التي راودته، وقال له:

- توكّل على الله يا دكتور، قدّر الله الخير.
- الله دائمًا يقدّر الخير يا شيخ، نحن جئناك لترافقنا إلى بيت الجماعة الآن، أجابه الذيب مشدّدًا على مخارج حروف كلماته.
- أريدك أن تعفيني اليوم يا دكتور، بحضّي أنا تعبان، إن شاء الله غدًا نذهب لعند الجماعة، قال الشيخ متمارضًا.
- لا يا شيخنا، أخبرنا الجماعة، والأمور جاهزة، ردّ الذيب.
- أنا من رأي الدكتور، يا شيخ جهّز نفسك لنصل باكرًا، قال المختار، فردّ الشيخ بصوت ضعيف:
- يعلم الله، أني مريض، ولا أستطيع اليوم يا مختار...

قاطعه الذيب، ولم يرتض عذره، كاشفًا عن شراسته، ثمّ بلّغه وجود ضابط الأمن معهم في الزيارة، وأنّه ينتظر خبرًا ليلتحق بهم لدى بيت أهل العروس، ثمّ أردف:

- يا شيخ أنا لا أحبّ أن يغضبوا منك، مصالحك كثيرة، ولا يجب أن تجعل أحدًا يعطّلها.

بعد أخذ ورد، وحوار تضمن ترهيبًا أكثر مما فيه من ترغيب، أذعن الشيخ لطلبه، ورافقهم؛ لطلب يد صفاء للدكتور الذيب ابن شطمة.

في تلك الأمسية الحزينة تردّد أهل صفاء في قبول خطبتها من الذيب، ولكنّ وصول ضابط المخابرات، جعل أباها ينهي حالة التردّد، على الرغم من إعلان رفض صفاء القاطع للذيب، كونها مرتبطة برجل آخر، حسبما صارحت الجميع به، ولكنّهم ضغطوا عليها لقبول د. الذيب من دون أن يدققوا على اسم حبيبها الحقيقيّ. وقبل حفلة الخطبة كرّرت صفاءُ على مسامع الذيبَ عدم قدرتها على الارتباط به وصارحته بحقيقة أمر تَعلّق قلبها برجل آخر، إلّا أنّه تغافل عن كلامها، وأظهر مزيدًا من التمسّك بها.

أعلنت الخطوبة، وشرع الذيب في مرافقة أهل صفاء لشراء أثاث البيت وتجهيز العروس، وأسرف في النفقات بمبالغ ماليّة طائلة، وشرع بترتيب حفل الزفاف، ثمّ أشرف حمود على توزيع أكثر من ألف بطاقة دعوة على أعيان أم الإبر والمسؤولين في دمشق وريفها، معتمدًا بشكل رئيس على ماهر الذي كان قد تعلّم الكثير من ضباط الأمن الذين عرفهم عن طريق أبيه، ومن اتحاد شبيبة الثورة؛ إذ صار له شأنٌ في نشاطاته المتنوّعة، وحُجِزَت صالة فخمة في نادي ضباط المدينة، وأقاموا حفل الزفاف فيه، وقضوا سهرة من سهرات ألف ليلة وليلة، ثمّ غادر العروسان إلى مصر؛ لقضاء شهر العسل، وبعد عودتهما أقاما في منزل آل الدغري المصادَر، ولم يكن يخلو يومًا من المباركين من أهل أم الإبر طوال أكثر من شهر.

(٢٤)

بعد افتتاح سجن صيدنايا كان أحمد من جملة بضعة مئات من المعتقلين الذين نقلوا إليه من سجن تدمر العسكريّ، شعر أن حياة جديدة منحت له، ولكنّه لم يستطع أن يرجع لطبعه الاجتماعيّ السابق قبل تجربته الرهيبة في الاعتقال؛ صار يهرب من مجالس المعتقلين الذين يتحادثون عن حيواتهم وآمالهم وأحلامهم، ولم يعد يسمع سوى صرخات الغضب متناوبةً مصادرها في أحشائه التي تتمزق، وتتفجّر داخله، كانت وجوه شباب إدلب وحمص وحماه وحوران وحلب وريف دمشق... وقاماتهم من السوريين، تلتمع فجأة أمام ناظريه، بعد أن تمرّ بطيئة في دروب مظلمة آتية من عمق الجلجلة السورية، كانت تصله قسمات وجوههم متزاحمة في ذاكرته؛ حتّى يصل إلى لحظات سوقهم إلى الإعدام، فتحضر غرغراتهم قبل الموت، فيغصّ، ويشهق، ويحاول الهرب من ذاكرته؛ حتّى لا توقظ في نفسه مرارة موت السوريين، ولكنّه لم يمتلك القدرة على النجاة من الغرق في بحر أحزانه التي كانت أمواجه تتلاطم داخل دماغه.

في ذات يوم استيقظ أحمد في مهجع اليساريين على أصوات سجناء جدد، أدخلوا بالمئات؛ حتّى غصّ المهجع بهم، وسرعان ما عرف أنّ جلّهم إسلاميون جلبوا من طرابلس لبنان وغيرها، منهم: فلسطينيون و وآخرون لبنانيون وسوريون، معظمهم من حزب التحرير الإسلاميّ وحزب التوحيد، وقلّة من (الإخوان المسلمين) الذين استمرّت ملاحقة أعضائهم وإعدامهم بموجب القانون ٤٩ الذي صدر ١٩٨٠م، لم يكن أحمد متديّنًا، بل كان محسوبًا على اليسار؛ لذلك لم يحكم عليه بموجب القانون ٤٩ سيء الذكر، بل اكتفوا حكمه وفق المادة ٣٠٦ من قانون العقوبات، بتهمة محاولة قلب كيان الدولة،

ولم يتمكّن من معرفة مدة الحكم، إذ بموجبها تحكم محكمة أمن الدولة الاستثنائية المتهم بين ٣ — ١٥ سنة، ثمّ عرف أن كثيرين حكم عليهم بموجب هذه المادة، ولكنّهم بقوا في السجن أكثر من المدة التي حكمت المحكمة بها، بل فاقت المدة القصوى بسنوات عديدة لكثير من المعتقلين.

حالما تعرّف أحمد إلى بعض نزلاء السجن الجدُد؛ نتيجة وجوده السابق في لبنان، سأله أحدهم، وهو: شادي رفاعي، الذي كان ملتحيًّا ومرتديًّا جلبابًا، على غير ما عرفه أيام وجوده في طرابلس؛ إذ كان يساريًّا متطرفًا، وممن راقت لهم حركة الهيبيين الأوروبيّة التي انتشرت في سبعينيات القرن العشرين، سأله شادي عن تنظيمه، فحكى له أحمد عن حزب اليسار الإسلاميّ وتنظيم الفصيل الثوريّ، الذي ضمّه مع بضع عشرات، ثمّ سأله شادي عن عدد البنادق التي يمتلكونها، فاستغرب أحمد سؤاله، وقال له: إنّه ورفاقه يعتمدون الكفاح السلميّ؛ مما جعل شادي رفاعي يقهقه بصوت مرتفع، فاندهش أحمد، وقتذاك، لا سيّما حينما تحوّلت فكرة سلميته إلى مثار سخريّة على ألسنة الشباب الإسلاميّ:

- قلت لي تريد أن تخلص من حافظ الأسد بالكفاح السلميّ،...
- عيش يا كديش لينبت الحشيش،... وهكذا من التعليقات التي أشعرته بالعار والخزي.

ولم يرتح أحمد من تعليقاتهم وهزلهم على أفكاره السلميّة، إلّا بعد أن شرعوا في تعلّم القراءة والكتابة، لكون كثير منهم أميّين، وكان أحمد أحد أهمّ الأساتذة في تعليمهم وتخليصهم من أميّتهم.

كان شريط من الذكريات يجول في خاطرأحمد كلّ يوم، حالما انزوى وحيدًا في ليل سجن صيدنايا، وأكثر ما كان يقلقه محاولته إجراء عملية الإجهاض لميسون، كان يرتعب بمجرد ورود فكرة الإجهاض في تفكيره، وكثيرًا ما كان يتساءل: ما هو مصيره؟ هل أجهضت ميسون الجنين أم بقيّ حيًّا؟

وإذا كان قد جاء إلى هذه الدنيا، أهو ذكر أم أنثى، وما اسمه، أو اسمها؟ هل سمح سليمان بإجراء العملية؟ وإذا كان قد وصل إلى الحياة، فالآن يجب أن يكون أو أن تكون بالروضة، وأنّ تكون أخته أو أختها سلمى، التي تركها طفلة، فتاة جميلة في أواخر سني مدرستها الابتدائيّة؟ ثمّ كان يلتبس عليه الأمر حال دخوله في نفق أسئلته، هل عادت ميسون إلى لبنان أو بقيت في أم الإبر؟ أين أنت يا سلمى؟ كان شريط الذكريات يحضر قبيل تسليم نفسه للنوم، وكان يبكي بصمت، ولم يكن يتذكّر زوجته ميسون، سوى رفقتها له في أثناء عودته من عيادة الطبيب الذي اتفق معه على إجراء عملية الإجهاض، كم كان يستدعيه الحنين لابنته وجدّته نعيمة؛ ويبكي لعدم قدرته ضمّهما، وكان يعود له مشهد ميسون وقريبه في ذلك اليوم المشؤوم، الذي تبدّت له صورة ابنه القادم من غياهب الزمن الغادر محمولًا على جناحي ملاك، الجنين الذي كان من المتوقّع أن يُجهض صباح يوم مضى عليه أكثر من خمس سنوات، كان يستأنس صدى صوته الآتي من عمق مآسيه في سجنه قائلًا له:

- ها أنا ذا، يا أبي، بابا... بابا... أتقتلني وأنا لم أتكوّن بعدُ؟...

فيقول بسرّه:

- لا لن أقتلك، أنت نور حياتي.

فيأتيه طيف ثريَّا، يظهر بأشدّ حالات غضبها، تطالبه من جديد بجنينها الذي أجهضته، وتحمّله مسؤوليّة ضياعها، يقترب منها محاولًا ضمّها، إلّا أنّ أبيها يسبقه إليها في كلّ مرّة، يضمّها بذراعيه الطويلتين، ويخطفها منه، وتغيب معه في ظلمات كان قد أدرك رائحتها في مدفن الدّار الكبيرة، فتخرج له ديدانه السوداء المصفّرة بلون الموت، فيصرخ صرخة يوقظ بها سجناء مهجعه، يحاول بعضهم تهدئته، وآخرون يشاركونه البكاء والنحيب، ولكنّه لا يهدأ حتّى يجلس بالقرب منه الشيخ عثمان، ويشرع بتحفيظه آيات من القرآن الكريم.

مُنعت الزيارات عن أحمد، ولكن لم يفقد أحدٌ الأمل بخروجه الوشيك من السجن، وظلّت ميسون منتظرة عودته مع سلمى ويحيى، ثمّ ضاقت بها وبولديها الدنيا؛ إذ كان يضايقها صاحب السند الماليّ، الذي كان أحمد قد اقترض المال منه قبيل سجنه، وكان يأتي برفقة حمود بفترة غياب سليمان وأخوته في البستان، ثمّ طردته، وأخبرت سليمان بمضايقاته.

يومها، لم يتباطأ سليمان بالذهاب إلى ذلك الشخص، الذي أضحى مرابيًّا معروفًا في أمّ الإبر؛ أخرجه من بيته، وأمسك بشاربه الكثّ، وسحبه منتحيًّا به جانبًا، بصق في وجهه، وهدّده بالموت إذا استمرّ بمطالبة زوجة أحمد بالنقود مرة أخرى.

لم ينبس ذاك الرفيق الشيوعيّ بكلمة واحدة أمام سليمان، لكنّه، في اليوم التالي، قدّم دعوى مستعجلة إلى القضاء مطالبًا بقيمة السند، ودعم شكواه بتدخّل الذيب ابن شطمة، مما استلزم من أهل أحمد تأمين المبلغ مع فوائده وإعادته إليه.

أمّا حمود فاستمرّ يزور الدار الكبيرة، بحجّة قرابته العائليّة لأهلها، وكان يقصد لقاء ميسون، وفي ذات مرّة افتخر بأنّه درزيٌّ، أمام ماهر الذي كان يرافقه أحيانًا، وأنّه تعرّف على أخيها نمر في لبنان، وأخبرها أنّه يفكّر بدعوته لزيارة سوريا، كان كلامه بمثابة تهديدٍ لها بأهلها الدروز الذين قد يكونون غضّوا النظر عنها هربًا من قيام أحدهم بجريمة شرف حسب عاداتهم، فقالت له ميسون:

- لا... لا... لا تدعوه، انتظر؛ حتى يطلق سراح أحمد من السجن، أرجوك يا حمود. فأجابها شامتًا:
- أحمد؟ ومن قال لك سيخرج من السجن، قضيته كبيرة كثير يا ميسون، لازم تنتبهي لحياتك، لا تربطي مصيرك بمصيره.

- على كلّ أحمد أبو أولادي، ونحن ننتظره، ومن الممكن أن يُسمح لنا بزيارته حسبما أخبرني سليمان، ردّت ميسون على حمود.

ازداد تواجد حمود في الدار، وازداد إظهار المودة لميسون؛ بقصد التحرّش بها؛ ثمّ طردت سلمى ربيبه ماهر الذي أضحى حاملًا حراشف على بشرته، حينما اقترب من يحيى محاولًا اللعب معه، وأخبرت عمر عمّا جرى معها، فوعدها أن ينتقم لها، ولم تمضِ أيامًا حتّى جاء حمود إلى الدّار، ولم يجد ميسون، وعرف أنّها تدبّرت أمورها مع ولديها، واتفقت مع أهل زوجها للرحيل إلى لبنان، ريثما يخرج أحمد.

***

وصلت ميسون مع ولديها سلمى ويحيى إلى بيروت، لم تتوجّه إلى بيت أهلها في عاليه، بل توجّهت إلى بيت مسؤول الحزب التقدميّ الذي ساعد في زواجها من أحمد، أخبرته بكلّ ما مرّ معها ومع أحمد من أحداث، ثمّ اتفق معها على إخبار أهلها عن اعتقال أحمد، واستمرارها بإخفاء هويته الدينية عنهم، وطمأنها أنّه سيقوم بمراقبة كلّ ما يمكن أن تتعرّض له مع ولديها عن طريق أمن حزبه.

احتفل أهل ميسون بوصولها مع ولديها، وعاتبوها على عدم زيارتها لهم طوال تلك السنوات، وعدم الاتصال بهم لطمأنتهم عنها، وعرفت أنّهم سمعوا باعتقال أحمد، ولكنّهم، لا حول لهم ولا قوّة؛ في لبنان، كما ذكروا لها معرفتهم بحمود الذي تعرّف إلى أخيها نمر بأحد الأنشطة السياسيّة المشتركة في بيروت؛ وأنّهما تواعدا على التواصل مع بعضهما؛ وكان أخوها ينتظر هاتفًا من حمود لزيارتها.

في أثناء أسبوعين أمّن لها مسؤول الحزب التقدّميّ عملًا في طرابلس وشقّة سكنيّة قريبة من موقع عملها، لتربّي طفليها بعيدًا عن عاليه وعن أمّ الإبر، وأرسل من أقنع أهلها بأهمية عملها، فسمحوا لها بمغادرتهم من جديد، وأقامت بطرابلس مستقلّة مع ولديها وبعيدة عن المخاطر.

(٢٥)

رافقت ثريّا أمها في رحلة إلى قريتهما في الساحل السوريّ، بعد خروجها من السجن، وقبل انقضاء أيام شهر رمضان بنحو أسبوع، كانتا مرهقتين، وطلبتا الراحة في أجواء القرية، لا سيّما قلق ثريّا الكبير بعد تجربتها الأخيرة مع ابنها الذي كانت صحته تنتكس كلما اقترب منها، ويتماثل للشفاء بقرب أبيه، كما قررت الأمّ بيع قطعة أرض؛ بغية شراء سيارة حديثة لثريا بدلًا من سيارتها الصغيرة.

لم تكن ثريّا تتوقّع حجم عداء أهل قريتها لها؛ نتيجة مواقفها السياسية المعارضة للسلطة، إذ اكتشفت أنّ الجميع يعرفون أمر اعتقالها، والجميع يندهشون كيف تسمح لنفسها بمعاداة السيد الرئيس وهي ابنة الطائفة العلويّة، وتيقّنت أنّ نظام الحكم تمكّن من تسخير الطائفة العلوية وتوظيف عيوب أنسقة المخطوطات الدينيّة، التي لا تزال منتشرة بين أبنائها المحرّضة على كراهية الآخر وعلى الكذب والتقيّة وتصنيع الطغاة وتأليههم ومعاداة المرأة؛ لتقويّة نظام حكمه الشموليّ الفاسد، وكان معظم أهل القريّة يتجنّبون السلام عليها، كما تلقّت منهم الإهانات، ولكنّها لم تستكن لهم، فكانت تردّ إهاناتهم بسخريّة على حياتهم الخاويّة من المعنى، وظلّت تعبّر عن رأيها صراحة بالسلطة الفاسدة والمجرمة؛ إلى أن ضاقوا ذرعًا منها، وضاقت ذرعًا منهم.

بعد ثلاثة أيام من وصولها إلى القرية، اتفقت مع أمّها على الرجوع إلى دمشق، على أن تبقى الأمّ بالقرية إلى أول أيام عيد الفطر، وضعت ثريّا حاجياتها في سيارتها الصغيرة، وأخذت مبلغًا كبيرًا من المال، وغادرت القرية.

بعد وصولها إلى دمشق اتصلت بأمّها وطمأنتها، وعبّرت لها عن محبتها، وطلبت منها ترك كل شيء والرجوع إليها؛ لأنّها قلقة، وتشعر بافتقادها لها،

ثمّ أخبرتها الأمّ أنّها تحتاج بعض الوقت؛ لتنهي بيع الأرض، ثمّ حكت ثريّا لأمّها حلمًا تراءى لها في أثناء غفوتها:

- لا أعرف يا أمي، لماذا يحضرني أحمد في أحلامي ويقظتي، جاءني في الحلم، يده كانت ممتدّة نحوي، فمددت يدي؛ لملاقاته، وكادت أن تلتقي بيده، ولكنّ يدَ أبي ماهر فصلت يدي من إبطها، ثمّ وصل أبي، وتمكّن من وضع رأس أحمد على حافّة الرصيف، وحزّ عنقه بسكين حادّة، جرى دمه يا أمي؛ حتى فاض عن الطرقات، وأغرق أرصفة المدينة، ثمّ دخل إلى المحلات والبيوت، صار دمه بحرًا يغوص فيه النّاس، وصاروا يتغذّون منه، يشربونه بكؤوس الموت، ورأيت ديدان سوداء عليها بقع صفراء تخرج من منخري أبي ماهر... ثمّ أمسك أبي بيدي وأخذني معه، ورأيت... أوقفتها أمّها عن الاستمرار في الحكي، شهقت وقالت لها:
- لا تكملي يا ثريّا، الله يجبرك، هذا كابوس شيطانيّ، انتبهي لحالك سأتصل بك كلّ ساعة، وأنا مسافرة إليك بأول واسطة نقل تتوفّر لي، سأكون عندك يا روحي في أقرب وقت، حماك الله، يا عيوني، أغلقي النوافذ والأبواب بشكل جيّد، لا تفتحي الباب لأحد.

ودّعت ثُريّا أمّها هاتفيًّا، وهي تنشج، أغلقت سمّاعة الهاتف، ثمّ اتصلت بصديقتها ناديا؛ لتلتقي معها في مقهى القنديل.

اتصلت الأم مساء، ردّت ثريّا، وأخبرتها أنّها ستخرج إلى المقهى مع ناديا، وستعود متأخّرة، فأوصتها الأمّ بأن تتصل بها عند عودتها، انتظرت الأمّ، ولم تتصل ثريّا بها، فأرقت، وكرّرت الاتصال بابنتها؛ حتّى ساعة متأخرة من الليل، ولم تجبها، فأسرعت بإيقاظ أخيها، وطلبت منه مرافقتها إلى محطّة الباصات، وقبيل الفجر انطلق الباص، ورجعت الأمّ إلى دمشق، وهي بحالة من القلق المضني.

***

وصلت الأمّ صباحًا، كانت سيارة ثريّا مركونةً أمام البيت، فاستبشرت خيرًا، وفتحت باب الشقّة، فلفحت وجهها حرارة ممزوجة برائحة الدم، أسرعت وفتحت أبواب الغرف ونوافذها، ثمّ حاولت فتح باب الحمام فوجدته مقفلًا، دفعته بكتفها، ففشلت بفتحه، وذهلت من رؤوس الديدان السوداء التي اطلّت عليها من شقوق الباب، ارتدّت نحو باب الشقّة، وهي تصرخ من دون وعيّ، سمعها الجيران، دخلوا الشقّة، وخلعوا باب الحمام، ليجدوا رأس ثريا مفصولًا ومعلّقًا فوق جسدها المرميّ على أرضيّة الحمّام الطافحة بدمائها، صرخت الأمّ صرخة مدوّية اخترقت الجدران، ووصلت إلى آذان المدينة التي لبّت دعوتها، فتصاغرت جوامعها وكنائسها وناسها الطيبون؛ حتّى دخلوا حمّام ثريّا، حمّام الموت الذي استمرّ نزفًا، حمّام الموت الذي أراد أن يصنّع وطنًا بحجم توابيت الطائفة والقبيلة والحزب والأب القائد، حمّام الموت الذي لفظ ثريّا خارجه، لأنّها كانت أكبر منه بكثير، ثريّا التي بقيّ رأسها المعلّق فوق جسدها عنوانًا للموت الذي يعيشه أهل المدينة تحت أجنحة ظلام دامس، غابت الشمس عنها وعن أمّها المغمى عليها، التي أسعفها جيرانها، وأبقوا المدينة متحدّة مع روح ثريّا المودعة في حمّام الدمّ شاهدة على اختفاء الضوء عن الوجود.

حضر رجال الشرطة، كتبوا ضبطًا، وصفوا فيه مشاهداتهم؛ التي ضمّنوها اتهامًا لشخص اسمه أحمد؛ إذ وجدوا اسمه على لوحة مؤرّخة منذ أكثر من عشر سنوات؛ مكتوب عليها: «يروق لي تمرّدي فأشتهي تمرّدًا؛ حتّى على التمرّدِ» التوقيع: أحمد، وتحتها كتب بخطّ رديء: «تمرّدي يا ثريّا، الآن، بقدّر ما تستطيعين» كتبها القاتل، وحشرها إلى جانب رأس ثريّا المفصول عن جسدها.

استُدعيّ الطبيب الشرعيّ، وكتب تقريره الذي يثبت أنها تعرّضت لجريمة قتل بأدوات حادّة، واشترك بقتلها كثرةٌ، ثمّ فُصِلَ رأسها عن جسدها، قبل إيداع جثمانها حمّام الدّم الذي امتصّ أحزان المدينة بأسرها.

بقيت أمّ ثريّا غائبة عن الوعي، استدعوا أخاها، وطليق ثريّا وابنها، وصل

الخال أولًّا، وجد بيت أخته مغلقًا، أخبره جيرانها أنّ جثمان ثريّا نقلوه إلى مستشفى تشرين العسكريّ، وسبقتها أمّها إلى العناية المشدّدة وهي تنازع الموت، أسرع خال ريّا، وزار أخته التي كانت غائبة عن الوعي، حاول أن يحكي معها فلم تستجب، ثمّ توجّه إلى إدارة المستشفى، فوجد ابنها ماهر وأباه أمامه، قدّم الأب التعازي له، وأرشده لاستلام جثمان ابنة أخته، أمّا ماهر فلم تكن ملامح وجهه معبّرة عن حزن على وفاة أمّه.

أقام خالُها مجلس عزاء لثريّا في قريته القابعة في بطن جبل بالساحل السوريّ، حضره بضعة أشخاص من الرجال والنساء، وكان ابنها ماهر من الذين وقفوا في مجلس العزاء، أمّا أبوه فانتظره خارجًا؛ حتّى انتهى الدفن، ممتنعًا عن حضور طقوس الدفن، ثمّ التحق ماهر بأبيه مباشرة بعد دفنها بجانب قبر أبيها، وغادروا من دون كلمة وداع.

***

لم يقم ماهر أو أبوه بزيارة أم ثريّا في المشفى، حسبوا أنّها ستموت؛ حتّى عرفوا أمر شفائها، وحالما نُقلِت إلى منزل أخيها في القرية؛ لتكمل ما تبقى لها من حياتها البائسة، زارها ماهر مع أبيه؛ ليحصل على نصيبه من الإرث، أمّا أمّ ثريّا فقد فقدت أيّ شعور بانتمائهما لها أو بانتمائها لهما.

وكّل الخال والأمّ محاميًّا لمتابعة قضية ثريّا على الرغم من قناعة الجميع بعدم جدوى القضاء في وطن أريد له أن يكون قبرًا بحجم الفساد والتخلّف والاستبداد والطائفية، قبرٌ يمتدّ ويمتدّ تحت عتم ليل أسود مفارق ضياء الشفق الذي كان مسكونًا بثريّا الشهيدة.

ظلّت أمّ ثريّا حبيسة غرفتها لدى بيت أخيها بقريتهم، وكانت كلما تذكرت منظر الديدان التي امتدّت نحوها من حمام الدمّ الذي احتوى ثريّا في حي تشرين، تراءى لها وجه قائد الأمّة مرتديًّا برقعًا مفعمًا بصور الديدان، كانت

تصرخ ألمًا، فيأتيها أصداء أهل قريتها ضحكات مفعمة بالسخريّة منها ومن ابنتها ثريّا، فتدخل في غيبوبة، إلى أن يُحضِر أخوها لها طبيبًا، يحقنها حقنة مهدّئة فتصحو، وتغادر في اليوم التالي نحو مكتب المحامي، لتسأله عن قضيّة ابنتها، فلم يكن جوابه سوى وعود بملاحقة القاتل، وأنّ في المحكمة قضاة يرتشون يحتاجون إلى أموال، حتّى يقفوا مع قضيتها، فكانت تبيع من أملاكها وتعطي المحامي للاستعجال بالقصاص من قتلة ابنتها الشهيدة ثريّا، التي لم يبقَ لها منها سوى صورها معلّقة على حيطان غرفتها أمام ناظريها؛ التي كلّلتها بشرائط سوداء، أمّا المحامي فكان يدرك أنّ القضاء لن يستطيع من محاكمة مجتمع ينخره الجهل والفساد والطائفيّة مهما كان قويًّا، فكيف إذا كان فاسدًا؟!

obeikandl.com

(٢٤)

مرّت نحو خمس سنوات على سجن أحمد، حينما اُستُدعيّ الذيب إلى فرع المخابرات الجوية، وهناك أبلغوه أن أحمد قضى في السجن، ويريدون تسليم جثمانه إلى أهله، كلّفوه بالاتصال بهم وإبلاغهم وتحديد موعد تسليم الجثّمان.

دعا الذيبُ حمودًا والمختار والفاعلين في جمعية التراث الثقافية، واجتمعوا مع شيخ حيّ أم الإبر في منزله، ومن دون مقدّمات نقل الذيب خبر موت أحمد، ونقل ما طلبه منه ضابط أمن رفيع المستوى، اعترض شيخ أمّ الإبر على طلبهم بعدم فتح التابوت، وألحّ بأسئلته المكرورة عن سبب الموت، ولم يتلق جوابًا، ثمّ اتفقوا معه على إرجاء البتّ في أمر فتح التابوت لما بعد حضور مندوبي الحكومة، فترحّم الشيخ على روح أحمد الطاهرة، وقرأ الفاتحة مع الآخرين، الذين حوقلوا بدورهم وتعوّذوا من الشيطان، وطلبوا من حمود، بصفته قريب لأهل أحمد، الذهاب إلى الدّار وإبلاغ أهله بقدومهم مع الشيخ؛ للتشاور معهم فيما يختصّ بخبر موت ابنهم.

رافق ماهرُ حمودًا، ولكنّ الأخير طلب منه انتظاره خارج الدّار الكبيرة، تحسّبًا من عدم رضا أهل الدّار استقبال غريبٍ، لا سيّما كونه لا يعرف كيف ينطق بغير لهجته القافيّة الملازمة لأهل الجبال، غير المقبولة من لهجة أهل المدن السوريّة، قرع حمود باب الدار، فأدخله عمر الذي أضحى طالبًا جامعيًّا إلى قاعة الضيوف، ولمْ يتجرّأ حمود على تبليغه عمّا جاء من أجله، ثم سأله وهو يتأتيء:

- سليمان موجود؟

- لا أعرف...، قالها عمر باستياء.
- طيب أمك موجودة؟
- ماذا تريد من أمي؟ احك ماذا تريد؟ ردّ عمر مستنكرًا.
- ضروريّ أن أقابل أحدًا من إخوتك الكبار لأمر يخصّ أخاك أحمد. قال حمود وقد ازداد توتّره.
- ما به أحمد؟ احكِ، هذا أنا أمامك، أسمعت أيّ شيء عنّه؟ متى سيخرجونه.. أولاد الكلب من السجن؟ احك ماذا تعرف عن أحمد؟ سأل عمر متوجّسًا، فردّ حمود مرعوبًا:
- اصبرْ يا عمر، لا بدّ أن أرى أحدًا من إخوتك الكبار أو أمّك.
- هذا أنا أمامك، إذا كان هناك دعاية جديدة أبلغنا عنها، تعوّدنا سماع كذبكم، مرّة قلتم: أخلوا سبيله، وهو على الطريق، ومرة: استشهد، ومرة: قابع في تدمر، ومرة: في فرع القوى الجوية، وآخر خبر أنّه في سجن صيدنايا، لقد دفعنا ملايين حتى نزوره، واكتشفنا أنكّم كذّابون وعرصات، اليوم ما هي الدعاية الجديدة، انطق بالذي كلفوك به أسيادك، انطق يا عرص، وإلّا جعلتك تنطق رغمًا عنك بالقوة.

كان صوت عمر يعلو من دون إرادة منه، حتّى استقام وانقضّ على حمود، أنهضه عن كرسيه، وأسنده على الحائط، وضغط بكفيّه حول رقبته، وصرخ به:

- احك، قبل أن أسحب لسانك من فمك، ما هو الخبر الذي كلّفوك بتوصيله هذه المرّة؟ انطق قبل أن أبتلي فيك، احك قبل أن أسحب حنجرتك من محلها...

تلعثم حمود بالحكي، ثمّ جحظت عيناه، ومطّ لسانه جانب فمه، ولم يستطع أن ينطق، استمرّ عمر بهزّ حمود بقوة، وهو يبصق على وجهه؛ إلى أن

سمع أهل الدار صوته الهادر، فدخل أخوه سليمان، واستطاع أن ينتزع حمود من بين يديه، أبعده، وأخرجه من القاعة وهو يعنّفه، كان الزبد يخرج من فم عمر، وهو يتوعّد حمود وجماعته بالقصاص منهم:

- واللّه يا حمود إذا حدث شيء لأخي أحمد لأشرب من دمك أنت ودم كل العرصات أسيادك...

ولم يصمت عمر؛ حتّى صفعه سليمان بقوة على وجهه، ثم ثنّى صفعته بنطحة من رأسه، ولكنّ عمر بقي منتصبًا ومتحديًّا الجميع، قائلًا لهم:

- واللّه إذا حدث شيء لأحمد لن أسامح أحدًا، كلّ عمركم تتآمرون عليه.

اقتربت منه أمّه، ومسحت على رأسه واحتضنته، ثمّ رافقته، وأدخلته إلى غرفة جدّته نعيمة، التي تحرّكت من سريرها، وبصوتها الضعيف نادت:

- تعال يا قلبي، تعال إلى حضني، متى فكّوا أسرك ياعيوني، متى خرجت من السجن؟

اختلط عليها الأمر بين أحمد وعمر، فصارت تهذي بأحمد، واستأنفت:

- أطعمت فرسك الرمانات يا عيوني؟ أين وضعت الرمانات؟ لا تُغضب فرسك منك يا قلبي...

بكى عمر واحتضن جدته، قبّلها من رأسها، ثم عادت أمّه تهدّئه من جديد قائلة:

- أحمد بطل، ولم يؤذِ أحدًا طوال عمره، لا تتشاءم، اصبر يا عمر، وتوكّل على اللّه.

تخلّص عمر من بين يدي أمّه، ومال نحو جدته نعيمة منتحبًا:

- واللّه يا ستّي لن تستطيعي أن تريه لأحمد، من الممكن أن يكونوا قتلوه...، سحبته أمّه من حضن جدته، وأخرجته وهي تواسيه، مؤكّدة له؛ أن أحمد لا يمكن أن يموت.

***

أخرج سليمان الجميع من القاعة، وبقيّ مع حمود وحده، ثمّ سأله:

- خير يا حمود ما القصة بينك وبين عمر؟
- لا أعرف ما حلّ به، قد يكون غضب، لأنّي طلبت أن أحكي معك، ولم أكلّمه.
- على كلٍّ، ما المشكلة يا حمود، ما الموضوع الذي تريد أن تتكلّم فيه معي؟

تلعثم حمود أمام سليمان، وعجز عن نقل الخبر لسليمان، ثمّ صمت برهة، وحينما عبّر سليمان عن هواجسه ومخاوفه على أحمد، خلّص حمود نفسه قائلًا:

- لا أعرف شيئًا، لكن أخبرني الشيخ أن أبلغك أن تذهب إليه الآن.
- وماذا يريد الشيخ مني يا حمود؟
- لا أعرف، لكن عنده اجتماع لوجوه الحي، ردّ حمود؛ وهو يتأتيء مرتجفًا.
- عن أيّ شيء يدور الاجتماع، هل تعرف يا حمود؟ سأل سليمان.
- لا أعرف، أرسلني الشيخ؛ لإبلاغك ضرورة الذهاب إلى بيته الآن.

نادى سليمان أخاه إبراهيم وأطلعه على الأمر، فبقيّ واقفًا متوجّسًا، وسأل حمود بعد أن ثبّت نظره بعينيه بقوّة:

- ما المشكلة يا حمود، بالتأكيد أنت عارف أنّ الاجتماع يخصّ أحمد؟
- احتمال؛ لأنّ الذيب والمختار وجمعة كبيرة موجودون عند الشيخ.

- ما الخبر؟ هل تعرف يا حمود؟ سأله إبراهيم.
- لا لا.. لا أعرف، والله العظيم لا أعرف، على كلّ: أنا أخبرتكم ولا بدّ أن أمشي، ووقف، فانقضّ إبراهيم عليه، وقال له حانقًا:
- ليت عمر خلّص عليك يا واطي، والله إذا حدث شيء لأحمد، لأعمل رأسك شقفتين، ثم بصق في وجهه، ودفعه للجلوس على الكنبة.

تدخّل سليمان من جديد، وأخرج إبراهيم من القاعة، ثمّ طلب من حمود المغادرة، وأبلغه أنه سيذهب حالاً إلى بيت الشيخ.

لم يصدّق حمود نفسه أنّه خرج حيًّا من الدار الكبيرة، ركض نحو السيّارة ليتوجّه نحو بيت الشيخ، ونسيّ ماهر الذي كان قد دخل إلى مقهى، ولم يكن من المرحّب به، إذ كانت لهجته الساحلية؛ قد كشفت عن انتمائه الطائفيّ، فأخرجه صاحب المقهى منعًا للأذى الذي كان سيحصل له من زبائنه، وحالما لمح ماهر حمودًا مسرعًا نحو سيّارته وتحرّك بها، ركض ماهر خلفها مناديًّا بصوته الأجشّ على حمود؛ حتّى أدركه، فعاد معه إلى دار الشيخ.

أبلغ حمود الشيخ والذيب عمّا جرى معه، وعن صعوبة تبليغهم نبأ موت أحمد، استأذن الذيب وخرج؛ تنحّى لدقائق جانبًا مع رئيس دورية المخابرات المرافقة له، ثمّ دخل إلى الاجتماع.

وصل سليمان واستقبله الشيخ بودّ، ثمّ أجلسه بجانبه محتفيًّا به، كذلك اهتمّ الآخرون بقدومه اهتمامًا مبالغًا فيه، وبعد عدة من مقدّمات طفح كيل المديح لأحمد وسلفه الطاهر وعائلته الكريمة فيها، تكلّم الشيخ بخطبة ضمّنها نعمة الله على عباده بالقضاء والقدر، حيث لا اعتراض عليهما، وعندما أتّم خطبته، أبلغ سليمان عن موت أخيه أحمد، وسوّغ اجتماعهم؛ لإقامة حفل تأبينيّ،... لم يتمالك سليمان نفسه، صرخ بالجميع:

- قتلتموه يا أولاد القحبة، قتلتموه، وتطلبون منّي أن أصادق على قتله، من بقيّ بالبلد غير الزعران والحرامية الذين مثلكم، عيب عليكم،.. إذا اليوم مات أحمد، فالمقصلة ستصل رقابكم كلكم، نحن أولاد

حارة واحدة، ما الذي حصل لكم؟ يجب أن نقف في مواجهة الظلم والحقد؛ كفانا يا الله، كفانا يا بشر، كفانا قهر ياعر...

ثم اتّجه نحو الذيب، محاولًا الوصول إليه لضربه، ولكن الذيب بجثته القويّة وقف أمامه، وحمى نفسه، تاركًا سليمان مستمرًّا برفع صوته شاتمًا؛ حتّى تدخّل الشيخ والآخرون، وأخرجوه إلى غرفة أخرى، وهو يتوعّد قاتلي أخيه أحمد، ويقسم بالثأر له؛ إلى أن بحّ صوته وارتخى، وحالما كان يتجّه للخروج، كانوا يقفون بدربه، ولا يسمحون له بالمغادرة مرة بالتودّد، وأخرى بالترهيب والقوة، وبعد عدة من ساعات اتفقوا معه، على أن يأتوا في اليوم التالي للاجتماع مع وجوه العائلة بالدّار الكبيرة؛ لترتيب إجراءات الدفن، وأبلغوه أنّ ضبّاطًا من مخابرات القوى الجويّة سيرافقونهم.

***

رجع سليمان إلى الدار الكبيرة ليلًا، وحينما فتح بوابتها فوجيء بأمّه تنتحب خلفها، وقبل أن يتلفّظ صرخت به:

- سليمان، أعرفت شيئًا عن أحمد، ماذا أخبروك عند الشيخ؟
- اصبري يا أمي، اصبري، الله يعينك يا أمّي،.. أين أخوتي؟
- ماذا حلّ بصوتك يا قبّاري؟ أجابته أمّه من دون أن تعي ما نطق به.
- .....

تخلّص منها، ودخل القاعة، أغلق الباب خلفه، وشرع يبطي بكاءً مرًّا بصمت، كانت الأمّ وأخواته ترجونه أن يفتح الباب من دون جدوى، إلى أن سمعوا صوت تلاوة من آيات القرآن الكريم، وعرفوا أنّ سليمان بدأ يتوازن،.. وأخيرًا فتح الباب، ومن دون أن يلتفت إليهن، اتّجه نحو غرفة عمر، دخلها، ولم يجده، فسأل بصوت محتقن ومبحوح:

- أين عمر؟ أين إبراهيم؟ فأجابته أمّه، وهي تبكي:

- أما عرفت الذي حصل؟ جاءت دوريّات مخابرات، حاصروا البيت، وأخذوهما.
- متى؟ وكيف؟ كيف سمحتم لهم؟ سألهم سليمان.

إلى أن أفاق لنفسه وتنبّه، وبدأ يتذكّر كيف كانوا حريصين على بقائه داخل بيت الشيخ، حتّى ينتهوا من اعتقال أخويه، دخل في حالة صمت، واقتربَ من أمّه احتضنها من جديد، وقال لها:

- يا أمي الله يصبّرك، من أجل الله كوني قويّة، من أجل روح أحمد الطّاهرة اصمدي، كرامة لـ...

ثمّ بكى بحرقةٍ... وقبل أن يسمع صوت أمّه كانت قد سقطت على الأرض، أسعفوها إلى المستشفى، وهناك أدخلوها العناية المشدّدة، كانت غائبة عن الوعي، توقّع الجميع مماتها، لكنّها صحت، وهي تهذي باسم أحمد، وتحادثه كأنّه قدّامها:

- أحمد.. أينك.. يا أحمد؟ أين أنت؟.. أحمد.. خذ الرمانات من يدي وأطعم خيلك منها،.. حتّى تألفك،.. لماذا لا تأخذها من يدي مثل ما أخذتها.. من يد جدتك نعيمة،.. يعني هي أغلى مني يا عيوني؟.. أحمد.. تعال إليَّ،.. تعال اختبيء بقلبي وبعيوني،.. تعال.. لا تسمح لأحد الاقتراب منك،.. يا أحمد.. الجرذان.. سيقتلونك يا أحمد،.. انتبه من الجرذان التي رأيتها في منامك،.. سيقتلونك،.. كن بعيدًا يا عيوني،.. هؤلاء لا يعرفون الله...

كانت تهشّ بصوتها الخافت والمتماوت على الجرذان التي تتراءى لناظريها:

- وش، وش.. وش،.. ابعدوا ابعدوا.. ابعدو.. عن أحمد...

وكانت تغطّ في غيبوبتها من جديد، فتنشج بناتها اللواتي لازمنها في مشفاها ببكائهن الصامت والمرّ.

***

وصل وفد السلطة؛ للإبلاغ عن موت أحمد والتحضير لتسليم الجثّة، كان أهل أم الإبر يحتشدون داخل الدار وعلى أطرافها، ينتظرون قدومهم، وحينما وصلوا، سُمِعَت أصوات رافضة استقبالهم، ولكنّ جماعة حزب الجبهة التقدميّة وأصحاب المكاتب العقارية وبعض الشيوخ شقّوا لهم درب دخولهم إلى القاعة الكبيرة، كان الشيخ جالسًا وبجانبه سليمان وآخرون من أقاربه، أمّا شباب أمّ الإبر فكانوا موزّعين على أرض الدار والإيوان.

افتتح الذيب الجلسة، بالترحيب ترحيبًا حارًّا بضباط الأمن والتعريف بهم، ثمّ أبلغ عن موت أحمد في السجن؛ نتيجة نزيف داخلي أصاب معدته قضاء وقدرًا، ردّ سليمان مستنكرًا:

- إرادة ربّنا فوق كلّ شيء، لكن نحن نريد أن نعرف ما ذنب أخونا، وكيف قضى بالضبط؟ قبل أن نتفق معكم على أي شيء، ونريد أن نفتح التابوت بحضور أخوينا اللذين اعتقلتوهما البارحة.

تداخل كثيرون بالنقاشات، وكان الأكثر وقاحة ضباط الأمن الذين كانوا يستمدّون وقاحتهم من كثافة عناصرهم على الأسطح المجاورة، وفي الحارات والشارع الرئيس وفي زوايا أرض الدار الكبير، وداخل القاعة؛ إلى أن خرج سليمان عن طوره، قائلًا بصوت جهوريّ:

- يا جماعة.. أنتم لا تحسبون حساب الناس، قبل أن تتمادوا بالحكي والفذلكة، أين عمر وأخي إبراهيم، لماذا اعتقلتموهما، أو تريدون قتلهما متلما قتلتم أحمد، اخجلوا يا ناس، اخشوا ربكم، والله لو نخّيت شباب أمّ الإبر الآن، لحتى يصير الدم للركب.

نهض معظم الضباط، وأظهروا وقاحتهم المعهودة فيهم مستنفرين حرّاسهم ومرافقيهم، الذين شرعوا بتلقيم بنادقهم، وقبل أن تستفحل الأمور، قال الشيخ بصوت عالٍ مفعم بالجديّة:

- صلّوا على أشرف الخلق يا جماعة، صلّوا على النبيّ العدنان، وكلّ واحد يرجع ويقعد في محله، لا بدّ ان نصل إلى نتيجة في أقرب وقت، وأنت يا سليمان، الله يصبرك على بلوتك، الله يرحم ابننا أحمد، ويعوضنا بسلامة الموجودين، حقّك تطالب بأخوتك، ونحن معك، لكن أمهلنا قليلًا.

ثمّ خفتت الأصوات، فقال ضابطٌ:

- بحضّي لا نقعد حتى يعتذر هذا الشاب الحلو، ما الذي أصابك يا ابن الله؟ نحن موظّفون عند الحكومة، ننفذ ما يطلبونه منّا، لماذا تقسو علينا أنت يا كيّس؟
- تفضلوا اقعدوا وصلّوا على أشرف الخلق، قال الشيخ. وتبعه المختار:
- يا جماعة، نحن جئنا؛ لنحلّ الموضوع ما جئنا؛ حتّى نعقّده، وأنت يا سليمان الله يصبرك على مصيبتك، لكن اصبر يا قبّاري، مثلما قال لك الشيخ، نحن كلنا معك ولك.
- أنا مصرّ على طلعة أخويّ اليوم؛ حتّى نتفق معكم، أما يكفينا أن أمَّنا في المستشفى بين الحياة والموت، ليس حلالًا ما تفعلونه بنا... أنتم تعملون العيب مع أهل بلدكم... عيب عليكم يا... ولم يكمل، لحظة قاطعه صوت من زاوية القاعة:
- إن شاء الله غدًا في الصباح يكون أخويك عندك، خيّي سليمان، كلّ الحقّ معك، كان صاحب الصوت الضابط الأكبر رتبةً بين ضباط الأمن، وأمر الآخرين:
- الجميع يقعد، ويعيرنا صمته، وأنت يا شيخنا الذي تفصّله نحن نلبسه، كل ما تقوله سنرتضيه.
- حاشاك يا سيادة الضابط، أنتم ماذا تريدون؟.. ردّ الشيخ بصوت واهن العزيمة، فردّ الضابط المسؤول بخطاب آمرٍ:

- اللّه يرحم أحمد، مات قضاءً وقدرًا، وإكرام الميت دفنه مثلما يقولون، نحن نريد أن يكون الدفن غدًا، الساعة ١١صباحًا، ولا بدّ أن تعرفوا أنّ موت أحمد إرادة اللّه بعباده، وفيما يختصّ أخويك خيّي سليمان غدًا يكونان عندكم إن شاء اللّه، فعقّب الذيب قائلًا:
- ما هو رأيكم يا جماعة؟ أنا أرى الأمور جيّدة، واللّه يرحم أحمد، طوال عمره كان طاهرًا، فقاطعه سليمان قائلًا:
- نحن نريد أخوينا اليوم، اتصال منك يا سيادة الضابط، تنهي قصة اعتقالهما.

اقترب الضابط من سليمان، وقبّله، ثم عانقه أمام الجميع، وقال له:

- أنا معك، وكان اللّه معك، وأتمنى أن تعتبرني أخاك، سأفعل ما بوسعي حتّى يطلقوا سراحهما، بحضّي لأقيم الدنيا على رءوس الذين أوقفوهما، لكن تعرف بلدنا، وتعرف تزمّت رءوساء الفروع الأمنية، ولكن أعدك أن أوصل موضوعك لسيادة الرئيس، الجميع يشهد عليّ يا جماعة على كل كلمة قلتها، ثم عانق سليمان من جديد، وقبّله من رأسه قائلًا له:
- اقبل خاطري خيّي سليمان، والصباح رباح.

توافق الجميع على إجراءات الدفن، وعلى ألّا يفتح التابوت، وأن يتمّ الدفن بعد صلاة الظهر، ثمّ يلقي الذيب كلمة تأبينية، ومن دون إطلاق نار أو أيّة مظاهر احتفالية، خرج الجميع، وبقيّ في القاعة الشيخ وبعض وجوه أم الإبر، ومنهم المختار والذيب وحمود وماهر الذي أضحى لا يفارقه كظلّه، ثمّ طلب الشيخ من الجميع الانصراف، وبقيّ هو إلى جانب الأسرة المنكوبة.

جاء شابان واجتمعا مع سليمان لوحده، ادّعيا أنهما من أصدقاء عمر، وأخبراه أن الشباب تمكنوا من أسر عنصرين من المخابرات مع أسلحتهما،

وأنهما نقلا إلى مزرعة في الغوطة، طلب سليمان منهما عدم البوح بالأمر لأحد؛ حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، ثم ودّعاه من دون أن يعرف كيف يمكنه التواصل معهما.

***

دخل سليمان إلى القاعة، وطلب منه الشيخ إحضار كلّ الموجودين في الدار نساء ورجالًا، وعمل على تهدئتهم، ولب منهم الصبر، وحذّرهم من الفوضى ومن إطلاق الرصاص، كما حصل بحالات استقبال توابيت مئات الشهداء سابقًا، أما سليمان فلم يتوان لحظة عن التأكيد على الشيخ بوجوب إخراج أخويه من المعتقل قبل وصول التابوت.

وصلت هيام مع زوجها، سألها سليمان عن أحوال أمّها، فقالت له: إنّ وضعها الصحيّ يميل إلى الاستقرار، ولكنّ هذيانها أثار مخاوف الطبيب النفسيّ.

لم ينم سليمان في تلك الليلة، ذهب إلى المستشفى، حينما غادر الشيخ، واطمأنّ عن أمّه، وفي الصباح اجتمع مع أخواته في غرفة الجدّة نعيمة، التي ازدادت هذياناتها وشرودها، عمّا يحدث حولها، احتضنها قائلًا:

- أنت أكثر واحدة خسرت أحمد الذي أحببته..
- .....، لم تكن الأمّ واعيّة لسليمان، الذي اتكأ على كرسيّ بجانبها، وأخذ غفوةً.

جاء من أبلغه الذهاب إلى مقرّ فرقة الحزب للقاء ضابط الأمن، الذي وعد بإخراج أخويه في الليلة الفائتة، وحينما وصل سليمان، وجد الذيب بانتظاره، ثمّ وصلت دورية مخابرات، وخاطبه رئيسها:

- والله، أنت لست هيّنًا يا سليمان..
- خير إن شاء الله؟ ردّ عليه.

- أتتظاهر بالجهل يا منظوم؟ كيف استطعت أن تأسر عنصرين لنا مع سلاحهما بعجقة البارحة؟

أنكر سليمان معرفته الأمر، ثم طلب رئيس الدورية من الذيب تلاوة الرسالة التي وصلته، فقرأها:

- "إبراهيم وعمر بمقابل الجنديين وسلاحهم»، ثمّ قال الضابط:
- من البارحة عرفت القيادة، ولولا تدخّل معلمنا، العميد عمران الذي وعدك أمس، وأخبر السيد الرئيس، لكانت الدبابات دكّت أم الإبر بالمدافع، لكن السيّد الرئيس القائد، الله يطول بعمره، أعاد الجيش من نصف الطريق. فردّ سليمان:
- وأنا ما علاقتي بالموضوع؟ أنا أريد أن يحضر أخويّ جنازة أخيهم، لا أعرف شيئًا عن كل الذي ذكرته، والبارحه وعد العميد عمران بأن يطلق سراحهما اليوم صباحًا.
- بحضّي مشكلتكم كبيرة جدًّا خيي سليمان، القيادة غاضبة والموضوع كبير عندهم، أنصحك تظلّ بالفرقة الحزبية، ولا ترجع إلى البيت، غادر فقط عندما يصل التابوت، وبعد الجنازة نتفاهم على الأمور كلها، فأكّد الذيب قائلًا:
- والله يا سليمان سيادة العميد عمران من خيرة ضباط هذا الوطن، وسيادة القائد يثق به كثيرًا.

لم يستطعْ سليمان أن يفعل أيّ شيء، كان وحيدًا بين كثرة، وحتّى لو أراد مساومة الخاطفين للعسكريين؛ فهو لا يعرف كيفية الوصول إليهما، وحينما أبدى رغبته في العودة إلى البيت، استبقوه في الفرقة الحزبية، ومنعوه من الخروج، إلّا لحظة وصول التابوت قبيل موعد الدفن.

***

انتشرت عناصر من الجيش والمخابرات، وقارب عددهم أعداد الموجودين من أهل أم الإبر والأحياء والقرى المجاورة، الذين جاءوا للمشاركة بجنازة أحمد، ثمّ وصل التابوت، أنزله العساكر من سيّارة الإسعاف، وشرع رفاقه من شباب أمّ الإبر بالهتافات معدّدين مناقب الشهيد، ثم رفعوا الخال سعيد على الأكتاف فهتف بصوته الحادّ:

يا حنّان ويا منّان ∴ يا واسع الغفران

كلهون كذبوا علينا ∴ أولهم عميد عمران

ثمّ صدحت أصوات شباب أمّ الإبر تردّد ما يهتف به، وتدافع الناس للوصول إلى التابوت، وكان شباب أم الإبر يردّدون بصوت واحد خلف الخال سعيد الذي كان يتوقّف، ويردّد: "لا إله إلّا الله والشهيد حبيب الله» بوصفها لازمة مكرّرة.

ثم أطلق الخال سعيد بضع رصاصات من مسدسه، فتبعه عشرات المسدسات التي شهرت من بين أيدي الشباب مطلقين رصاصًا غزيرًا باتجاه السماء؛ إلى أن انقضّ عناصر المخابرات على مطلقي الرصاص، وانتزعوا من بعضهم أسلحتهم، وتوارى آخرون عن أعينهم؛ ليُسمَع صوت الشيخ من بين نياحة النساء وزغاريدهن:

- علينا بالصبر يا جماعة: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ثمّ تبعه صوت آخر:
- لا تعذبوا الشهيد في قبره يا جماعة،... النياحة عذاب للميت...

عمّت الفوضى؛ إلى أن حمل العساكر التابوت، ودخلوا به إلى صحن الجامع، حاول سليمان وشباب أمّ الإبر أن يخلعوا غطاء التابوت، ولكنّ العساكر تمكّنوا من حمايته بأجسادهم التي ارتمت على غطاء التابوت، ثمّ تدخّل الشيوخ، وأخرجوا الشباب خارج الجامع تلافيًّا للمصادمات، حتّى

تمكّنوا من الصلاة على التابوت، ثمّ نقلوه إلى المقبرة العمومية ودُفن في قبر وسط المقبرة لتكون مراقبته سهلة، أحكموا القبر عليه وعمّروا بابه، وسلّطوا إنارة إليه، ثمّ تناوب الحزبيون من حزب الجبهة التقدميّة بإشراف المخابرات على حراسته؛ حتّى لا يتمكّن أحدٌ من نبشه.

obeikandl.com

(٢٧)

بقيّ الذيب يطالب سليمان وأهل أحمد بالإفراج عن الجنديين المختطفين، كلما طالبوا بإطلاق سراح ابنيهما من المعتقَل، أمّا إبراهيم وعمر، فلم يلتقيا مع بعضهما البتة؛ إذ كلّ واحدٍ منهما وضع في زنزانة بعيدًا عن الآخر، وبُلّغا بموت أخيهما أحمد منذ اليوم الأول لاعتقالهما، فانزوى إبراهيم في زنزانته يبكي أخاه، وأمّا عمر فلم يصدّق خبر موت أخيه مضمرًا شكوكًا في نفسه؛ وذلك نتيجة الاضطراب في التحقيق والتناقض بأسئلة المحقّقين.

وإن كانا لم يتعرّضا لتعذيب جسديّ مضنٍ، إلّا أنّهما كثيرًا ما كانا يسمعان إهانات ومسبّات من الجلّادين، ولا يخلو الأمر من صفعة من هنا ولكمة أو رفسة من هناك، كلما خرجوا إلى الحمّامات، إضافة إلى حالتهما النفسيّة السيئة التي كانا يعيشانها مساء كلّ يوم في ساعات التحقيق مع المعتقلين، الذين تملأ أصواتهم فضاء السجن كلّ ليلة.

وقبل أن يكملا الشهرين في السجن أطلقوهما في الوقت نفسه، فالتقيا في أثناء خروجهما، تعانقا وحمدا الله، وبكى إبراهيم أخاه، وكان عمر يواسيه؛ حتّى وصلا إلى الدار الكبيرة، لحظة دخولهما من البوابة لفحتهما نسمة دافئة معبأة برائحة جثامين المدفن، فقال عمر:

- الله يخلّصنا من المدفن والأرواح النّجسة التي فيه، فردّ إبراهيم:
- لكن أرواح أسلافنا طاهرة يا عمر، وليست نجسة، عيب عليك، لا تقل هذا الحكي، من حقّك أن تطالب بالاهتمام بترميم المدفن وتنظيفه، لكن مثلما ترى، لا أحد لديه الوقت اللازم، إنما ليس من حقّك الاستهانة بمدفن الدار وسبّ أسلافنا الطاهرين.

- أخي وجود المدفن بالدار غلط، لا بدّ أن ينتقل، أو نحن ننتقل.
- لا.. أنت انتقل يا عمر،.. نحن نعيش ببركة أسلافنا وطهارة أرواحهم الحالّة فينا.

كان استقبالهما خليطًا من العويل والنواح والزغاريد، ثمّ شهر سليمان مسدسه، وأطلق منه عشرات الرصاصات بفضاء أرض الدار الكبيرة، فخفّت أصوات العويل، وتمكّن من أن يعلي صوته صارخًا بهم:

- اصبروا يا جماعة، الحمد لله على سلامة أخويّ عمر وإبراهيم، والله يخلِّ الجميع، ويرحم االبطل أحمد، فصرخ عمر مفجوعًا:
- ما الذي تقوله يا سليمان؟ مات أحمد؟ قتلوه أولاد الكلاب؟ يا سليمان، تأكدتم أنه مات؟ وشرع كالمغيّب يهتف باكيًّا:
- والشهيد حبيب الله، والشهيد حبيب الله،... أمّا إبراهيم فملأ صراخه فضاء الدار نائحًا:
- يا حيف يا باطل عليك يا أحمد، يا سبع الرجال، يا بطل، أين ذهبت وتركتنا يا أخي؟ والله، وحياة اسمك يا أحمد لأنتقم لك... والله..

ثمّ اختلطت أصوات الرجال بعويل النساء وبنخوات الخال سعيد وسليمان وكثير من شباب أمّ الإبر، الذين بادروا بإطلاق الرصاص من مسدساتهم التي لعلعت في سماء أرض الدار؛ حتّى وصل المختار وشيخ أم الإبر؛ فطلبا من سليمان تهدئة الخواطر، ومن النساء الاحتجاب داخل غرف الحرملك، ثمّ دعا الشيخُ الرجالَ للدخول إلى القاعة الكبيرة، ثمّ قاد سليمان أخويه الظاهر عليهما التعب والحزن والشقاء، لكلّ منهما لحية طويلة غير مشذّبة، كان شعرهما مشعّثًا، وأظافرهما طويلة بطريقة مشوّهة، وملابسهما بدت ممزقة ومحشوّة بالحشرات والأوساخ التي حملوها من السجن، قادهما سليمان

إلى الحمّام، وقبل أن يدخل عمر سأله عن أمّه وجدّته، فطمأنه، وطلب منه الاستحمام مع أخيه؛ ليتخلّصا من أدرانهما ومن الحشرات، التي كانت تهرش جلديهما، قبل لقائها، ثمّ أحضر لهما ثيابًا؛ لتغيير ما يرتديانه؛ استعدادًا لمقابلة النّاس.

بعد أن هيّئا نفسيهما خرجا، وجدا كثيرًا من أبناء العائلة وقليلًا من رفاقهما بانتظارهما في القاعة الكبيرة، تقبّلا تحيات الجميع، ثمّ جلس إبراهيم على كنبة طوال الوقت عاجزًا عن الوقوف، أمّا عمر فقد ردّ على تهنئات النّاس له بالسلامة، وعلى تعزياتهم بالشهيد أحمد، ثمّ اقترب من سليمان، وسأله عن أمّه من جديد، فلم يتمكّن سليمان من حجز قطرات الدمع التي فاضت على وجنتيه، استدار، وخرج من القاعة، بكى من لمحوه كلّهم؛ بكوا على بكاء رجل لا يعرف كيف يعلن انكساره أمام نوائب الدهر، ثمّ لحق به عمر، وهو يصرخ متألّمًا:

- يا سليمان، ردّ عليّ يا سليمان،.. حدث شيء لأمي؟ لك يا سليمان حدث لها شيء؟.. أمي، يا أمي، أبوس رجليك أخبرني عنها؟ أين ذهبت وتركتني يا سليمان؟

فُجع عمر من جديد، بكى فأبكى معه الناس الموجودين في القاعة، ثمّ ذبلت أوراق توتة الدار من جديد، وكانت ورود الحوض أمام غرفة الجدّة نعيمة تنتفض فزعة متخليّة عن أوراقها الصفراء الشائخة، وبراعم الجوري تتفتح بتسارعٍ متكئة على إبر أشواك أغصانها التي يتنامى حجمها لتصير مخارز بعينيّ رائيها.

وصلت نساء الدار، وطمأنّ عمر أنّ أمّه موجودة، ثمّ قادته أخته هيام إليها، ولحظة وقع نظره عليها ارتمى على قدميها يقبّلهما قائلًا:

- سامحيني يا أمي أنا السبب، ما الذي جرى لك يا أمي، يا عيوني يا أمي، تركتك بصحتك وعافيتك، قومي يا أمي، قومي الله يخليكي...

• .....

كانت أمّ سليمان تشخص إلى زاوية واحدة من السقف متخيّلة صورة أحمد، تأبى التخلّي عنها، لم تستطع أن تنطق، كان صوتها يتردّد داخلها، لا يسمعه أحد، ولكنّه كان يخترق الآذان والجدران متصلًا بأقاصي السماء، كان أنّاتها بداخلها تفيض عن جسدها، وتتطاير في فضاء الدّار، بكى عمر بحرقة، وأبكى نساء الدار معه، وأبكى زواره، بكت حيطان القاعة ونوافذها، ودمعت أغصان شجرة التوت من جديد، والقمرية التي كانت تحتضن صغارها في عشّها تناثر ريشها، وهديلها الحزين أبكى حصيّات بنت عليهن عشّها.

التفت عمر لجدّته، كانت غائبة عن الوعي، قال لها:

• أنت أيضًا يا جدّتي، تغيبين عن الوعي؟.. ستّي ستّي،.. استيقظي وحدّثيني، اصحي وحاكيني؛ أحمد الذي تحبينه مات يا ستّي، اللّه يرحمك يا أحمد...

لم تجبه جدّته أيضًا، احتضنها وقبّلها، وبكى بحضنها، إلى أن وصل سليمان، تمكّن من السيطرة على حزنه، فرفع عمر من حضن جدّته، وأخرجه إلى أرض الدّار، رتّب له هندامه، وطلب منه مواجهة زوّاره برجولة.

دخل سليمان وعمر، فوجدا ضيوفهما يهدّأان إبراهيم الذي عرف مرض أمّه، ولكنه عجز عن الوقوف والذهاب إلى سريرها، كان السجن قد هدّ قوته، فالوقوف عن الكنبة كان فيما يختصّ به مشكلة كبيرة، فقال لأخيه:

• أخي سليمان، خذني إلى أمي...

تلعثم سليمان، وطلب منه مهلة بسيطة؛ حتى ترتاح قليلًا، وفكّر بينه وبين نفسه:

– كم هي الأسئلة صعبة، والإجابات عنها أصعب.

***

لمّا اطلع عمر على تفاصيل استلام تابوت جثمان احمد، وعلى طريقة دفنه، وما استتبعه من تداعيات، صرخ محتجًّا؛ لقبولهم دفن أخيه من دون التأكّد من هوية الجثمان المودع في داخل التابوت، ظلّ هائجًا لا يعرف السكوت متهمًّا الجميع بالعجز والخيانة، ولم يتمكّن سليمان من تسويغ حكاية الدفن لعمر، منذ وصل خبر استشهاده؛ وحتّى لحظة دفنه، أمّا عمر فكان يزداد غضبه؛ إلى أن ودّع سليمان الضيوف بطريقة تشي بعدم استحسانه وجودهم، ثمّ ترك القاعة التي ضمّت نساء الدار وإبراهيم العاجز عن الوقوف ليذهب إلى أمّه متكئًا على ذراعي اثنتين من أخواته.

أمّا سليمان فانفرد بعمر، وصار يهدّأه ويمازحه؛ حتّى ينسيه، كان خائفًا عليه من الصدّمة، ولكن عمر ما زال يزداد لهيبًا، مسائلًا أخاه:

- كيف قبلت أن يُدفَن من دون أن تعرف أنها جثته، أولاد... سلّموا مئات التوابيت، ولم تكن الجثامين التي في داخلها لأصحابها، لا بدّ أن نفكّر بطريقة، نعرف عن طريقها، ما الذي في داخل التابوت، لأني غير مصدّق أن أحمد مات، اجعل هذا سرًّا بيني وبينك أخي سليمان، أحمد لم يمت، إن شاء الله.
- اصبر يا عمر، اذهب إلى سريرك، وخذ قسطًا من الراحة، ونمْ، وأنا معك بكلّ ما تريد أن تعمله، غدًا في الصباح نحكي، لكن من أين مصدر شكوكك بأن أحمد لم يمت يا عمر؟
- اذهب أنت ونمْ أخي سليمان، وأنا بعد قليل أذهب للنوم، مرّ شهران وأنا نائمٌ بزنزانة المجرمين، اتركني لوحدي، لو سمحت.

لم يبق أحد من أهل الدار، إلّا وغادر إلى فراشه، سوى عمر الذي لم يتمكّن من إغماض عينيه، بقيّ أرِقًا تلك الليلة يفكّر بما يمكن عمله، استحمّ من جديد، واسترخى داخل البانيو، وأصبحت هواجسه لمعرفة هوية الجثمان الذي دفن في أثناء وجوده بالسجن مسيطرة على عقله وكيانه، ثمّ أعدّ قهوة

مغليّة جيدًا، وقبع عند ساق التوتة الشاميّة، ارتشفها على مهلٍ، وهو ينتظر ضياءً حُرِم منها طوال أيام سجنه.

***

انبلج ضوء الشمس، اشرأب عمر برأسه وشرع يمتصّ خيوط النور، غزل منها قبّعةً وارتداها، ثمّ غرق في حلم يقظته، حالما تذكّر مطالبة أحمد بنقل مدفن الدار إلى المقبرة بعد رجوعه من لبنان؛ لم يستجب وقتها لدعوته أحد من أبناء العائلة سوى نساء الدار اللواتي كنّ يعانين من الروائح النتنة التي أزكمت أنوفهن كلما دخلن لتنظيفه.

تخيّل عمر خطة تسمح له بفتح القبر، وأخذ عينات لفحصها مخبريًّا؛ للتأكّد من صحة وجود جثمان أحمد داخل التابوت، ثمّ غمرته أشعة الشمس وحرارتها من ناحية التوتة الشاميّة الهرمة في أرض الدار، خلع قميصه وارتدى نور الشمس بديلًا عنه؛ ليكسب أكبر قدر من دفئها وضيائها، ثمّ غرق في غفوةٍ.

شرع في نقل المدفن من الدار، جرفه مع أصدقائه، ووضعوه في توابيت، ثمّ حملوها ورموها في قاع بئر الموتى داخل المقبرة العموميّة، وانتقلوا إلى قبر أحمد، رفعوا الأتربة عن بابه، وهدموا معماره، ثمّ فتحوه، كسروا التابوت الذي يضمّ رفاته، انتزعوا أجزاء من بقايا جثمانه، ثمّ أخذه حلمه إلى بيروت، فأجروا فحصًا لـ DNA، وتأكّد أنّ ما بداخل التابوت ليس جثمان أخيه أحمد؛ إذ لا علاقة للعيّنة التي أخضعوها للفحص بالآدميين، ليبدأ مع الحلم في رحلة البحث عنه، إذ إنّ أحمد لا يزال حيًّا يا عمر، هكذا كان يحدّث نفسه، وشرع بالبحث عن أحمد...

استيقظ سليمان باكرًا، وخرج إلى أرض الدار، فوجد عمر قابعًا عند جِذْع شجرة التوت الهرمة، وهو يستحمُّ بدفء الشمس عاريًا، فتوجّه إليه بالسؤال:

- صباحو يا بطل.. خير إن شاء الله.. كأنك مبكّر على الاستيقاظ!

لم يجب عمر، كان يحيا داخل حلمه، يبحث في زواياه، عمّا يفرحه بإيجاد أحمد حيًّا، عبره سليمان، واتجه نحو الحمّام، كأنّه لا زال بين النائم والمستيقظ، ولم ينتبه لصمت عمر إلّا بعد أن فتح باب الحمّام، فراحت سكرة سليمان وجاءت الفكرة، وتراءى لعقله أنّ يكون قد حصل مكروهٌ ما لعمر، فنكص على عقبيه راكضًا من دون وعيّ باتجاه عمر صارخًا بأقصى صوته:

- عمر عمر عمر، لماذا لا تردّ يا عمر؟ عمر.. حدث لك شيء يا أخي؟.. أخي عمر،...
- .....،

ظلّ يصرخ سليمان؛ حتّى أيقظ كلّ من في الدّار، وشرعوا بالخروج نحو الإيوان وأرض الدّار، أمّا عمر فبدا باسمًا، مغمضَ العينين، فرحًا بأحمد الذي وجده حيًّا، حالما حضر سليمان معترضًا على نتائج فحص بيروت، تداخل صوت سليمان مع حلم عمر قائلًا وهو يصرخ:

- عمر، عمر، عمر، هؤلاء يكذبون عليك، يا عمر عمر عمر...

كرّر سليمان اسم عمر، من دون أن يحصل على استجابة منه، أبى عمر أن يغادر حلمه، ظلّ متمسكًا به؛ حتّى وصل إليه سليمان، رفعه عن الأرض من دون وعيّ، بعدما غام الوجود في ناظريه، ثمّ دخل في قصّة العجز والضعف والموت، مكرّرًا صراخه على عمر حانيًّا فوق جسده، وهازًّا له بقوة:

- عمر، ما بك يا عمر؟

نهض عمر مرعوبًا، وتخلّص من احتضان أخيه له، وخاطبه:

- ما بك يا سليمان، لماذا تهزّني بهذه الطريقة؟ ماذا يحدث؟ أيّ مصيبة جديدة حلّت علينا، أخبرني أخي سليمان؟ فأجاب سليمان متوتّرًا:

- لك، أنت ناوي تجنّني؟ ماذا تفعل من طيز الصباح؟ لماذا لم تردّ عليّ، ظننت أن مكروهًا أصابك؟ اللّه لا يقدّر أن يصيبك مكروه يا عمر.. حفظك اللّه من كلّ شرّ، فأجاب عمر:

- واللّه ما نمت يا أخي، انتظرت الشمس لأني مشتاق لها، أشرقت عليّ وشعرت أنها طهرتني، فغفيت قليلًا، على كلٍّ أنا محتاج إلى أن أحكي معك في موضوع مهمّ، واللّه كنت أحلم حلمًا حلوًا، فجئت أنت وقطعته عليّ.

– خير إن شاء اللّه، يا خلّاق يا رزّاق، ماذا تريد مني بهذه الساعة من الصباح يا عمر؟ اذهب نم الآن، أمّ لا لا تنم يا قبّاري، أنا مشتاق إليك كثيرًا، انتظرني، أستحمّ، وآخذ نفس بعد الرعب الذي أصابني عليك..

استيقظ أهل الدار، وبعد اطمئنانهم عادوا إلى نومهم، وريثما انتهى سليمان من حمّامه، كان عمر قد توجّه إلى القاعة الكبيرة، ومن وحيّ حلمه بدأ يرسم، ويخطّ على أوراق بيضاء بأقلام متنوّعة الألوان، ثمّ شرع في تدوين تصوّرٍ أوليّ لخطة نقل مدفن الدار إلى المقبرة العموميّة.

دخل سليمان وبيده دولة القهوة التي سبقته رائحتها، فوجد عمر منكبًّا على الطاولة ومشغولًا بأوراقه، فلكزه من كتفه؛ ليثير انتباهه، ثمّ خاطبه:

- اشتقت للدراسة؟ ماذا حدث لك؟ نم قبل أن تفتح الكتب والدفاتر.

- لا واللّه يا سليمان، اجلس بجواري، وشاركني خطتي.

ثمّ حكى لسليمان عن شكوكه بموت أحمد، التي استمدّها من تناقضات أسئلة المحقّقين، وشرع يشرح خطّته في نقل مدفن الدّار إلى المقبرة؛ بهدف الكشف عن قبر أحمد، وأخذ عيّنة منه ليتأكّدوا من محتوى التابوت الذي ضمّ رفاة أحمد وفق ما ذكرته السلطة.

كان عمر متحمّسًا كثيرًا لحلمه، ولكنّ سليمان الذي خبر أساليب المخابرات، حاول أن يثنيه عن مخطّطه:

- يا عمر، المخابرات والذيب وجماعته لا يفارقون المقبرة، بشكل دائم يراقبون الداخل والخارج منها؛ لأنّهم خائفون أن يفتح القبر، اصرف النظر عن مغامرتك، والتفت لدراستك يا أخي، اللّه يرضى عليك.
- ولكني أستطيع أن أحشد عشرات من شباب الجامعة؛ لتنفيذ هذه الخطة يا سليمان، لا تخف منهم.
- أنا لا أخاف إلّا من اللّه، لكن نذالتهم ليس لها حدّ، تصوّر أنّ ابن عمتك حمود وظّفوه للتجسّس علينا، وهو يراقب تحركاتنا، ويخبر الذيب ابن شطمة عن كلّ واردة وشاردة تقع في الدّار، تصوّر أنّ هذا الواطي أخبر المخابرات عن رغبة نساء الدار في نقل المدفن، فأرسلوا الحزبيّات لإقناعهن بالعدول عن الفكرة، أنت لا تعرف حقارتهم وإجرامهم مثلما أعرفه أنا يا عمر، أرجوك اصرف النظر عن المو ضوع.
- على كلٍّ، افترض أنني ألعب، أو أكتب قصة، أو أتسلى، اسمع مني حتّى الأخير، وأعطني رأيك.
- تفضل يا عيوني، احكِ، أنت يا عمر لا يوجد أغلى منك في قلبي..

بدايّة، شرح عمر لسليمان كيف كانت أسئلة المحقّقين متناقضة، وتشي بأنّهم يشكّون في وجود أحمد خارج السجن، وحينما اقتنع سليمان بجديّة ما يقوله عمر، قال له:

- تفضل يا قباري، كلي آذان مُصغيّة.

شرع عمر بشرح خطته في نقل مدفن الدار وسط احتفالية علنيّة، ووضّح خطّته التي تقوم على مبدأ حصان طروادة، وذلك بإخفاء شابين أو ثلاثة

داخل المقبرة، وبعد منتصف الليل يقومون بنبش قبر أحمد، وأخذ عيّنة، ويتزامن مع عملهم وجود خلايا نائمة في بضعة أمكنة حول المقبرة، فيما إذا حدث أيّ طاريء، يتدخّلون لتخليص من هم بداخلها، وأضاف ممازحًا:

- نكسب حسنات أهل الدار الذين يتحمّلون أعباء حراسة المدفن ونتانة روائح السلف غير الصالح؛ التي تنبعث منه! والأهمّ اقتناص فرصتنا؛ للتأكّد من صحة وجود جثمان أحمد في التابوت الذي سلموه لكم، لأن المخابرات سلّمت الكثير من التوابيت، وثبت أنها ليست لذوات الأشخاص؛ المدّعين أنّها لهم، قلبي يقول لي: إنّ أحمد لا يزال حيًّا يرزق يا سليمان.
- الله يسمع منك يا عمر، والله قرّبت لي الفكرة، ولكن كيف بإمكاننا التحقّق من هوية الجثمان بعد شهرين من دفنه؟

– هذه بسيطة، يكفي أن ننتزع أي مادة من الجثمان، ثم نخضعها لتحليل الـ DNA، لدى مخبر متخصّص.

- والله ما جاءت هذه الأفكار برأسي يا عمر، على كلّ حال، لا تحكي أنت بالموضوع؛ حتّى لا تكشف الخطّة، سأتولى أنا إجراءات نقل مدفن الدّار، وأنت جهّز شغلك مع رفقائك داخل المقبرة، وخذوا حذركم؛ لأنّ العيون عليها من الجهات الأربع كلّها.
- اترك الأمر لي، تحرّك أنت؛ حتى ننقل المدفن بأقرب وقت.

في مساء ذلك اليوم جاء شيخ أم الإبر وسلّم على إبراهيم وعمر مرّة أخرى، ثمّ انتحى به سليمان، وأخبره برغبة أهل الدار في نقل المدفن إلى المقبرة العموميّة، لم يعترض الشيخ، وقال له:

- توكّل على الله، إذا كانت إرادة الجميع نقله، نحن من مؤيّدي الفكرة من زمان.

- الجميع متفقون على نقله يا شيخنا.
- بإذن الله سينتقل، اعتمد عليّ إخبار السلطات بالأمر، ونبقى على تواصل دائم، إن شاء الله.

***

اُتُّفق على نقل رفاة مدفن الدار إلى المقبرة العموميّة، في اجتماع لشيوخ أم الإبر ووجهائها بوجود مندوبين عن الحكومة، وكان من بين الحاضرين حمود الذي اعترض بصفته من أهل الدار، وأحد أعضاء جمعية التراث الثقافيّة، التي عدّت المدفن من الآثار الثمينة التي يجب المحافظة عليها، ثمّ اجتمع الذيب مع الدكتور والشاعر والصحفيّ والضابط المتقاعد والمحاميّ أعضاء المكتب التنفيذيّ للجمعيّة، ولوّح بالخنجر المعقوف الذي أهداه له الشيخ وصفي مذكّرًا تكليفه لحماية المدفن ومكرّرًا كلماته:

- ما في غيرك يا الذيب تمنع الأعداء من تلويث قبري داخل مدفن في الدار الكبيرة، ابني الوحيد فخري مسالم ورخو ومحبّ أهل حيّه، رفض أن يستلم الخنجر، خذه أنت، واتركه بجوارك طالما أنت في قيد الحياة، أنا ورثته عن أبي، وأبي ورثه عن أبيه، والآن لا يوجد غيرك يا الذيب تستأهل الخنجر، لا تبعده عنك، أبقِهِ ملازمًا لك، بركة أمّ الإبر الكبيرة في هذا الخنجر، ثمّ أضاف الذيب:
- فضّلني الشيخ وصفي على ابنه الوحيد، وأمّني الأمانة، لأحفظ بركته وروح الأجداد، وأنا لا يمكن أن أخونها، أقسم بالله العظيم لن أسمح لأحد بمسّ مدفن الدّار.

وخرج غاضبًا من أصوات الشباب المتحمّسة لنقل المدفن، ثمّ قاد معارضة نقل المدفن، ولكنّ قوة شيخ أم الإبر الاجتماعية، والتقارير العلميّة المخبريّة، التي نشرها عمر ورفاقه الشباب، أكّدت تلوّث البيئة من جرّاء بقاء المدفن

داخل الدّار، ثمّ نشاط إخوة أحمد وأخواته المتزايد اجتماعيًّا رجّحت كفّة نقل المدفن إلى المقبرة العموميّة.

حُدِّد، اتفاقًا مع جهات حكوميّة، موقع المدفن في الجانب الأيسر من بوابة المقبرة العموميّة، ووضعت الرفاة في تابوت، وأحكم إغلاقه، وغلّف بشراشف مختصّة بالعائلة، ونقلوه إلى الجامع، صلّوا على رفاة السلف الصالح، ثمّ ألقيت كلمات عدة، من دون حضور الذيب وجماعته حفل التأبين، ونُقِل تابوت رفاة مدفن الدّار إلى المقبرة العموميّة، وضعوه في القبر الذي أعدّ باكرًا، وأغلقوا عليه بإحكام، وأشاروا إليه بآرمة كُتِب عليها: «مدفن الدار الكبيرة الجديد»، ثمّ كلّفوا مهندسًا بالإشراف على تعميره، والاهتمام بشاهدته، وخرج المشيعون، وأخيرًا أغلق الحارس باب المقبرة من الداخل.

obeikandl.com

(٢٨)

شُغِل الناس بدفن رفاة مدفن العائلة، وتخفّى عمر مع شابين في توابيت المقبرة المركونة في غرفة خاصّة اتفاقًا مع حارس المقبرة المعمّر، وتحت جناح الظلام توزّع رفاق عمر حول سورها.

عند انتصاف الليل تسلّل عمر ورفيقيه من بين التوابيت، واتّجهوا نحو قبر أحمد وفقَ الخطّة الموضوعة، شرعوا بفتحه بهمّة عالية، حتى وصلوا إلى التابوت، كسر عمر بابه، وجسّ ما بداخله فوجد كيسًا فيه أشياء غير متضامّة، واشتمّ رائحة تعفّن مقزّزة، أزكمت أنوفهم، ولكنهم تحمّلوا، إلى أن استطاع عمر أن يمزّق جانبًا من الكيس البلاستيكيّ المحتوي على جثّة أحمد، وينتزع بعضًا من بقايا محتوياته، وضعها في محفظة، وهمّ بالخروج من داخل القبر لإعادة تغطيته.

اقترب عمر ورفيقاه من نهاية عملهما، وانتبه أحد أصدقائهم لوقوف عدة من سيارات أمام بوابة المقبرة، ثمّ ترجّل منها أشباحٌ، وحاولوا فتح البوابة، فعجزوا؛ لأنّ الحارس كان قد أحكم إغلاقها من الداخل، ثمّ أطلق الشابّ صافرة، فتنبّه أصدقاء عمر وإخوته للخطر الداهم، وتحفّزوا؛ للمواجهة والدفاع عنه وعن رفيقيه.

كان عمر يعيد بلاطة القبر بالتعاون مع رفيقيه، حينما لمح شبحًا يتسلّق جدار المقبرة، شاهرًا خنجرًا، رافعًا كلتا يديه عاليًّا، وهو يصرخ كالثور الهائج:

- يا ما عند عيونك يا شيخ وصفي... الآن جاء دور خنجرك المعقوف، والله لأعدمهم، والله لأنهي حياتهم، والله لأشرب من دمهم، والله... أنا الذيب ولا...

وهرع راكضًا نحو قبر أحمد ومن ورائه عددٌ من هامات أشخاص بدوا شياطين في عتمتهم، وآخرون كانوا يرتقون أسقف السيارات معتلين حائط المقبرة مشهرين سلاحهم، ثمّ شرعوا بإطلاق النار في الهواء.

استشعر شباب الخلايا النائمة خلف سور المقبرة خطورة الموقف، فرموا أنفسهم داخل المقبرة، إذ إنّهم تيقّنوا أنّ القادمين تمكّنوا من الإمساك بعمر، توغّلوا داخلها؛ للدفاع عنه، يتقدّمهم سليمان الذي أشهر مسدسه الرشّاش الذي استعاره من خاله سعيد، وركض نحو قبر أحمد، بعد أن سمع إطلاق رصاص من أسلحة الذيب وجماعته، أشهر مسدسه وأطلق رصاصًا مثلهم، ثمّ ازداد السلاح بين أيدي الفريقين، الجميع يطلق النّار تحت أجنحة الظلام، من الطلقات ما تصيب، ومنها ما كانت تتبدد مع صوتها في الفراغ، تزايدت أعداد المتقاتلين، واختلط الفريقان، وشرع كلّ منهم يضرب بالأيادي والعصي والحجارة، ثمّ اشتبكوا بالسكاكين والسواطير والبنادق، لا أحد تيقّن أين هو خصمه، وأين صديقه، صار الجميع يقتل الجميع تحت أجنحة الليل الأسود الذي ازداد عتمًا.

سمع عمر أنّات الموتى، ورأى أجسادهم تتطاول في فضاء مقبرة آخذة بالاتساع، صرخوا؛ لوقف الموت، فاختلطت صرخاتهم مع نعيق البوم وأوجاع المصابين وأزيز الرصاص، ثمّ بدأت تتطاول ديدان سوداء موشّحة بلون أصفر منطلقة من قاع مدفن الدّار المنقول إلى المقبرة، وبدأت أعداد طيور الليل تتضاعف فوق رؤوس الفريقين المتقاتلين، كانت تنطلق حالما يكتمل تحوّل ديدان الموت السوداء إلى كائنات تطير فوق المقبرة، وتيقّن عمر أنّ قاع المدفن الذي أعدّوه منذ ظهيرة ذاك اليوم المشؤوم، صار مسرحًا للحركة الدؤوبة بين ديدان متحوّلة ووطاويط تخطف الأبصار من عيون المتقاتلين، وجرذان تقبع على مخرّاتها منتظرة وليمة الأجساد الآدميّة، ديدان وطيور ليل وجرذان وكلاب شاردة، جميعهم استمدّوا طاقاتهم من جثامين المقبرة، التي حملت أرواحًا تنزف جراحًا مسمومةً.

وصل سليمان صوب قبر تابوت أحمد، وكان الذيب يوجّه ضربة بخنجره لرأس عمر فوقع على الأرض، وانتزع الذيب المحفظة التي فيها العيّنات المأخوذة من قبر أحمد من يدي عمر، أمّا سليمان فانقضّ على الذيب وغرس أسنانه في ذراعه، واستعاد المحفظة منه، فما كان من الذيب، إلّا أن وجّه طعنة نحو سليمان بخنجره السّام، فوقع على الأرض مفلتًا المحفظة من يده، فتمكّن أحدهم من التقاطها، وهرع بها متواريًّا عن أعين الجميع من دون أن يُدركه أحدٌ.

كانت أعداد طيور الليل تزداد عدّدًا، وتتضخّم حجمًا، وكان السواد يتكاثف عتمًا دامسًا من كثرة أسرابها، ثمّ بدأت السماء تهطل ديدانًا شبيهة بتلك المنبثقة من قاع المدفن، ظلّ الجميع يقاتل الجميع على نعيق طيور البوم المتحفّزة لالتقاط جرذان المقبرة المستعدّة دائمًا للمشاركة في وليمة الموت، وصلت الكلاب الجائعة بانتظار جثث تنتظر من يلتهمها، ولمّا عجز المتقاتلون عن دفن موتاهم من اشتداد الموت من جهاتهم كلّها، استجاب الكلاب لدعوتهم، واندفعوا نحو وليمة الموت الشبحيّ.

ازداد الموت، وانتشى الذيب، وأحسّ بتضخم عضلاته وعلوّ شأنه عما كان عليه في أمّ الإبر، موطنه الأول، وشعر بالندم على سنوات قضاها في بولندا بعيدًا عن خنجره، الذي خبّأه خلف صندوق تبرّعات مقام الشيخ صلاح، ولم يخرجه إلّا يوم تطاولوا على مدفن الدّار الكبيرة، ونقلوه إلى المقبرة العموميّة، كان غاضبًا من أحمد وأهله وأهل الدار وأهل أم الإبر ورفاقه وزوجته والمخابرات الذين تآمروا جميعهم ضد إرادته، إنّه حامي حمى مدفن الدّار خلافًا لإرادة قيادة حزبه الخونة، كان يكلّم نفسه:

- اليوم يومك أيّها الخنجر المستقي من سموم أحقاد شيوخ الطائفة وساستها، اليوم تضحك أرواحهم، اليوم هو بداءة الموت المطلوب؛ حتّى أحيا بسلام.

كان الذيب يوجّه طعناته لخصومه مقهقهًا عند كلّ إصابة مؤكّدة من خنجر الشيخ وصفي أو من مسدّسه الرشّاش الذي استلمه من فرع المخابرات، لا يهمّه هويّة المُصاب؛ إن كان من فريقه أو من خصومه، كان يروم الموت فحسب، توارى كثيرٌ من خصومه خلف القبور المصطفّة أرتالًا أرتالًا؛ حتّى ظنّ أنّه انتصر وسَلِم من تلك المقتلة التي قادها، فرفع هامته وغرس خنجره في جدار المقبرة محاولًا الخروج منها، لم يكن يعرف أنّ جدران المقبرة تنزاح نحو أمّ الإبر، فتسلّق، ولكنّه سقط على الأرض لحظة انزياح الحائط، حاول مرّة أخرى، وقبل أن يسقط أصابه حجرٌ برأسه، أوقعه أرضًا، غاب عن الوعي، ووقع على الأرض، مدّ يده نحو الحائط، ولكنّه كان ينزاح، وكانت رقعة الموت تتوسع نحو المدن الكبيرة، تركته الحيطان مرميًّا بمساحة مكشوفة، فتجرأ شابان واقتربا منه، وشرعا بالإجهاز عليه، لكنّ يدًا سبقتهما إليه، ورفعته بقوة رهيبة عن الأرض، تراجع الشابّان، اختفيا خلف شاهدة قبر، وصارا يراقبان أشباحًا إضافيّة تنبثق من قاع مدفن العائلة، وتندمج مع ظلام الليل، تتوسطهم قامةً عظيمة آخذة بالتضخم على شكل آدميّ عملاق، تصاغرت حتّى انتشلت الذيب من الهزيمة واحتضنته، ومن حضنها نهض الذيب من جديد، واستقام منتصبًا أمامها.

خيّم الليل الساكن فوق المقبرة، واختلطت أنّات الموتى داخل قبورها مع أنّات المختبئين خلف شواهدها، تماثلت الأوجاع: موتى يدفنون موتاهم، فوحدّهم الموت، تعالى نعيق البوم، وتقافزت جرذان حلم أحمد المتسلّقة أغصان شجرة المشمش في زاوية أرض البيدر، في المساحة التي تفصل مدينة دمشق عن ريفها، التي كانت ملعبًا لفتيان أمّ الإبر، راقصت ظلالها جرذان المقبرة المتحفّزة؛ لتقاسم غنائم مستقبل فاضت طرقاته بدماء شبابه، كان الجميع صامتًا وخائفًا ومختبئًا، كان الجميع متهيّبًا من الموت، سوى الذيب الذي حمته تلك القامة التي تكوّنت من ديدان مدفن الدّار السوداء المصفرة بلون الموت المتزايدة على أنغام نعيق البوم تناغمًا مع صرير الجرذان، تحلّق

حوله حمود وماهر وأبو ماهر ومن هم على شاكلتهم، حتّى تعاظم حجم القامة، وأمست أكبر من الجميع، توحّدت مع موتى المقبرة؛ حتّى صارت أرواحهم تدفع جدرانها زاحفة نحو أم الإبر، صار الموت يدخل كلّ شقّة سكنيّة وكلّ مدرسة وكلّ مكان.

ظلّ الذيب واقفًا أمام الهامة الضخمة، وما زال شاخصًا نحوها، كان حجمها أكبر عن حجم البشر العاديين، وكانت تضع لحافًا على ظهرها، ذُهِل الجميع من تحولاتها المترابطة مع ديدان سوداء تنبثق من منخريها ومنخري الذيب، ومع كائنات تنسلّ من أسفل مدفن دار الأسلاف؛ متّوحدة مع جرذان بيدر فصل المدينة عن الريف؛ حتّى واجهت الجميع، وصرخت بصوتها المجلجل:

– هممممم، هممممم، هممممم...

تردّد صوتها أصداء في فضاء المقبرة وامتدّت حتّى وصلت إلى أم الإبر، أخافت الجميع، وتواروا عن دربها سوى الذيب، الذي استحوذ على حنوها عليه، كانت تحميه، وتمسح على شعره، ثمّ شرعت يداها تمتدّان نحو قمر يحترق، صارت عيناها تبثّان نارًا، ومن فمها تردّدت أصداء الموت الآتي من ليالي أم الإبر البعيدة، ازدادت الديدان السوداء الخارجة من منخريها بكثافة، وكانت تدور حول الذيب لتحميه، فاستحالت أشباحًا تتطاول قدّام شباب يختبئون خلف شواهد القبور المختفيّة تحت ليل، ينفث سمومًا، ويحجب ضياء.

لم يبق أمام القامة الملتحفة سوى الذيب الذي عرفها، فاقترب منها، وردّ عليها بصوتها نفسه، كما فعل الشيخ وصفي قبل نحو نصف قرن مضى:

– هممممممم، هممممممم، هممممممم...

كانت تدور حوله، وعيناها موجّهة لكل من يحاصره، ويدور حوله متربّصًا به، وأصبحت تلاحق عيونًا ترصد ابنها؛ للتخلّص من شروره، ثمّ تكاثفت طيور الليل حولها، وصار البوم ينعق على إيقاع حركتها الدائريّة، اطمأنت

لرقصات الجرذان حول الذيب، وتيقّنت من نجاحها بحمايته، فأخفضت صوتها، واقتربت منه، حاولت لمسه، فطأطأ واقترب منها.

شريط من ذكريات كأنّها آتيّة من نفق عميق استحوذت على مخيلة الذيب، تذكّر آخر مرّة شاهدها، عندما رمته أمام باب المقبرة القديمة، تذكّر كيف غادرت على أجنحة الريح السوداء، وتساءل عن سرّ اختفائها وعن أمومتها، تساءل عن حقّها في رميّه لقمة سائغة لناطور آل الدغري، ثم همهم عليها من جديد، تمامًا كما فعل الشيخ وصفي:

- همممممم،هممممممم،همممممممممممم
- فردّت بهمهمتها التي أرعبت كلّ من حولها؛ سوى الذيب، ابنها، ابن شطمة المجنونة:
- همممممممم،هممممممممم،همممممممممم

ثمّ تناقصت الهمهمة، عندما حنت عليه من جديد، ممارسة أمومتها التي كانت قد أسقطتها من حسابها، حينما غدر بها أهلها، وأخرجها الزمان من أسباب وجودها، أمّا الذيب فقد نشط شريط ذكرياته، وشعر بالمهانة والذلّ مرددًا بينه وبين نفسه، ما كان يعيّر به في أمّ الإبر منذ طفولته:

- الذيب ابن شطمة المجنونة.. ابن شطمة المجنونة.. ابن شطمة...

صحا من ذكرياته وتوهماته عندما سمع صوت حارس المقبرة المعمّر:

- هذه شطمة المجنونة يا شباب، أمّه للذيب، انتبهوا من شرّها، كانت تعتدي على الفلاحين بأم الإبر، هذه التي كانت مخاوية الجن وتعيش مع الثعالب بمغارتهم، هذه هي التي رمت ابنها على باب المقبرة يا شباب اهربوا منها قبل أن تؤذيكم.. يا شباب...

وقبل أن يكمل أصابه طلقٌ ناريٌّ، استقرّ في رأسه، ولم يتسن لأحد أن يقترب من جثمانه الذي صمت إلى الأبد.

همهمت شطمة المجنونة على الآخرين من جديد، واستعدّ الجميع للهرب، لكنّ الذيب الذي كان قريبًا منها، التصق بها أكثر وأكثر، ضمّته إلى صدرها، ولثمت رأسه، فأخرج خنجره المعقوف والمسقي بسموم مدفن الدار، التحم بها، وحاول غرسه بقلبها، ولكنّها انتزعت الخنجر من يده، كمن يستلّ شعرة من وحل الجريمة، وضعت يدها على رأسه، فاستشعرت لؤمه، دفعته عنها، وصرخت صرخة عظيمة، وانقضّت عليه، أمسكت بيديه، ووضعتهما في حلقومه، لكنّها تراجعت عن نيتها بإخفائه عن الوجود في اللحظات الأخيرة؛ تركته حيًّا صانعًا للموت في كلّ أرجاء أمّ الإبر وامتدادات جدران مقبرتها التي تعدّت حدود الجغرافيا، تراخت يديها، ليس حبًّا بابنها، بل حقدًا على أهل بلاد يقتاتون معرفة من كهوف ماضيهم، وحبًّا من مدافن أوليائهم، تركته عونًا لشتاء الأرض الذي يمطر أفاعٍ وديدان طمعًا بالهيمنة، تركته حيًّا يلاعب جرذان المقبرة، تركته مع خنجره المسموم ومسدسه الذي أفرغ رصاصاته جميعها في جثمان حارس المقبرة، قبل أن يلقّمه من جديد؛ حينها صحت، وتذكّرت اعتداءاتها على فلاحي أمّ الإبر، وتذكّرت معاشرتها ثعالبها، تذكّرت قصور الشياطين الذين آووها؛ حينما طردها أهلها المنتشرون بكلّ بقاع الأرض، تأوّهت على حالها، وعلى كونها معتديّة وشريرة، ثمّ خرج من فمها زبدٌ مفعم بديدان الموت، وازدادت تلك الديدان السوداء المخطّطة بالأصفر حولها، وعادت تدور حول نفسها مطلقةً أصواتًا، لم يسمعها أحدٌ قبل هذه المشاهد، مجزرة الموت فوق مقبرة أم الإبر، لم تكن شطمة المجنونة تتوقّع أن يحمل ابنها هذا الكمّ من الإجرام، تفادت قتله، وتركته عرضة للموت، وهو مفعمٌ بالشرور، وأسهمت بدفع جدران مقبرة أمّ الإبر نحو مدنها، ثمّ صرخت من جديد:

- امممم، امممممم آه يا ابن الواوية، امممممم، امم.....

لم يُهمَد جسد شطمة المجنونة، كبر وحلّق فوق المدفن، ثمّ حطّت به على

رأس الذيب، ومسحت بكفّ يدها على وجهه، وولّت هاربةً مشكّلة زوبعة دخان انطلقت عاليًّا مندمجة مع طيور الليل متحوّلة عن ديدان الموت، حتى بلغت السماء، انتشرت أفقيًّا، وغطّت نجومًا خافتة، بعد أن انشقّ القمر، وانتقل من مكانه في كبد السماء إلى جهة الغرب، واستقرّ مشتعلًا بنيرانه، ثمّ حجبته الغيوم السوداء.

كان صوت شطمة المجنونة يجلجل، وكانت قامتها تكبر؛ حتّى تحوّلت إلى طائر خرافيٍّ له جسد أسد، ورأس أفعى، وجناحا طير ليلٍ عملاق، غطّى أرض المدينة، وحوّل سماءها إلى ظلام دامس، حجب نجومها، ومنع معرفة القاتل ومعرفة الضحية، كان له صرير يمنع سماع الآدميين بعضهم، أمّا الأضواء الشحيحة التي تسرّبت من وسط العتم الرهيب، فلم تكن إلّا لمن يسعى إلى درب صليبه، أضحت الحرية تعادل الموت في زمن الذيب ابن شطمة المجنونة.

اختفت النجوم من السماء، وانطفأت الأنوار كلّها، ولم ينبلج الفجر لمعرفة أعداد من سقط قتيلًا أو جرح في مقبرة تتوالد موتًا تحت أردية الظلام الخرافيّ الذي يلفّ أمّ الإبر، ويطبق على أهلها.

لم تتخلّ شطمة المجنونة عن ابنها الذيب، وظّفته للموت، وصارت تحوّلاتها مقترنة بحضوره؛ إذ توجّه الجميع، لقتل الجميع في عتم تفرضه بجناحيها اللذين لم يتوقفا عن الخفقان، استرشد الذيب ببقايا ضوء منحته إياه أمّه، فتفوّق على خصومه بأعداد من قتلهم، وقاد إمّعات على دروب ليل امتصّ موبقات البشر، وحمى مغارة الثعالب ذات العيون المتقزّزة أمام مشهد الدم الذي يباركه الوحش المتربّع على كرسيّ السلطة المحمول على رأس شطمة المجنونة.

***

لم يصل إلى الدار الكبيرة سوى عمر، دخل الدار وتوجّه إلى غرفة أمّه؛ ليطمئنها، اقترب منها، ونادى بصوت واثقٍ:

- أمي، أمي، أمي..

لم يسعه الوقت إخبارها؛ إذ أجابته بصوتها الواضح:

- أعرف، أحمد حيّ يا عمر، قلب الأمّ لا يخطيء يا قلبي...

اقترب منها، قبّلها، حضنته، وحكى لها وقائع معركة المقبرة، وأخبرها عن خلوّ قبر أحمد من أيّ أثر لجسد آدميّ، وتألّم كثيرًا عندما طلبت منه قيادتها إلى صندوقها المركون في زاوية القاعة، إذ لم يعد بإمكانها أن ترى دربها جيدًا.

استقامت أمّ سليمان عن سريرها، وتوجّهت، متكئةً على ذراع عمر، نحو صندوق مصدّف، ثمّ أخرجت منه صندوق مصوغات الأسلاف الذهبيّة، كان الصندوق نفسه الذي سلّمته الجدّة نعيمة لأحمد بطفولته، وأودعه لدى أمّه، من أجل اختيار أجمل نساء الدّار الكبيرة وتسليمها الصندوق، أقفلت أم سليمان الصندوق الكبير، وسلّمت المفتاح لعمر، وأوصته أن يسلّمه مع الصندوق الصغير إلى سلمى، ابنة أحمد، إذا ماتت قبل أن تلتقيها، وفق وصيّة الجدّة نعيمة، التي كانت تغطّ في غيبوبتها على سريرها؛ إذ التفت نحوها عمر وصرخ:

- جدّتي نعيمة، ستّي، ستّي، حبيب قلبك أحمد حيّ يرزق،..

لكنّها لم تعرفه، كانت تتساءل عمن يكون، اقترب منها أكثر، ولم تستطع أن تميّزه، وعجز عن إخبارها بما جرى، بكى أمامها من دون أن تعي ما يحصل من حولها.

خرج إلى أرض الدّار الكبيرة، كانت الظلمة حالكة والنجوم محتجبة، الكهرباء انقطعت، وليس من بصيص نور، حاول أن يضيء شموعًا، ولكنّ الكبريت والقدّاحات التي حاول إشعالها كانت قد توقفت عن العمل نهائيًّا، بقيّ منتظرًا انبلاج نور النهار، ولم يحظَ بشعاع منه، تلمّس طريقه وغادر

الدار، سار في الظلمة، ولم يتمكّن من رؤية أحد، بحث عن أصدقائه وأخويه، فلم يدرك أحدًا منهم، سمع همهمة الذيب ابن شطمة عن بعد، فتلمّس دربه، ورجع إلى الدار، أغلق بوابتها جيّدًا، وأيقظ أخواته، تحلّقن حول الأمّ والجدّة نعيمة، التي غابت عن الوجود، أمّا الأمّ بدت مرتاحة لحلمها الصحيح جدًّا، إنّها مدركةٌ الآن أنّ أحمد حيٌّ يرزق في مكان ما...

بكى عمر، وسأل ظلام الليل أمام أخواته وأمّه وجدّته:

- أين أنت يا أحمد، هل تشهد على وطن ينزف طائفيّة وموتًا وتهجيرًا وتغييبًا واعتقالًا وإعاقة وجهلًا وفسادًا.

لم يتلقَ جوابًا، ولكنّه استأنس؛ حالما وصل سليمان إلى الدّار، كان يعرج من رجله بشكل واضح، وجراحه تنزف دماءً، وقبل أن يسقط على الأرض انتحى بعمر، وطمأنه:

- جاء من أخبرني همسًا أنّ أحمد حيٌّ يرزق، وأوصاني بكتمان الخبر، كان خلفي، وأنا أصلي في الجامع الكبير، لم أعرفه لأنّه توارى في العتم،...

قبل سقوطه على الأرض، سنده عمر، وأجلسه على أريكةٍ؛ وسأله عمّن أثخن جراحه، فأجابه:

- الذيب ابن شطمة، إنّه يرى في العتم خلافًا للناس، تمكّن من إيذائي حينما تواريت في الجامع بعد معركة المقبرة.

لَعَن عمرُ الذيبَ وشطمة والعتمةَ، وحمِد اللّهَ على بقاء أحمد حيًّا، ثمّ سأل سليمان عن أخيه إبراهيم، فبكى، وأخبره أنّه استشهد في معركة المقبرة، وقام مع رفاقه بدفنه على عجل؛ حتّى لا تبقى جثّته معروضة لكلاب ليل المقبرة المسعورة وجرذانها، فصرخ عمر صرخة ألم عظيمة، ركضت أخواته نحو الصوت، وعرفن مع أمّهن بموت إبراهيم، بكين عليه وعدّدن مناقبه، ثمّ

قادهم سليمان نحو سرير جدتهم نعيمة، كنّ يبكين بحرقة في الظلمة الكالحة، وكان عمر يلوم نفسه على ما فعله، صمتوا جميعًا؛ حينما كانت الجدّة تحاول أن تنطق، ثم سمعوا حشرجتها، قائلةً:

- أحمـ..... وأسلمت روحها إلى بارئها، اقترب منها عمر، ونادى:
- جدّتي نعيمة، ستّي، ستّي، ستّي،...

حركّها فلم تستجب، عاود نداءه من دون جواب، لقد استحالت موتًا، لم يعرفوا أن يسعفوها؛ إذ حلكة الظلام منعتهم، تأكدّوا من موتها، وأجّلوا دفنها؛ حتى ينبلج نهار جديد، لكنّ الليل المدلهم بقيّ مطبقًا، وأبت الشمس أن تشرق.

بكى عمر بحلكة ذلك الليل الفظيع، وذرف دموعًا سخيّة سالت على وجنتيه، لا يعرف أكانت دموع فرح لتأكّده من حياة أحمد، أم دموع حزن على غياب سلمى ويحيى في لبنان، أو على موت أخيه إبراهيم الذي قُتل في معركة المقبرة، أم لافتقاده وسيلة إنارة في العتم لمعرفة الذي يحصل خارج الدار، أم على جدّته نعيمة التي حاروا بطريقة دفن جثمانها؛ إذ لم يعد بمقدورهم أن يدفنوها في المقبرة العموميّة وسط ليل أمّ الإبر الذي لفّ وجودها؛ حتّى أشارت أمّه التي أصبح بصرها شحيحًا جدًّا إلى إعادة تشييد مدفن الدار من جديد ومواراة جثمانها تحت ترابه.

أدهم مسعود القاق،

الإسكندرية، ٢٠١٣